بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان

مكية كلها في قول الجمهور. وقال ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾. وقال الضحاك: هي مدنية، وفيها آيات مكية؛ قوله: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾ الآيات.

ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن، وذكر مطاعن الكفار في النبوّة والرد على مقالاتهم؛ فمن جملتها قولهم: إن القرآن افتراه محمد، وإنه ليس من عند الله.

[١] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

[٢] ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ ﴿تبارك﴾ اختلف في معناه؛ فقال الفرّاء: هو في العربية و«تقدّس» واحد، وهما للعظمة. وقال الزجاج: ﴿تبارك﴾ تفاعل من البركة. قال: ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير. وقيل: ﴿تبارك﴾ تعالى. وقيل: تعالى عطاؤه، أي زاد وكثر. وقيل: المعنى دام وثبت إنعامه. قال النحاس: وهذا أولاها في اللغة والاشتقاق؛ من برك الشيء إذا ثبت؛ ومنه برك الجمل والطير على الماء، أي دام

وثبت. فأما القول الأوّل فمخلّط؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة وليس من ذا في شيء. قال الثعلبي: ويقال تبارك الله، ولا يقال متبارَك ولا مبارَك؛ لأنه ينتهي في أسمائه وصفاته إلى حيث ورد التوقيف. وقال الطِّرِمَّاح:

تباركتَ لا مُعْطٍ لشيء منعته وليس لما أعطيتَ يا ربّ مانع

وقال آخر:

تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يقعْ ولكَ الشكرُ

قلت: قد ذكر بعض العلماء في أسمائه الحسنى «المبارك» وذكرناه أيضاً في كتابنا. فإن كان وقع ٱتفاق على أنه لا يقال فيسلَّم للإجماع، وإن كان وقع فيه ٱختلاف فكثير من الأسماء ٱختلف في عدّه؛ كالدهر وغيره. وقد نبهنا على ذلك هنالك، والحمد لله.

و ﴿الفرقان﴾ القرآن. وقيل: إنه ٱسم لكل مُنزل؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرْقَانَ﴾. وفي تسميته فرقاناً وجهان: أحدهما ـ لأنه فرَق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر. الثاني ـ لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام؛ حكاه النقاش. ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ يريد محمداً ﷺ. ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ ٱسم «يكون» مضمر يعود على ﴿عبده﴾ وهو أولى لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكون يعود على ﴿الفرقان﴾. وقرأ عبد الله بن الزبير ﴿على عِبَادِهِ﴾. ويقال: أنذر إذا خوّف؛ وقد تقدم في أول ﴿البقرة﴾[1]. والنذير: المحذِّر من الهلاك. الجوهريّ: والنذير المنذر، والنذير الإنذار. والمراد بـ ﴿الْعَالَمِينَ﴾ هنا الإنس والجن، لأن النبيّ ﷺ قد كان رسولاً إليهما، ونذيراً لهما، وأنه خاتم الأنبياء، ولم يكن غيره عام الرسالة إلا نوح فإنه عمّ برسالته جميع الإنس بعد الطوفان، لأنه بدأ به الخلق.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ عظَّم تعالى نفسه. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله؛ يعني بنات الله سبحانه وتعالى. وعما قالت اليهود: عزير ٱبن الله؛ جلّ الله تعالى. وعما قالت النصارى: المسيح ٱبن الله؛ تعالى الله عن ذلك. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كما قال عبدة الأوثان.

---

(١) راجع ١/ ١٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا كما قال المجوس والثَّنَوِيّة: إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء. ولا كما يقول من قال: للمخلوق قدرة الإيجاد. فالآية ردٌّ على هؤلاء. ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ أي قدّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد، لا عن سهوة وغفلة، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة وبعد القيامة، فهو الخالق المقدّر؛ فإياه فٱعبدوه.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ ذكر ما صنع المشركون على جهة التعجيب في ٱتخاذهم الآلهة، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته. ﴿لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ يعني الآلهة. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لمّا ٱعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع، عبّر عنها كما يعبّر عما يعقل. ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً﴾ أي لا دفع ضرّ وجلب نفع، فحذف المضاف. وقيل: لا يقدرون أن يضروا أنفسهم أو ينفعوها بشيء، ولا لمن يعبدهم، لأنها جمادات. ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً﴾ أي لا يميتون أحداً، ولا يحيونه. والنّشور: الإحياء بعد الموت؛ أنشر الله الموتى فنَشروا. وقد تقدم[1]. وقال الأعشى:

حتى يقولَ الناسُ مما رَأَوْا ... يا عجباً للميِّتِ النّاشِرِ

[٤] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾.

[٥] ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾.

[٦] ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي قريش. وقال ٱبن عباس: القائل منهم ذلك النضر بن الحرث؛ وكذا كل ما في القرآن فيه ذكر الأساطير. قال محمد بن إسحاق: وكان مؤذياً للنبيّ ﷺ. ﴿إِنْ هَذَا﴾ يعني القرآن. ﴿إِلاَّ إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ﴾ أي كذب ٱختلقه. ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ يعني اليهود؛ قاله مجاهد. وقال ٱبن عباس:

(١) راجع ٧/٢٢٩ طبعة أولى أو ثانية.

المراد بقوله ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أبو فُكَيْهة مولى بني الحضرمي وعدّاس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب. وقد مضى في ﴿النحل﴾[1] ذكرهم. ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً﴾ أي بظلم. وقيل: المعنى فقد أتوا ظلماً. ﴿وَزُوراً. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ قال الزجاج: واحد الأساطير أسطورة؛ مثل أحدوثة وأحاديث. وقال غيره: أساطير جمع أسطار؛ مثل أقوال وأقاويل. ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ يعني محمداً. ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ أي تلقى عليه وتقرأ. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ حتى تحفظ. و ﴿تملى﴾ أصله تُملَل؛ فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف؛ كقولهم: تَقَضّى البازي؛ وشبهه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد أنزل هذا القرآن الذي يعلم السر، فهو عالم الغيب، فلا يحتاج إلى معلِم. وذكر ﴿السر﴾ دون الجهر؛ لأنه من علم السر فهو في الجهر أعلم. ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها، وقد جاء بفنون تخرج عنها، فليس مأخوذاً منها. وأيضاً ولو كان مأخوذاً من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضاً كما تمكن محمد ﷺ؛ فهلا عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه. ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يريد غفوراً لأوليائه رحيماً بهم.

[٧] ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾.

[٨] ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ ذكر شيئاً آخر من مطاعنهم. والضمير في ﴿قالوا﴾ لقريش؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله ﷺ مجلس مشهور، وقد تقدّم

---

(١) راجع ١٠/١٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

في ﴿سبحان﴾[١]. ذكره ابن إسحاق في السيرة وغيره. **مضمنه** ـ أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا: يا محمد! إن كنت تحب الرياسة ولّيناك علينا، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا؛ فلما أبى رسول الله ﷺ عن ذلك رجعوا في باب الاحتجاج معه فقالوا: ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام، وتقف بالأسواق! فعيّروه بأكل الطعام؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملَكاً، وعيّروه بالمشي في الأسواق حينَ رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق، وكان عليه السلام يخالطهم في أسواقهم، ويأمرهم وينهاهم؛ فقالوا: هذا يطلب أن يتملك علينا، فما له يخالف سيرة الملوك؛ فأجابهم الله بقوله، وأنزل على نبيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ فلا تغتم ولا تحزن، فإنها شَكاة ظاهر عنك عارها.

الثانية ـ دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش. وكان عليه السلام يدخلها لحاجته، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته، ويعرِض نفسه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق. وفي البخاري في صفته عليه السلام: «ليس بفظٍّ ولا غلِيظ ولا سخَّاب في الأسواق» وقد تقدّم في ﴿الأعراف﴾[٢]. وذكر السوق مذكور في غير ما حديث، ذكره أهل الصحيح. وتجارة الصحابة فيها معروفة، وخاصة المهاجرين؛ كما قال أبو هريرة: وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْق[٣] بالأسواق؛ خرجه البخاريّ. وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في هذه السورة إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي هلاّ. ﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ جواب الاستفهام. ﴿أَوْ يُلْقَى﴾ في موضع رفع؛ والمعنى: أو هلاّ يلقى ﴿إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ ﴿أَوْ﴾ هلاّ ﴿تكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ ﴿يأكل﴾ بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم. وقرأ سائر الكوفيين بالنون، والقراءتان حسنتان تؤدّيان عن معنى، وإن كانت القراءة بالياء أبين؛ لأنه

---

(١) راجع ١٠/٣٢٨ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ٧/٢٩٩ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) الصفق: التبايع.

قد تقدّم ذكر النبي ﷺ وحده فأن يعود الضمير عليه أبين؛ ذكره النحاس. ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ تقدّم في ﴿سبحان﴾[1] والقائل عبد الله بن الزِّبَعْرى فيما ذكره الماورديّ.

[٩] ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾.

[١٠] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ أي ضربوا لك هذه الأمثال ليتوصلوا إلى تكذيبك. ﴿فَضَلُّوا﴾ عن سبيل الحق وعن بلوغ ما أرادوا. ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ إلى تصحيح ما قالوه فيك.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ﴾ شرط ومجازاة، ولم يدغم ﴿جَعَلَ لَكَ﴾ لأن الكلمتين منفصلتان، ويجوز الإدغام لاجتماع المثلين. ﴿وَيَجْعَلْ لَكَ﴾ في موضع جزم عطفاً على موضع ﴿جعل﴾. ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعاً من الأوّل. وكذلك قرأ أهل الشام. ويروى عن عاصم أيضاً ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ﴾ بالرفع؛ أي وسيجعل لك في الآخرة قصوراً. قال مجاهد: كانت قريش ترى البيت من حجارة قصراً كائناً ما كان. والقصر في اللغة الحبس، وسمي القصر قصراً لأن من فيه مقصور عن أن يوصل إليه. وقيل: العرب تسمي بيوت الطين القصر. وما يتخذ من الصوف والشعر البيت. حكاه القُشَيري. وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن خَيْثَمة قال: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ولم يعطَ ذلك من قبلك ولا يعطاه أحد بعدك، وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئاً؛ وإن شئت جمعنا لك ذلك في الآخرة؛ فقال: «يجمع ذلك لي في الآخرة» فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً

(١) راجع ١٠/ ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية.

مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾. ويروى أنّ هذه الآية أنزلها رضوان خازن الجنان إلى النبي ﷺ ؛ وفي الخبر : إن رضوان لما نزل سلم على النبي ﷺ ؛ ثم قال: يا محمد! رب العزة يقرئك السلام، وهذا سَفَط[1] ـ فإذا سَفَط من نور يتلألأ ـ يقول لك ربك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا، مع أنه لا ينقص مالك في الآخرة مثل جناح بعوضة؛ فنظر النبي ﷺ إلى جبريل كالمستشير له؛ فضرب جبريل بيده الأرض يشير أن تواضع؛ فقال: «يا رضوان لا حاجة لي فيها الفقر أحب إليّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً». فقال رضوان: أصبت! الله لك. وذكر الحديث.

[١١] ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ يريد جهنم تتلظى عليهم. ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي من مسيرة خمسمائة عام. ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ قيل: المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم . وقيل : المعنى إذا رأتهم خزّانها سمعوا لهم تغيظاً وزفيراً حرصاً على عذابهم. والأوّل أصح؛ لما روي مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً» قيل: يا رسول الله! ولها عينان؟ قال: «أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ يخرج عُنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول وُكِّلت بكل من جعل مع الله إلهاً آخر فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه» في رواية «فيخرج عُنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب

---

(١) السفط: الذي يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء. وقيل: كالجوالق.

السمسم» ذكره رَزِين في كتابه، وصححه ٱبن العربي في قبسه، وقال: أي تفصلهم عن الخلق في المعرفة كما يفصل الطائر حب السمسم من التربة. وخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يَخرج عُنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول إني وُكِّلت بثلاث بكل جبّار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصوِّرين». وفي الباب عن أبي سعيد قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال الكلبي: سمعوا لها تغيظاً كتغيظ بني آدم وصوتاً كصوت الحمار. وقيل: فيه تقديم وتأخير، سمعوا لها زفيراً وعلموا لها تغيظاً. وقال قطرب: التغيظ لا يسمع، ولكن يُرى، والمعنى: رأوا لها تغيظاً وسمعوا لها زفيراً؛ كقول الشاعر:

ورأيـت زوجَـكِ فـي الـوَرَى مُتقلِّـــداً سيفـــاً ورُمحـــاً

أي وحاملاً رمحاً. وقيل: ﴿سمِعُوا لَهَا﴾ أي فيها؛ أي سمعوا فيها تغيظاً وزفيراً للمعذَّبين. كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ و «في واللام» يتقاربان؛ تقول: أفعل هذا في الله ولله.

قوله تعالى: ﴿وإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن عبد الله كان يقول: إن جهنم لتضيّق على الكافر كتضييق الزُّج[1] على الرمح؛ ذكره ٱبن المبارك في رقائقه. وكذا قال ٱبن عباس، ذكره الثعلبي والقشيري عنه، وحكاه الماوردي عن عبد الله بن عمرو. ومعنى ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مكتَّفينَ؛ قاله أبو صالح. وقيل: مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. وقيل: قرنوا مع الشياطين؛ أي قرن كل واحد منهم إلى شيطانه؛ قاله يحيى بن سلام. وقد مضى هذا في ﴿إبراهيم﴾[2] وقال عمرو بن كلثوم:

فـآبُـوا بـالنِّهـابِ وبـالسَّبـايَـا وأُبْنَـا بـالملـوكِ مُقـرَّنينـا[3]

﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ أي هلاكاً؛ قاله الضحاك. ٱبن عباس: ويلاً. وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أوّل من يقوله إبليس وذلك أنه أوّل من يكسى حلة من النار

---

(١) الزج (بالضم): الحديدة التي في أسفل الرمح.
(٢) راجع ٩/ ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية.
(٣) الرواية في البيت: «مصفدينا».

فتوضع على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته مِن خلفه وهو يقول واثبوراه». وٱنتصب على المصدر، أي ثبرنا ثبوراً؛ قاله الزجاج. وقال غيره: هو مفعول به.

قوله تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ فإن هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة. وقال ثبوراً لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع؛ وهو كقولك: ضربته ضرباً كثيراً، وقعد قعوداً طويلاً. ونزلت الآيات في ٱبن خَطَل وأصحابه.

[١٥] ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. إن قيل: كيف قال ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ولا خير في النار؛ فالجواب أن سيبويه حكى عن العرب: الشقاء أحب إليك أم السعادة، وقد علم أن السعادة أحب إليه. وقيل: ليس هو من باب أفعل منك، وإنما هو كقولك: عنده خير. قال النحاس: وهذا قول حسن؛ كما قال(1):

فشرُّكما لخيرِ كما الفِداءُ

قيل: إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا في باب المنازل؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين. وقيل: هو مردود على قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ﴾ الآية. وقيل: هو مردود على قوله: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾. وقيل: إنما قال ذلك على معنى عِلمكم واعتقادكم أيها الكفار؛ وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن في النار خيراً.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي من النعيم. ﴿خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً﴾ قال الكلبيّ: وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم، فسألوه ذلك الوعد فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾. وهو معنى قول ٱبن عباس. وقيل: إن الملائكة تسأل لهم

---

(1) هو حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يمدح النبي ﷺ ويهجو أبا سفيان، وصدر البيت:

أتهجوه ولست له بكفء

الجنة؛ دليله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ الآية. وهذا قول محمد بن كعب القُرظي. وقيل: معنى ﴿وَعْداً مَسْؤُولاً﴾ أي واجباً وإن لم يكن يسأل كالدَّين؛ حكي عن العرب: لأعطينك ألفاً. وقيل: ﴿وَعْداً مَسْؤُولاً﴾ يعني أنه واجب لك فتسأله. وقال زيد بن أسلم: سألوا الله الجنة في الدنيا ورغِبوا إليه بالدعاء، فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا. وهذا يرجع إلى القول الأول.

[١٧] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ ٱبن محيصِن وحميد وٱبن كثير وحفص ويعقوب وأبو عمرو في رواية الدورِيّ ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء. وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله في أول الكلام ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ﴾ وفي آخره ﴿أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هؤلاء﴾. الباقون بالنون على التعظيم. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والمسيح وعُزير؛ قاله مجاهد وٱبن جريج. الضحاك وعكرمة: الأصنام. ﴿فَيَقُولُ﴾ قراءة العامة بالياء وهو ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ ٱبن عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم. ﴿أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ وهذا ٱستفهام توبيخ للكفار. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي قال المعبودون من دون الله سبحانك؛ أي تنزيهاً لك ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾. فإن قيل: فإن كانت الأصنام التي تعبد تحشر فكيف تنطق وهي جماد؟ قيل له: ينطقها الله تعالى يوم القيامة كما ينطق الأيدي والأرجل. وقرأ الحسن وأبو جعفر ﴿أَنْ نُتَّخَذَ﴾ بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول. وقد تكلم في هذه القراءة النحويون؛ فقال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر:

لا يجوز ﴿نُتَّخَذَ﴾. وقال أبو عمرو: لو كانت ﴿نُتَّخَذَ﴾ لحذفت ﴿مِن﴾ الثانية فقلت: أن نُتَّخَذ من دونك أولياءَ. كذلك قال أبو عبيدة: لا يجوز ﴿نُتَّخَذَ﴾ لأن الله تعالى ذكر ﴿مِن﴾ مرتين، ولو كان كما قرأ لقال: أن نُتخذ من دونك أولياء. وقيل: إن ﴿مِن﴾ الثانية صلة؛ قال النحاس: ومثل أبي عمرو على جلالته ومحله يستحسن ما قال؛ لأنه جاء ببينة. وشرح ما قال أنه يقال: ما ٱتخذت رجلاً وليًا؛ فيجوز أن يقع هذا للواحد بعينه؛ ثم يقال: ما ٱتخذت من رجل ولياً فيكون نفياً عاماً، وقولك ﴿ولياً﴾ تابع لما قبله فلا يجوز أن تدخل فيه ﴿مِن﴾ لأنه لا فائدة في ذلك. ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ أي في الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم. ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أي تركوا ذكرك فأشركوا بك بطراً وجهلاً فعبدونا من غير أن أمرناهم بذلك. وفي الذكر قولان: أحدهما ـ القرآن المنزل على الرسل؛ تركوا العمل به؛ قاله ٱبن زيد. الثاني ـ الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم. إنهم ﴿كَانُوا قَوْماً بُوراً﴾ أي هلكى؛ قاله ٱبن عباس. مأخوذ من البوار وهو الهلاك. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه وقد أشرف على أهل حِمص: يا أهل حمص! هلم إلى أخ لكم ناصح، فلما ٱجتمعوا حوله قال: ما لكم لا تستحون! تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأمُلون ما لا تدركون، إن من كان قبلكم بنوا مشيداً وجمعوا عبيداً، وأملوا بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وآمالهم غروراً، ومساكنهم قبوراً؛ فقوله ﴿بوراً﴾ أي هلكى. وفي خبر آخر: فأصبحت منازلهم بوراً؛ أي خالية لا شيء فيها. وقال الحسن: ﴿بوراً﴾ لا خير فيهم. مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير. وقال شهر بن حَوْشَب: البوار الفساد والكساد؛ مأخوذ من قولهم: بارت السلعة إذا كسدت كساد الفاسد؛ ومنه الحديث «نعوذ بالله من بوار الأيِّم». وهو ٱسم مصدر كالزّور يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث. قال ٱبن الزِّبَعْرَى:

يـا رسـولَ المليـكِ إنّ لسـانـي ... رَاتِـقٌ مـا فَتقـتُ إذ أنـا بُـورُ

إذ أُبـاري الشيطـانَ فـي سَنَـن الغَـ ... ـيِّ ومَـنْ مَـالَ ميلَـه مَثْبُـورُ

وقال بعضهم: الواحد بائر والجمع بُور. كما يقال: عائذ وعُوذ، وهائد وهُود. وقيل: «بُوراً» عمياً عن الحق.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي يقول الله تعالى عند تبرّي المعبودين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي في قولكم إنهم آلهة. ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني الآلهة صرف العذاب عنكم ولا نصركم. وقيل: فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذّبهم المعبودون ﴿صَرْفاً﴾ للعذاب ﴿وَلاَ نَصْراً﴾ من الله. وقال ابن زيد: المعنى فقد كذّبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد؛ وعلى هذا فمعنى ﴿بما تقولون﴾ بما تقولون من الحق. وقال أبو عبيد: المعنى؛ فيما تقولون فما يستطيعون لكم صرفاً عن الحق الذي هداكم الله إليه، ولا نصراً لأنفسهم مما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم. وقراءة العامة ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بالتاء على الخطاب. وقد بينا معناه. وحكى الفراء أنه يقرأ ﴿فَقَدْ كَذَبُوكُمْ﴾ مخففاً، ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾. وكذا قرأ مجاهد والبَزّي بالياء، ويكون معنى ﴿يَقُولُونَ﴾ بقولهم. وقرأ أبو حيوة ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ بياء ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بتاء على الخطاب لمتخذي الشركاء. ومن قرأ بالياء فالمعنى: فما يستطيع الشركاء. ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ قال ابن عباس: من يشرك منكم ثم مات عليه. ﴿نُذِقْهُ﴾ أي في الآخرة. ﴿عَذَاباً كَبِيراً﴾ أي شديداً؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ أي شديداً.

[٢٠] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

فيه تسع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ نزلت جواباً للمشركين حيث قالوا: ﴿مالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾. وقال ابن عباس: لمّا عيّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة وقالوا: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾

الآية حزن النبيّ ﷺ لذلك فنزلت تعزية له؛ فقال جبريل عليه السلام: السلام عليك يا رسول الله! الله ربك يقرئك السلام ويقول لك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي يبتغون المعايش في الدنيا.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ إذا دخلت اللام لم يكن في ﴿إن﴾ إلا الكسر، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضاً إلا الكسر؛ لأنها مستأنفة. هذا قول جميع النحويين. قال النحاس: إلا أن عليّ بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال: يجوز في ﴿إنّ﴾ هذه الفتح وإن كان بعدها اللام؛ وأحسبه وهما منه. قال أبو إسحاق الزجاج: وفي الكلام حذف؛ والمعنى وما أرسلنا قبلك رسلاً إلا إنهم ليأكلون الطعام، ثم حذف رسلاً، لأن في قوله: ﴿مِن المرسلِين﴾ ما يدل عليه. فالموصوف محذوف عند الزجاج. ولا يجوز عنده حذف الموصول وتبقية الصلة كما قال الفراء. قال الفراء: والمحذوف ﴿مَن﴾ والمعنى إلا مَنْ إنهم ليأكلون الطعام. وشبهه بقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾، وقولِه: ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي ما منكم إلا من هو واردها. وهذا قول الكسائيّ أيضاً. وتقول العرب: ما بعثت إليك من الناس إلا مَن إنه ليطيعك. فقولك: إنه ليطيعك صلة من. قال الزجاج: هذا خطأ؛ لأن من موصولة فلا يجوز حذفها. وقال أهل المعاني: المعنى؛ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل إنهم ليأكلون؛ دليله قوله تعالى: ﴿ما يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾. وقال ابن الأنباريّ: كسرت ﴿إنّهم﴾ بعد ﴿إلا﴾ للاستئناف بإضمار واو. أي إلا وإنهم. وذهبت فرقة إلى أن قوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث.

قلت: وهذا بليغ في معناه، ومثله ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾. ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ قرأ الجمهور ﴿يَمْشُونَ﴾ بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين. وقرأ عليّ وابن عوف وابن مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة، بمعنى يُدْعَون إلى المشي ويحملون عليه. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشدّدة، وهي بمعنى يَمْشُونَ؛ قال الشاعر:

ومَشَّى بأعطان المَبَاءة وأبتغى قلائصَ منها صعبةٌ ورَكُوبُ[١]

وقال كعب بن زهير:

منه تظل سِباعُ الجوِّ ضامزة[٢] ولا تُمَشِّي بوادِيه الأَرَاجيلُ

بمعنى تَمْشي.

الثالثة ـ هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع، لكننا نذكر هنا من ذلك ما يكفي فنقول: قال لي بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جرى: إن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء؛ فقلت مجيباً له: هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء، والرعاع السفهاء، أو من طاعن في الكتاب والسنة العلياء؛ وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ قال العلماء: أي يتجرون ويحترفون. وقال عليه الصلاة والسلام: «جُعِل رزقي تحت ظل رُمْحِي» وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وكان الصحابة رضي الله عنهم يتجرون ويحترفون وفي أموالهم يعملون، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون؛ أتراهم ضعفاء! بل هم كانوا والله الأقوياء، وبهم الخلف الصالح اقتدى، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء. قال: إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء، فتناولوها مباشرة في حق الضعفاء، فأما في حق أنفسهم فلا؛ وبيان ذلك أصحاب الصُّفة.

قلت: لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان؛ كما ثبت في القرآن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ الآية. وهذا من البينات والهدى. وأما أصحاب الصُّفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام

(١) في «روح المعاني»: «ذلول» بدل «ركوب».

(٢) الجو: البر الواسع. وضامزة: ساكتة، وكل ساكت فهو ضامز. والأراجيل: جمع أرجال كأناعيم جمع أنعام، وأرجال جمع رجل. يصف الشاعر أسداً بأن الأسود والرجال تخافه، فالأسود ساكتة من هيبته والرجال ممتنعة عن المشي بواديه.

عند ضيق الحال، فكان عليه السلام إذا أتته صدقة خصهم بها، وإذا أتته هدية أكلها معهم، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى أبيات رسول الله ﷺ. كذا وصفهم البخاريّ وغيره. ثم لما ٱفتتح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأمّروا، وبالأسباب أُمِروا. ثم إن هذا القول يدل على ضعف النبيّ ﷺ وأصحابه؛ لأنهم أيدوا بالملائكة وثُبِّتوا بهم، فلو كانوا أقوياء ما ٱحتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأييدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر؛ نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هذا، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذي ٱنعقد عليه إجماع المسلمين؛ وإلا كان يكون قوله الحق: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ﴾ ـ الآية ـ مقصوراً على الضعفاء، وجميع الخطابات كذلك. وفي التنزيل حيث خاطب موسى الكليم ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ وقد كان قادراً على فلق البحر دون ضرب عصا. وكذلك مريم عليها السلام ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ وقد كان قادراً على سقوط الرطب دون هز ولا تعب؛ ومع هذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطَف به ويعان، أو تجاب دعوته، أو يكرم بكرامة في خاصة نفسه أو لأجل غيره، ولا تهدّ لذلك القواعد الكلية والأمور الجملية. هيهات هيهات! لا يقال فقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فإنا نقول: صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم، وأن الرزق هنا المطر بإجماع أهل التأويل؛ بدليل قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً﴾ وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباقَ الخبز ولا جِفان اللحم، بل الأسباب أصل في وجود ذلك؛ وهو معنى قوله عليه السلام: «ٱطلبوا الرزق في خبايا الأرض» أي بالحرث والحفر والغرس. وقد يسمى الشيء بما يؤول إليه، وسمي المطر رزقاً لأنه عنه يكون الرزق، وذلك مشهور في كلام العرب. وقال عليه السلام: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه» وهذا فيما خرج من غير تعب من الحشيش والحطب. ولو قُدِّر رجل بالجبال منقطعاً عن الناس لما كان له بد من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وظهور الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش به؛

وهو معنى قوله عليه السلام: «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكُّله لرزقتم كما تُرزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً» فغدوّها ورواحها سبب؛ فالعجب العجب ممن يدّعي التجريد والتوكل على التحقيق، ويقعد على ثنيات الطريق، ويدع الطريق المستقيم، والمنهج الواضح القويم. ثبت في «البخاري» عن ٱبن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوّدون ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾. ولم ينقل عن النبيّ ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد، وكانوا المتوكلين حقاً. والتوكل ٱعتماد القلب على الرب في أن يلم شعثه ويجمع عليه أربه؛ ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر. وهذا هو الحق. سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال: إني أريد الحج على قدم التوكل. فقال: ٱخرج وحدك؛ فقال: لا، إلا مع الناس. فقال له: أنت إذن متكل على أجربتهم. وقد أتينا على هذا في كتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذلّ السؤال بالكتب والشفاعة».

الرابعة ـ خرّج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها». وخرّج البزّار عن سلمان الفارسيّ قال قال رسول الله ﷺ: «لا تكونن إن ٱستطعت أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته». أخرجه أبو بكر البَرْقانيّ مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ ـ من رواية عاصم ـ عن أبي عثمان النهدِيّ عن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: «لا تكن أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرّخ». ففي هذه الأحاديث ما يدل على كراهة دخول الأسواق، لا سيما في هذه الأزمان التي يخالط فيها الرجال النسوان. وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر: كُرِه دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدين تنزيهاً لهم عن البقاع التي يُعصى الله فيها. فحق على من ٱبتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محلّ الشيطان ومحل جنوده، وأنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله ٱقتصر منه على قدر ضرورته، وتحرز من سوء عاقبته وبليته.

الخامسة ـ تشبيه النبيّ ﷺ السوق بالمعركة تشبيه حسن؛ وذلك أن المعركة موضع القتال، سمي بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضاً. فشبه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم مما يحملهم من المكر والخديعة، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والأيمان الكاذبة، واختلاط الأصوات وغير ذلك بمعركة الحرب ومن يصرع فيها.

السادسة ـ قال ابن العربيّ: أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا درك[١] فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون: لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة؛ ومن الأحاديث الموضوعة[٢] «الأكل في السوق دناءة».

قلت: ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعما هو؛ فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى النسوان ومخالطتهن؛ إذ ليس بذلك من حاجتهنّ. وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهن، وقلة الحياء قد غلبت عليهن، حتى ترى المرأة في القيسارِيات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا. نعوذ بالله من سخطه.

السابعة ـ خرّج أبو داود الطيالسيّ في مسنده حدّثنا حماد بن زيد قال حدّثنا عمرو بن دينار قهرمان[٣] آل الزبير عن سالم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال: «من دخل سوقاً من هذه الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألفَ ألف سيئة وبنى له قصراً في الجنة» خرّجه الترمذيّ أيضاً وزاد بعد «ومحا عنه ألفَ ألف سيئة»: «ورفع له ألف ألف درجةٍ وبنى له بيتاً في الجنة». وقال: هذا حديث غريب. قال ابن العربيّ: وهذا إذا لم يقصد في تلك البقعة سواه[٤] ليعمرها بالطاعة إذ عمرت بالمعصية، وليحليها بالذكر إذ عطلت بالغفلة، وليعلم الجهلة ويذكر الناسين.

---

(١) الدرك (يسكن ويحرك): التبعة.
(٢) الحديث رواه الطبراني عن أبي أمامة والخطيب عن أبي هريرة وضعفه السيوطي.
(٣) القهرمان: هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل، بلغة الفرس.
(٤) سواه: أي سوى الله تعالى.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمنٍ وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغنيّ فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغنيّ. ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه؛ فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقير ممتحن بالغنيّ، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق؛ كما قال الضحاك في معنى ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾: أي على الحق. وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لم نعافَ؟ والأعمى يقول: لم لم أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة. والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره. وكذلك العلماء وحكام العدل. ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى. والصبر: أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر. ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ محذوف الجواب، يعني أم لا تصبرون. فيقتضي جواباً كما قاله المزني، وقد أخرجته الفاقة فرأى خصياً في مراكب ومناكب، فخطر بباله شيء فسمع من يقرأ الآية ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فقال: بلى ربنا! نصبِر ونحتسب. وقد تلا ابن القاسم صاحب مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه، ثم أجاب نفسه بقوله: سنصبر. وعن أبي الدرداء أنه سمع النبيّ ﷺ أنه قال: «ويل للعالِم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للمالك من المملوك وويل للمملوك من المالك وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وبعضهم لبعض فتنة وهو قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أسنده الثعلبي تغمده الله برحمته. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، وعقبة بن أبي مُعَيط وعُتْبة بن ربيعة والنضر بن الحرث حين رأوا أبا ذرّ وعبد الله بن مسعود، وعماراً وبلالاً وصُهَيباً وعامر بن فُهَيرة، وسالماً مولى أبي حُذَيفة ومِهْجَعا مولى عمر بن الخطاب وجبراً مولى الحَضْرمي، وذويهم؛ فقالوا على سبيل الاستهزاء: أنسلم فنكون مثل هؤلاء؟ فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء

المؤمنين: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر؛ فالتوقيف بـ ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ خاص للمؤمنين المحققين من أمة محمد ﷺ. كأنه جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين، أي ٱختباراً لهم. ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

التاسعة ـ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي بكل ٱمرىء وبمن يصبر أو يجزع، ومن يؤمن ومن لا يؤمن، وبمن أدّى ما عليه من الحق ومن لا يؤدّي. وقيل: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أي ٱصبروا. مثل ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ أي ٱنتهوا؛ فهو أمر للنبي ﷺ بالصبر.

[٢١] ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يريد لا يخافون البعث ولقاء الله، أي لا يؤمنون بذلك. قال:

إذا لَسَعَتْهُ النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَهَا ... وخَالَفَهَا في بيت نُوبٍ عَوامِلِ(١)

وقيل: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يبالون. قال:

لعمركَ ما أرجو إذا كنتُ مُسْلِماً ... على أيِّ جَنْبٍ كان في الله مَصْرَعِي(٢)

ٱبن شجرة: لا يأملون؛ قال:

أتـرجـو أُمَّـةٌ قتلـتْ حسينـاً ... شفـاعـةَ جـدّه يـومَ الحسـابِ

﴿لَوْلَا أُنْزِلَ﴾ أي هلا أنزل. ﴿عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فيخبروا أن محمداً صادق. ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ عِياناً فيخبرنا برسالته. نظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ

---

(١) البيت لأبي ذؤيب وتقدّم شرحه في ٨/٣١١ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) البيت من قصيدة لخبيب بن عدي قالها حين بلغه أن الكفار قد اجتمعوا لصلبه.

ينبُوعاً﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً﴾. قال الله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً﴾ حيث سألوا الله الشطط؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب، والله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، فلا عين تراه. وقال مقاتل: ﴿عُتُوًّا﴾ علواً في الأرض. والعتوّ: أشدّ الكفر وأفحش الظلم. وإذا لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكتفون بالملائكة؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين، ولا بدّ لهم من معجزة يقيمها من يدّعي أنه مَلَك، وليس للقوم طلب معجزة بعد أن شاهدوا معجزة، وأن ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت، فتبشر المؤمنين بالجنة، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تخرج أنفسهم. ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾ يريد تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله، وأقام شرائعها؛ عن ابن عباس وغيره. وقيل: إن ذلك يوم القيامة؛ قاله مجاهد وعطية العوفيّ. قال عطية: إذا كان يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى، فإذا رأى ذلك الكافر تمناه فلم يره من الملائكة. وانتصب ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ بتقدير لا بشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد لـ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾. قال النحاس: لا يجوز أن يكون ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ منصوباً بـ ﴿بُشْرَى﴾ لأن ما في حيز النفي لا يعمل فيما قبله، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى يمنعون البشارة يوم يرون الملائكة؛ ودل على هذا الحذف ما بعده. ويجوز أن يكون التقدير: لا بشرى تكون يوم يرون الملائكة، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مؤكد. ويجوز أن يكون المعنى: اذكر يوم يرون الملائكة، ثم ابتدأ فقال: ﴿لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي وتقول الملائكة حراماً محرّماً أن تكون لهم البشرى إلا للمؤمنين. قال الشاعر:

أَلاَ أَصْبَحَتْ أسماءُ حِجْراً مُحَرَّماً وَأَصْبَحْتُ من أَدْنَى حُمُوَّتِهَا حَمَا[1]

أراد ألا أصبحت أسماء حراماً محرماً.

---

(١) قاله رجل كانت له امرأة فطلقها وتزوّجها اخوه؛ أي أصبحت أخا زوجها بعد ما كنت زوجها.

وقال آخر:

حَنَّت إلى النَّخْلَةِ القُصْوَى فقلتُ لها ... حِجْرٌ حرامٌ ألَا تِلْكَ الدَّهارِيسُ[١]

وروي عن الحسن أنه قال: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً﴾ وقفٌ من قول المجرمين؛ فقال الله عز وجل: ﴿مَحْجُوراً﴾ عليهم أن يعاذوا أو يجاروا؛ فحجر الله ذلك عليهم يوم القيامة. والأوّل قول ابن عباس وبه قال الفرّاء؛ قاله ابن الأنباريّ. وقرأ الحسن وأبو رجاء ﴿حُجْراً﴾ بضم الحاء والناس على كسرها. وقيل: إن ذلك من قول الكفار قالوه لأنفسهم؛ قاله قتادة فيما ذكر الماوردي. وقيل: هو من قول الكفار للملائكة. وهي كلمة استعاذة وكانت معروفة في الجاهلية؛ فكان إذا لقي الرجل من يخافه قال: حجراً محجوراً؛ أي حراماً عليك التعرض لي. وانتصابه على معنى: حجرت عليك، أو حجر الله عليك؛ كما تقول: سقياً ورعياً. أي إن المجرمين إذا رأوا الملائكة يلقونهم في النار قالوا: نعوذ بالله منكم؛ ذكره القشيريّ، وحكى معناه المهدوي عن مجاهد. وقيل: ﴿حِجْراً﴾ من قول المجرمين. ﴿مَحْجُوراً﴾ من قول الملائكة؛ أي قالوا للملائكة نعوذ بالله منكم أن تتعرضوا لنا. فتقول الملائكة: ﴿مَحْجُوراً﴾ أن تعاذوا من شر هذا اليوم؛ قاله الحسن.

[٢٣] ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ هذا تنبيه على عظم قدر يوم القيامة؛ أي قصدنا في ذلك إلى ما كان يعمله المجرمون من عمل بر عند أنفسهم. يقال: قدِم فلان إلى أمر كذا أي قصده. وقال مجاهد: ﴿قَدِمْنَا﴾ أي عمدنا. وقال الراجز:

وقَـدِم الخـوارجُ الضُّـلالُ ... إلـى عِبـاد ربِّهـم فقـالـوا

إن دمـاءكـم لنـا حـلالُ

---

(١) البيت للمتلمس؛ والنخلة القصوى: واد. والدهاريس: الدواهي. يقول لناقته: هذا الذي حننت إليه ممنوع. وبعده:

أمـي شـآميـة إذ لا عـراق لنـا ... قـومـاً نـودّهـم إذ قـومنـا شـوس

وقيل: هو قدوم الملائكة، أخبر به عن نفسه تعالى فاعله[١]. ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ أي لا ينتفع به؛ أي أبطلناه بالكفر. وليس ﴿هَبَاءً﴾ من ذوات الهمز وإنما همزت لالتقاء الساكنين. والتصغير هُبَيٌّ في موضع الرفع، ومن النحويين من يقول: هُبَيٌّ[٢] في موضع الرفع؛ حكاه النحاس. وواحده هباة والجمع أهباء. قال الحرث بن حِلِّزة يصف [ناقة]:

فَتَرَى خِلفَها من الرَّجْعِ والوَقْـ ـعِ مَنِيناً كـأنـه أهبـاء[٣]

وروى الحرث عن علي قال: الهباء المنثور شعاع الشمس الذي يدخل من الكوّة. وقال الأزهريّ: الهباء ما يخرج من الكوّة في ضوء الشمس شبيه بالغبار. تأويله: إن الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور. فأما الهباء المنبث فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار. والمنبث المتفرق. وقال ابن عرفة: الهَبوة والهَباء التراب الدقيق. الجوهري: ويقال له إذا ارتفع هَبَا يَهْبُو هُبُوًّا وأهبيته أنا. والهَبْوة الغَبَرة. قال رؤبة:

تَبْدُو لنا أَعْلَامُهُ بعد الغَرَقْ في قِطَعِ الآلِ وهَبْوَاتِ الدُّقَقْ[٤]

وموضعٌ هابِي التراب أي كأن ترابه مثل الهباءَ في الرقة. وقيل: إنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر؛ قاله قتادة وابن عباس. وقال ابن عباس أيضاً: إنه الماء المهراق. وقيل: إنه الرماد؛ قاله عبيد[٥] بن يعلى.

قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾.

تقدم القول فيه عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾[٦]. قال النحاس: والكوفيون يجيزون «العسل أحلى من الخل» وهذا قول مردود؛ لأن معنى فلان خير من فلان أنه أكثر خيراً منه ولا حلاوة في الخل. ولا يجوز أن يقال: النصراني خير من اليهودي؛ لأنه لا خير فيهما فيكون أحدهما أزيد في الخير. لكن يقال: اليهودي شر

---

(١) كذا في الأصل؛ وعبارة ابن عطية: «أسنده إليه لأنه عن أمره».

(٢) قال النحاس: والتقدير عنده هبيء.

(٣) قوله «خلفها» أي خلف الناقة. والرجع: رجع قوائمها. والوقع: وقع خفافها. والمنين: الغبار الدقيق الذي تثيره.

(٤) الدقق: ما دق من التراب، والواحد منه الدقي كما تقول الجلي والجلل.

(٥) كذا في الأصل: وفي «روح المعاني»: يعلى بن عبيد.

(٦) راجع ص ٩ من هذا الجزء.

من النصراني؛ فعلى هذا كلام العرب. و ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ نصب على الظرف إذا قدر على غير باب «أفعل منك» والمعنى لهم خير في مستقر. وإذا كان من باب «أفعل منك» فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس والمهدوي. قال قتادة ﴿وأحسن مقيلا﴾ منزلاً ومأوى. وقيل: هو على ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار. ومنه الحديث المرفوع «إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم فيَقِيلُ أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار» ذكره المهدوِي. وقال ٱبن مسعود: لا ينتصف النهار يوم القيامة من نهار الدنيا حتى يقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، ثم قرأ ﴿ثم إن مقيلهم لإلى الجحِيم﴾ كذا هي في قراءة ٱبن مسعود. وقال ٱبن عباس: الحساب من ذلك اليوم في أوله، فلا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار. ومنه ما روى «قِيلُوا فإن الشياطين لا تَقِيل». وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» فقلت: ما أطول هذا اليوم. فقال النبيّ ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا».

[٢٥] ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ أي وٱذكر يوم تشقق السماء بالغمام. وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائيّ وأبو عمرو ﴿ تَشَقَّقُ ﴾ بتخفيف الشين وأصله تتشقق بتائين فحذفوا الأولى تخفيفاً، وٱختاره أبو عبيد. الباقون ﴿ تَشَّقَّقُ ﴾ بتشديد الشين على الإدغام، وٱختاره أبو حاتم. وكذلك في ﴿ ق ﴾[1]. ﴿ بِالْغَمَامِ ﴾ أي عن الغمام. والباء وعن يتعاقبان؛ كما تقول: رميت بالقوس وعن القوس. روي أن السماء تتشقق عن سحاب

(١) في قوله تعالى: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً. . .﴾ آية ٤٤.

أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تِيههم فتنشق السماء عنه؛ وهو الذي قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾. ﴿وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ﴾ من السموات، ويأتي الرب جل وعز في الثمانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه؛ لا على ما تحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والانتقال. وقال ابن عباس: تتشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن في سماء الدنيا، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة، ثم ينزل الكَروبيون[1] وحملة العرش؛ وهو معنى قوله: ﴿وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ أي من السماء إلى الأرض لحساب الثقلين. وقيل: إن السماء تنشق بالغمام الذي بينها وبين الناس؛ فبتشقق الغمام تتشقق السماء، فإذا انشقت السماء انتقض تركيبها وطويت ونزلت الملائكة إلى مكان سواها. وقرأ ابن كثير ﴿وَنُنْزِلُ الْمَلاَئِكَةَ﴾ بالنصب من الإنزال. الباقون ﴿وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ﴾ بالرفع. دليله ﴿تَنْزِيلاً﴾ ولو كان على الأوّل لقال إنزالا. وقد قيل: إن نَزَّل وأنزل بمعنى؛ فجاء ﴿تنزيلا﴾ على ﴿نَزَّل﴾ وقد قرأ عبد الوهاب عن أبي عمرو ﴿وَنُزِلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً﴾. وقرأ ابن مسعود ﴿وَأَنْزَلَ الْمَلاَئِكَةَ﴾. أبيّ بن كعب: ﴿وَنُزِّلَتِ الْمَلاَئِكَةُ﴾. وعنه ﴿وتنزلت الْمَلاَئِكَةُ﴾.

قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ ﴿الملك﴾ مبتدأ و ﴿الحق﴾ صفة له و ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ الخبر؛ لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك؛ فبطلت يومئذ أملاك المالكين وانقطعت دعاويهم، وزال كل مَلِك وملكه، وبقي الملك الحق لله وحده. ﴿وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ أي لما ينالهم من الأهوال ويلحقهم من الخزي والهوان، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة؛ على ما تقدّم في الحديث. وهذه الآية دالة عليه؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيراً فهو على المؤمنين يسير. يقال: عَسِر يَعْسَر، وعَسُر يَعسُر.

---

(١) الكروبيون (بفتح الكاف): سادة الملائكة، منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل هم المقربون. والكرب القرب.

[٢٧] ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾

[٢٨] ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ الماضي عضِضت. وحكى الكسائيّ عضَضت بفتح الضاد الأولى. وجاء التوقيف عن أهل التفسير، منهم ٱبن عباس وسعيد بن المسيب أن الظالم هاهنا يراد به عقبة بن أبي مُعَيط، وأن خليله أمية بن خلف؛ فعقبة قتله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وذلك أنه كان في الأسارى يوم بدر فأمر النبيّ ﷺ بقتله؛ فقال: أأقتل دونهم؟ فقال: نعم، بكفرك وعتوّك. فقال: من للصبية؟ فقال: النار. فقام عليّ رضي الله عنه فقتله. وأمية قتله النبيّ ﷺ، فكان هذا من دلائل نبوّة النبيّ ﷺ؛ لأنه خبّر عنهما بهذا فقتلا على الكفر. ولم يسميا في الآية لأنه أبلغ في الفائدة، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قَبِل من غيره في معصية الله عز وجل. قال ٱبن عباس وقتادة وغيرهما: وكان عقبة قد همّ بالإسلام فمنعه منه أبيّ بن خلف وكانا خِدنين، وأن النبيّ ﷺ قتلهما جميعاً: قُتل عقبة يوم بدر صبرا، وأبيّ بن خلف في المبارزة يوم أحد؛ ذكره القشيريّ والثعلبيّ، والأوّل ذكره النحاس. وقال السهيليّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ هو عقبة بن أبي معيط، وكان صديقاً لأمية بن خلف الجمحِيّ ويروى لأبي بن خلف أخ أمية، وكان قد صنع وليمة فدعا إليها قريشاً، ودعا رسول الله ﷺ فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم. وكره عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد فأسلم ونطق بالشهادتين، فأتاه رسول الله ﷺ وأكل من طعامه، فعاتبه خليله أمية بن خلف، أو أبيّ بن خلف وكان غائباً. فقال عقبة: رأيت عظيماً ألا يحضر طعامي رجل من أشراف قريش. فقال له خليله: لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت. ففعل

عدوّ الله ما أمره به خليله؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾. قال الضحاك: لما بصق عقبة في وجه رسول الله ﷺ رجع بصاقه في وجهه وشوى وجهه وشفتيه، حتى أثر في وجهه وأحرق خديه، فلم يزل أثر ذلك في وجهه حتى قتل. وعضه يديه فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليله. ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ في الدنيا، يعني طريقاً إلى الجنة. ﴿يَا وَيْلَتَا﴾ دعاء بالويل والثبور على محالفة الكافر ومتابعته. ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾ يعني أمية، وكنى عنه ولم يصرح بأسمه لئلا يكون هذا الوعد مخصوصاً به ولا مقصوراً، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما. وقال مجاهد وأبو رجاء: الظالم عام في كل ظالم، وفلان: الشيطان. وأحتج لصاحب هذا القول بأن بعده ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾. وقرأ الحسن ﴿يَا وَيْلَتِي﴾ وقد مضى في ﴿هود﴾[1] بيانه. والخليل: الصاحب والصديق وقد مضى في ﴿النساء﴾[2] بيانه. ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ أي يقول هذا النادم: لقد أضلني من أتخذته في الدنيا خليلا عن القرآن والإيمان به. وقيل: ﴿عَنِ الذِّكْرِ﴾ أي عن الرسول. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ قيل: هذا من قول الله لا من قول الظالم. وتمام الكلام على هذا عند قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾. والخذل الترك من الإعانة؛ ومنه خذلان إبليس للمشركين لما ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك، فلما رأى الملائكة تبرأ منهم. وكل من صدّ عن سبيل الله وأطيع في معصية الله فهو شيطان للإنسان، خذولا عند نزول العذاب والبلاء. ولقد أحسن من قال:

تَجنَّبْ قرينَ السُّوءِ وآصرِمْ حبالَه ... فإن لم تجد عنه مَحِيصاً فداره
وأحبب حبيب الصدق وأحذر مراءه ... تنل منه صفو السود ما لم تماره
وفي الشيب ما ينهى الحليم عن الصِّبا ... إذا آشتعلت نيرانه في عذاره

آخر:

أصحب خيار الناس حيث لقيتهم ... خير الصحابة من يكون عفيفاً
والناس مثل دراهمٍ ميزتها ... فوجدت منها فِضة وزيوفا

---

(١) راجع ٩/ ٦٩ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ٥/ ٤٠٠ طبعة أولى أو ثانية.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبيّ ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يُحذِيك[١] وإما أن تبتاع منه وإمّا أن تجد ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرِق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة» لفظ مسلم. وأخرجه أبو داود من حديث أنس. وذكر أبو بكر البزّار عن ٱبن عباس قال: قيل يا رسول الله؛ أي جلسائنا خير؟ قال: «من ذكركم بالله رؤيته وزاد في علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله». وقال مالك بن دِينار: إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص[٢] مع الفجار. وأنشد:

وصاحب خيار الناس تنج مسلَّما وصاحب شرار الناس يوماً فتندما

[٣٠] ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾.

[٣١] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ۝٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ﴾ يريد محمداً ﷺ، يشكوهم إلى الله تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ أي قالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر؛ عن مجاهد والنخعِيّ. وقيل: معنى ﴿مَهْجُوراً﴾ أي متروكاً؛ فعزّاه الله تبارك وتعالى وسلاّه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما جعلنا لك يا محمد عدواً من مشركي قومِك ـ وهو أبو جهل في قول ٱبن عباس ـ فكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من مشركي قومه، فٱصبر لأمري كما صبروا، فإني هادِيك وناصرك على كل من ناوأك. وقد قيل: إن قول الرسول ﴿يَا رَبِّ﴾ إنما يقوله يوم القيامة؛ أي هجروا القرآن وهجروني وكذبوني. وقال أنس قال النبيّ ﷺ: «من[٣] تعلّم القرآن وعلّق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء

(١) أحذاه: أعطاه.

(٢) الخبيص: حلواء تعمل من التمر والسمن.

(٣) في الأصل: «من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفا..» وتصحيح هذا الأثر من «روح المعاني والبيضاوي والشهاب على أنهم تكلموا في صحته إذ في سنده أبو هدبة وهو كذاب.

يوم القيامة متعلقاً به يقول يا رب العالمين إن عبدك هذا اتخذني مهجوراً فاقض بيني وبينه». ذكره الثعلبي. ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ نصب على الحال أو التمييز، أي يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك. وقال ابن عباس: عدوّ النبيّ ﷺ أبو جهل لعنه الله.

[٣٢] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

[٣٣] ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ اختلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما ـ أنهم كفار قريش؛ قاله ابن عباس. الثاني ـ أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقاً قالوا: هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور [على داود][1]. فقال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي فعلنا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ نقوي به قلبك فتعيه وتحمله؛ لأن الكتب المتقدّمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، والقرآن أنزل على نبيّ أميّ؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرّقناه ليكون أوعى للنبيّ ﷺ، وأيسر على العامل به؛ فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوّة قلب.

قلت: فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك في قدرته؟. قيل: في قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه في حكمه، وقد بينا وجه الحكمة في ذلك. وقد قيل: إن قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ من كلام المشركين، أي لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك، أي كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على ﴿كَذَلِكَ﴾ ثم يبتدىء ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. ويجوز أن يكون الوقف على قوله: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ثم يبتدىء ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرّقاً لنثبت به فؤادك. قال

(١) زيادة يقتضيها المقام.

ٱبن الأنباري: والوجه الأوّل أجود وأحسن، والقول الثاني قد جاء به التفسير، حدّثنا محمد بن عثمان الشيبي قال حدّثنا منجاب قال حدّثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ٱبن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال: أنزل القرآن جملة واحدة من عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء، فنجمه السفرة الكرام على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل عليه السلام على محمد عشرين سنة. قال: فهو قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ يعني نجوم القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾. قال: فلما لم ينزل على النبيّ ﷺ جملة واحدة، قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة؛ فقال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يا محمد. ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ يقول: ورسّلناه ترسيلا؛ يقول: شيئاً بعد شيء.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ يقول: لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ثم سألوك لم يكن عندك ما تجيب به، ولكن نمسك عليك فإذا سألوك أجبت. قال النحاس: وكان ذلك من علامات النبوة؛ لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبيّ، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم، ويدل على هذا ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم، وعلِم الله عز وجل أن الصلاح في إنزاله متفرقاً، لأنهم ينبهون به مرة بعد مرة، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه وفيه ناسخ ومنسوخ، فكانوا يتعبدون بالشيء إلى وقتٍ بعينه قد علم الله عز وجل فيه الصلاح، ثم ينزل النسخ بعد ذلك؛ فمحال أن ينزل جملة واحدة: ٱفعلوا كذا ولا تفعلوا. قال النحاس: والأولى أن يكون التمام ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ لأنه إذا وقف على ﴿كَذَلِكَ﴾ صار المعنى كالتوراة والإنجيل والزبور ولم يتقدّم لها ذكر. قال الضحاك: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ أي تفصيلاً. والمعنى: أحسن من مَثَلهم تفصيلاً؛ فحذف لعلم السامع. وقيل: كان المشركون يستمدّون من أهل الكتاب وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريف

---

(١) راجع ١٠/ ٣٣٣ طبعة أولى أو ثانية.

والتبديل، فكان ما يأتي به النبيّ ﷺ أحسن تفسيراً مما عندهم؛ لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل، والحق المحض أحسن من حق مختلط بباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾. وقيل: ﴿لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ كقولهم في صفة عيسى إنه خلق من غير أب. ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بما فيه نقض حجتهم كآدم إذ خلق من غير أب وأم.

[٣٤] ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ تقدّم في ﴿سبحان﴾[1]. ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ لأنهم في جهنم. وقال مقاتل: قال الكفار لأصحاب محمد ﷺ هو شر الخلق؛ فنزلت الآية. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي دينا وطريقا. ونظم الآية: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق، وأنت منصور عليهم بالحجج الواضحة، وهم محشورون على وجوههم.

[٣٥] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

[٣٦] ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يريد التوراة . ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيراً ﴾ تقدّم في ﴿ طه ﴾[1] ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا ﴾ الخطاب لهما . وقيل : إنما أمر موسى ﷺ بالذهاب وحده في المعنى. وهذا بمنزلة قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾. وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من أحدهما. قال النحاس: وهذا مما لا ينبغي أن يجترأ به على كتاب الله تعالى، وقد قال جل وعز : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى. قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى. قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى. فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ

---

(١) راجع ١١/ ١٩٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾ . ونظير هذا ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ . وقد قال جل ثناؤه ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ قال القشيري: وقوله في موضع آخر: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ لا ينافي هذا؛ لأنهما إذا كانا مأمورين فكل واحد مأمور. ويجوز أن يقال: أمر موسى أوّلاً، ثم لما قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي﴾ قال: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾. ﴿إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يريد فرعون وهامان والقبط. ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ﴾ في الكلام إضمار؛ أي فكذبوهما ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً.

[٣٧] ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ في نصب «قوم» أربعة أقوال: العطف على الهاء والميم في ﴿دَمَّرْنَاهُمْ﴾. الثاني ـ بمعنى أذكر. الثالث ـ بإضمار فعل يفسره ما بعده؛ والتقدير: وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم. الرابع ـ أنه منصوب بـ ﴿أغرقناهم﴾ قاله الفراء. ورده النحاس قال: لأن ﴿أغرقنا﴾ ليس مما يتعدّى إلى مفعولين فيعمل في المضمر وفي ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾. ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ ذكر الجنس والمراد نوح وحده؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده؛ فنوح إنما بعث بلا إله إلا الله، وبالإيمان بما ينزل الله، فلما كذبوه كان في ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة. وقيل: إن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل؛ لأنهم لا يفرق بينهم في الإيمان، ولأنّه ما من نبيّ إلا يصدق سائر أنبياء الله، فمن كذب منهم نبياً فقد كذب كل من صدّقه من النبيين. ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ أي بالطوفان، على ما تقدّم في ﴿هود﴾. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي علامة ظاهرة على قدرتنا ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين من قوم نوح ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي في الآخرة. وقيل: أي هذه سبيلي في كل ظالم.

[٣٨] ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ كله معطوف على ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ إذا كان ﴿قوم نوح﴾ منصوباً على العطف، أو بمعنى اذكر. ويجوز أن يكون كله منصوباً على أنه معطوف على المضمر في ﴿دَمَّرْنَاهُمْ﴾ أو على المضمر في ﴿جَعَلْنَاهُمْ﴾ وهو اختيار النحاس؛ لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار فعل؛ أي اذكر عاداً الذين كذبوا هوداً فأهلكهم الله بالريح العقيم، وثموداً كذبوا صالحاً فأهلكوا بالرّجفة. و ﴿أَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ والرس في كلام العرب البئر التي تكون غير مطوِيةٍ، والجمع رِساس. قال[1]:

تَنَابِلَة يَحْفِرون الرِّسَاسَا

يعني آبار المعادن. قال ابن عباس: سألت كعباً عن أصحاب الرّس قال: صاحب ﴿يس﴾ الذي قال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ فقتله قومه ورَسُّوه في بئر لهم يقال له الرّس طرحوه فيها، وكذا قال مقاتل. السدي: هم أصحاب قصة ﴿يسٓ﴾ أهل أنطاكية، والرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار مؤمن آل ﴿يسٓ﴾ فنسبوا إليها. وقال عليّ رضي الله عنه: هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم؛ وكان من ولد يهوذا، فيبست الشجرة فقتلوه ورَسُّوه في بئر، فأظلتهم سحابة سوداء فأحرقتهم. وقال ابن عباس: هم قوم بأذرِبيجان قتلوا أنبياء فجفت أشجارهم وزروعهم فماتوا جوعاً وعطشاً. وقال وهب بن منبه: كانوا أهل بئر يقعدون عليها وأصحاب مواشي، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيباً فكذبوه وآذوه، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم، فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت بهم وبديارهم؛ خسفَ الله بهم فهلكوا جميعاً. وقال قتادة: أصحاب الرّس وأصحاب الأيكة أمتان أرسل الله إليهما شعيباً فكذبوه فعذبهما الله بعذابين. قال قتادة: والرّس قرية بفَلْج اليمامة. وقال عكرمة: هم قوم رسوا نبيهم في بئر حيًّا. دليله ما روى محمد بن كعب القرظِيّ عمن حدّثه أن النبيّ ﷺ قال: «أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة عبد أسود وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى قومه فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود فحفر أهل القرية بئراً وألقوا فيه نبيهم حياً وأطبقوا عليه حجراً ضخماً

---

(١) هو النابغة الجعدي.

وكان العبد الأسود يحتطب على ظهره ويبيعه ويأتيه بطعامه وشرابه فيعينه الله على رفع تلك الصخرة حتى يدليه إليه فبينما هو يحتطب إذ نام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ثم هبّ من نومه فتمطى واتكأ على شقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم هبّ فاْحتمل حُزمة الحطب فباعها وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر فلم يجده وكان قومه قد أراهم الله آية فاستخرجوه وآمنوا به وصدّقوه ومات ذلك النبي. قال النبي ﷺ: «إن ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة» وذكر هذا الخبر المهدوي والثعلبي، واللفظ للثعلبي، وقال: هؤلاء آمنوا بنبيهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم، إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم. وقال الكلبِيّ: أصحاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبياً فأكلوه. وهم أول من عمل نساؤهم السَّحْق؛ ذكره الماوردي. وقيل: هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرّقوا فيها المؤمنين، وسيأتي. وقيل: هم بقايا من قوم ثمود، وأن الرّس البئر المذكورة في ﴿الحج﴾ في قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ على ما تقدم[1]. وفي «الصحاح» والرس اْسم بئر كانت لبقية من ثمود. وقال جعفر بن محمد عن أبيه: أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السَّحْق، وكان نساؤهم كلهم سحاقات. وروي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أشراط الساعة أن يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السَّحْق» وقيل: الرس ماء ونخيل لبني أسد. وقيل: الثلج المتراكم في الجبال؛ ذكره القشيري. وما ذكرناه أولاً هو المعروف، وهو كل حفر اْحتفِر كالقبر والمعدن والبئر. قال أبو عبيدة: الرس كل ركيّة لم تطو؛ وجمعها رِساس. قال الشاعر:

وهـم سـائـرون إلـى أرضهـم ... فيـا ليتهـم يَحفـرون الـرِّسـاسـا

والرّسّ اْسم واد في قول زهير:

بَكَرْنَ بُكُوراً واْستَحَرْنَ بسُحْرةٍ ... فهنّ لوادي الرَّسِّ كاليدِ للفمِ

ورسست رسًّا: حفرت بئراً. ورُسَّ الميتُ أي قُبر. والرّس: الإصلاح بين الناس، والإفساد أيضاً وقد رسَسْتُ بينهم؛ فهو من الأضداد. وقد قيل في أصحاب الرس غير ما ذكرنا، ذكره

(١) راجع ١٢/ ٧٥ طبعة أولى أو ثانية.

الثعلبي وغيره. ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ أي أمماً لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس. وعن الربيع بن خيثم أشتكى فقيل له: ألا تتداوى فإن رسول الله ﷺ قد أمر به؟ قال: لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بيني وبين نفسي فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً كانوا أكثر وأشد حِرصاً على جمع المال، فكان فيهم أطباء، فلا الناعت منهم بقِي ولا المنعوت؛ فأبى أن يتداوى فما مكث إلا خمسة أيام حتى مات، رحمه الله.

[٣٩] ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ قال الزجاج. أي وأنذرنا كلاً ضربنا له الأمثال وبينا لهم الحجة، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة. وقيل: أنتصب على تقدير ذكرنا كلا ونحوه؛ لأن ضرب الأمثال تذكير ووعظ؛ ذكره المهدويّ. والمعنى واحد. ﴿وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ أي أهلكنا بالعذاب. وتبرت الشيء كسرته. وقال المؤرّج والأخفش: دمرناهم تدميراً. تبدل التاء والباء من الدال والميم.

[٤٠] ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ يعني مشركي مكة. والقرية قرية قوم لوط. و ﴿مَطَرَ السَّوْءِ﴾ الحجارة التي أمطروا بها. ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أي في أسفارهم ليعتبروا. قال أبن عباس: كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ وقد تقدّم[1]. ﴿بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ أي لا يصدّقون بالبعث. ويجوز أن يكون معنى ﴿يَرْجُونَ﴾ يخافون. ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه: بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة.

(١) راجع ١٠/٤٥ طبعة أولى أو ثانية.

[٤١] ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ جواب ﴿إذا﴾ ﴿إن يتخذونك﴾ لأن معناه يتخذونك. وقيل: الجواب محذوف وهو قالوا أو يقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي﴾ وقوله: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ كلام معترض. ونزلت في أبي جهل كان يقول للنبيّ ﷺ مستهزئاً: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ والعائد محذوف، أي بعثه الله. ﴿رَسُولاً﴾ نصب على الحال والتقدير: أهذا الذي بعثه الله مرسلاً. ﴿أَهَذَا﴾ رفع بالابتداء و ﴿الَّذِي﴾ خبره. ﴿رَسُولاً﴾ نصب على الحال. و ﴿بَعَثَ﴾ في صلة ﴿الَّذِي﴾ واسم الله عز وجل رفع بـ ﴿بَعَثَ﴾. ويجوز أن يكون مصدراً؛ لأن معنى ﴿بَعَثَ﴾ أرسل ويكون معنى ﴿رَسُولاً﴾ رسالة على هذا. والألف للاستفهام على معنى التقرير والاحتقار. ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلّنَا﴾ أي قالوا قد كاد أن يصرفنا. ﴿عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي حبسنا أنفسنا على عبادتها. قال الله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يريد من أضل ديناً أهم أم محمد، وقد رأوه في يوم بدر.

[٤٣] ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ عَجّب نبيه ﷺ من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم، ثم يعمد إلى حجر يعبده من غير حجة. قال الكلبي وغيره: كانت العرب إذا هوِي الرجل منهم شيئاً عبده من دون الله، فإذا رأى أحسن منه ترك الأوّل وعبد الأحسن؛ فعلى هذا يعني: أرأيت منِ اتخذ إلهه بهواه؛ فحذف الجار. وقال ابن عباس: الهوى إله يعبد من دون الله، ثم تلا هذه الآية.

قال الشاعر:

لعمر أبيها لو تبدّت لناسك	قد اعتزل الدنيا بإحدى المناسِك
لَصلَّى لها قبل الصلاة لربه	ولا ارتد في الدنيا بأعمال فاتك

وقيل: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي أطاع هواه. وعن الحسن لا يهوى شيئاً إلا اتبعه، والمعنى واحد. ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ أي حفيظاً وكفيلاً حتى تردّه إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد. أي ليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك، وإنما عليك التبليغ. وهذا رد على القدرية. ثم قيل إنها منسوخة بآية القتال. وقيل لم تنسخ؛ لأن الآية تسلية للنبي ﷺ.

[٤٤] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ولم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن. وذمّهم جل وعز بهذا. ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه؛ أي هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع. وقيل: المعنى أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا؛ والمراد أهل مكة. وقيل: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل في مثل هذا الموضع. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ﴾ أي في الأكل والشرب لا يفكرون في الآخرة. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام. وقال مقاتل: البهائم تعرف ربها وتهتدي إلى مراعيها وتنقاد لأربابها التي تعقلها، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم. وقيل: لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوّة لم تعتقد بطلان ذلك أيضاً.

[٤٥] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾.

[٤٦] ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين، ويجوز أن تكون من العلم. وقال الحسن وقتادة وغيرهما: مدّ الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وقيل: هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها. والأوّل أصح؛ والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة؛ فإن فيها يجد المريض راحة والمسافر وكل ذي علّة، وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد، وتطيب نفوس الأحياء فيها. وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب. وقال أبو العالية: نهار الجنة هكذا؛ وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر. أبو عبيدة: الظل بالغداة والفيء بالعشي؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس؛ سمى فيئاً لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب. قال الشاعر، وهو حميد بن ثور يصف سرحة[1] وكنى بها عن آمرأة:

فلا الظِّلُّ من بَرْدِ الضُّحَا تَسْتَطيعُهُ ولا الْفَيْءُ من بَرْدِ العشِيّ تَذُوقُ

وقال آبن السكيت: الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس. وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ أي دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس. آبن عباس: يريد إلى يوم القيامة، وقيل: المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ أي جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شيء ومعنى؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل، ولولا النور ما عرفت الظلمة. فالدليل فعيل بمعنى الفاعل. وقيل بمعنى المفعول كالقتيل والدهين والخضيب. أي دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به؛ أي أتبعناها إياه. فالشمس دليل أي حجة وبرهان، وهو الذي يكشف المشكل ويوضحه. ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه في معنى الاسم؛ كما يقال: الشمس برهان والشمس حق. ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ يريد ذلك الظل الممدود. ﴿إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ أي يسيراً قبضه علينا. وكل أمرِ ربنا عليه يسير. فالظل مكثه في هذا الجو بمقدار طلوع

---

(١) السرحة: واحدة السرح، وهو شجر كبار عظام لا ترعى وإنما يستظل فيه.

الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضاً، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت فليس هناك ظل، إنما ذلك بقية نور النهار. وقال قوم: قبضه بغروب الشمس؛ لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية، وإنما يتم زواله بمجيء الليل ودخول الظلمة عليه. وقيل: إن هذا القبض وقع بالشمس؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئاً فشيئاً؛ قاله أبو مالك وإبراهيم التيميّ. وقيل: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أي قبضنا ضياء الشمس بالفيء ﴿قَبْضاً يَسِيراً﴾. وقيل: ﴿يَسِيراً﴾ أي سريعاً؛ قاله الضحاك. قتادة: خفياً؛ أي إذا غابت الشمس قبض الظل قبضاً خفياً؛ كلما قُبض جزءٌ منه جُعل مكانه جزءٌ من الظلمة، وليس يزول دفعة واحدة. فهذا معنى قول قتادة، وهو قول مجاهد:

[٤٧] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِبَاساً﴾ يعني ستراً للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن. قال الطبري: وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياء ويغشاها.

الثانية ـ قال ابن العربيّ: ظن بعض الغفلة أن من صلى عرياناً في الظلام أنه يجزئه؛ لأن الليل لباس. وهذا يوجب أن يصلي في بيته عرياناً إذا أغلق عليه بابه. والستر في [الصلاة][1] عبادة تختص بها ليست لأجل نظر الناس. ولا حاجة إلى الإطناب في هذا.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتاً﴾ أي راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال. وأصل السبات من التمدد. يقال: سبتت المرأة شعرها أي نقضته وأرسلته. ورجل مسبوت أي ممدود الخلقة. وقيل للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل:

---

(١) في «الأصول»: «في الظلام». والتصويب من «أحكام القرآن» لابن العربي.

السبت القطع؛ فالنوم ٱنقطاع عن الاشتغال؛ ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الأعمال فيه. وقيل: السبت الإقامة في المكان؛ فكأن السبات سكون ما وثبوت عليه؛ فالنوم سبات على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة. وقال الخليل: السبات نوم ثقيل؛ أي جعلنا نومكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ من الانتشار للمعاش؛ أي النهار سبب الإحياء للانتشار. شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة. وكان عليه السلام إذا أصبح قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور».

[٤٨] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ نُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ تقدم في ﴿الأعراف﴾[1] مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾.

فيه خمس عشرة مسألة.

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿مَاءً طَهُوراً﴾ يتطهر به؛ كما يقال: وضوء للماء الذي يتوضأ به. وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهوراً. فالطَّهور (بفتح الطاء) الاسم. وكذلك الوضوء والوقود. وبالضم المصدر، وهذا هو المعروف في اللغة؛ قاله ٱبن الأنباريّ. فبين أن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه مطهر لغيره؛ فإن الطهور بناء مبالغة في طاهر، وهذه المبالغة ٱقتضت أن يكون طاهراً مطهراً. وإلى هذا ذهب الجمهور. وقيل: إن ﴿طَهُوراً﴾ بمعنى طاهر؛ وهو قول أبي حنيفة؛ وتعلق بقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ يعني طاهراً.

---

(١) راجع ٧/٢٢٨ و «نشراً» بالنون قراءة نافع.

وبقول الشاعر:

خليليّ هل في نظرة بعد توبة ... أداوي بها قلبي عليّ فجُورُ
إلى رُجَّحِ الأكفالِ غِيدٍ[1] من الظِّبا ... عِذاب الثنايا رِيقُهنَّ طَهُورُ

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر. وتقول العرب: رجل نؤوم وليس ذلك بمعنى أنه منيم لغيره، وإنما يرجع ذلك إلى فعل نفسه. ولقد أجاب علماؤنا عن هذا فقالوا: وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب وعن خسائس الصفات كالغِل والحسد، فإذا شربوا هذا الشراب يطهرهم الله من رحض الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة، فجاءوا الله بقلب سليم، ودخلوا الجنة بصفات التسليم، وقيل لهم حينئذ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. ولما كان حكمه في الدنيا بزوال حكم الحدث بجريان الماء على الأعضاء كانت تلك حكمته ورحمته في الآخرة. وأما قول الشاعر:

... رِيقُهُنَّ طَهُورُ

فإنه قصد بذلك المبالغة في وصف الريق بالطهورية لعذوبته وتعلقه بالقلوب، وطيبه في النفوس، وسكون غليل المحب برشفه حتى كأنه الماء الطهور. وبالجملة فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازاة الشعرية؛ فإن الشعراء يتجاوزون في الاستغراق حدّ الصدق إلى الكذب، ويسترسلون في القول حتى يخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية، وربما وقعوا في الكفر من حيث لا يشعرون. ألا ترى إلى قول بعضهم:

ولو لم تُلامِسْ صفحةُ الأرضِ رجلَها ... لما كنتُ أدري عِلّةً للتيمم

وهذا كفر صراح، نعوذ بالله منه. قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا منتهى لباب كلام العلماء، وهو بالغ في فنه؛ إلا أني تأملت من طريق العربية فوجدت فيه

---

(١) في أبن العربي واللسان مادة «رجح»:

إلى رجح الأكفال هيف خصورها

وأمرأة رجاح وراجح، ثقيلة العجيزة، من نسوة رجح.

مطلعاً مشرفاً، وهو أن بناء فعول للمبالغة، إلا أن المبالغة قد تكون في الفعل المتعدّي كما قال الشاعر:

ضَروبٌ بنصل السيفِ سُوقَ سِمانها[١]

وقد تكون في الفعل القاصر كما قال الشاعر:

نَـؤُوم الضُّحـا لـم تَنْتَطِـقْ عـن تَفَضُّـلِ[٢]

وإنما تؤخذ طهورية الماء لغيره من الحسن نظافة ومن الشرع طهارة؛ كقوله عليه السلام: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور». وأجمعت الأمة لغة وشريعة على أن وصف طهور يختص بالماء ولا يتعدى إلى سائر المائعات وهي طاهرة؛ فكان ٱقتصارهم بذلك على الماء أدل دليل على أن الطهور هو المطهر، وقد يأتي فعول لوجه آخر ليس من هذا كله وهو العبارة به عن الآلة للفعل لا عن الفعل كقولنا: وقود وسحور بفتح الفاء، فإنها عبارة عن الحطب والطعم المتسحر به؛ فوصف الماء بأنه طهور (بفتح الطاء) أيضاً يكون خبراً عن الآلة التي يتطهر بها. فإذا ضمت الفاء في الوقود والسحور والطهور عاد إلى الفعل وكان خبراً عنه. فثبت بهذا أن ٱسم الفعول (بفتح الفاء) يكون بناءً للمبالغة ويكون خبراً عن الآلة، وهو الذي خطر ببال الحنفية، ولكن قصرت أشداقها عن لوكه، وبعد هذا يقف البيان عن المبالغة وعن الآلة على الدليل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً طَهُوراً﴾. وقوله عليه السلام: «جعلت لي الأرض مسجداً وطَهوراً» يحتمل المبالغة ويحتمل العبارة به عن الآلة؛ فلا حجة فيه لعلمائنا، لكن يبقى قوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ نص في أن فعله يتعدى إلى غيره.

الثانية ـ المياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة على ٱختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها، والمخالط للماء على ثلاثة أضرب: ضرب يوافقه

---

(١) هذا صدر بيت من قصيدة لأبي طالب بن عبد المطلب يمدح بها مسافر بن عمرو القرشي؛ وتمامه.

إذا عـدمـوا زاداً فـإنـك عـاقـر

(٢) هذا عجز بيت من معلقة ٱمرىء القيس؛ وصدره:

ويضحـى فتيـت المسـك فـوق فـراشهـا

والانتطاق: الاتزار للعمل. والتفضل: التوشح، وهو لبسها أدنى ثيابها.

في صفتيه جميعاً، فإذا خالطه فغيّره لم يسلبه وصفاً منهما لموافقته لهما وهو التراب. والضرب الثاني يوافقه في إحدى صفتيه وهي الطهارة، فإذا خالطه فغيّره سلبه ما خالفه فيه وهو التطهير؛ كماء الورد وسائر الطاهرات. والضرب الثالث يخالفه في الصفتين جميعاً، فإذا خالطه فغيّره سلبه الصفتين جميعاً لمخالفته له فيهما وهو النجس.

الثالثة ـ ذهب المصريون من أصحاب مالك إلى أن قليل الماء يفسده قليل النجاسة، وأن الكثير لا يفسده إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه من المحرمات. ولم يحدّوا بين القليل والكثير حدّاً يوقف عنده، إلا أن ابن القاسم روى عن مالك في الجنب يغتسل في حوض من الحياض التي تسقى فيها الدواب ولم يكن غسل ما به من الأذى أنه قد أفسد الماء؛ وهو مذهب ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم ومن اتبعهم من المصريين. إلا ابن وهب فإنه يقول في الماء بقول المدنيين من أصحاب مالك. وقولهم ما حكاه أبو مصعب عنهم وعنه: أن الماء لا تفسده النجاسة الحالّة فيه قليلاً كان أو كثيراً إلا أن تظهر فيه النجاسة وتغيّر منه طعماً أو ريحاً أو لوناً. وذكر أحمد بن المعدّل أن هذا قول مالك بن أنس في الماء. وإلى هذا ذهب إسماعيل بن إسحاق ومحمد بن بكير وأبو الفرج الأبهري وسائر المنتحلين لمذهب مالك من البغداديين؛ وهو قول الأوزاعي والليث بن سعد والحسن بن صالح وداود بن عليّ. وهو مذهب أهل البصرة، وهو الصحيح في النظر وجيد الأثر. وقال أبو حنيفة: إذا وقعت نجاسة في الماء أفسدته كثيراً كان أو قليلاً إذا تحققت عموم النجاسة فيه. ووجه تحققها عنده أن تقع مثلاً نقطة بول في بركة، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها بتحرك أحدهما فالكل نجس، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم ينجس. وفي المجموعة نحو مذهب أبي حنيفة. وقال الشافعي بحديث القلتين، وهو حديث مطعون فيه؛ اختلف في إسناده ومتنه؛ أخرجه أبو داود والترمذي وخاصة الدارقطني، فإنه صدّر به كتابه وجمع طرقه. قال ابن العربي: وقد رام الدارقطني على إمامته أن يصحح حديث القلتين فلم يقدر. وقال أبو عمر بن عبد البر: وأما ما ذهب إليه الشافعي من حديث القلتين فمذهب ضعيف من جهة النظر، غير ثابت

في الأثر؛ لأنه قد تكلم فيه جماعة من أهل العلم بالنقل، ولأن القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغهما في أثر ثابت ولا إجماع، فلو كان ذلك حدّاً لازماً لوجب على العلماء البحث عنه ليقفوا على حدّ ما حدّه النبيّ ﷺ؛ لأنه من أصل دينهم وفرضهم، ولو كان ذلك كذلك ما ضيعوه، فلقد بحثوا عما هو أدون من ذلك وألطف.

قلت: وفيما ذكر ٱبن المنذر في القلتين من الخلاف يدل على عدم التوقيف فيهما والتحديد. وفي سنن الدارقطني عن حماد بن زيد عن عاصم بن المنذر قال: القِلال الخوابي العظام. وعاصم هذا هو أحد رواة حديث القلتين. ويظهر من قول الدارقطني أنها مثل قِلال هَجَر. لسياقه حديث الإسراء عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لما رفعت إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة نبقها مثل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفيلة» وذكر الحديث. قال ٱبن العربي: وتعلق علماؤنا بحديث أبي سعيد الخدري في بئر بُضاعة[1]، رواه النسائيّ والترمذي وأبو داود وغيرهم. وهو أيضاً حديث ضعيف لا قدم له في الصحة فلا تعويل عليه. وقد فاوضتُ الطوسي الأكبر في هذه المسألة فقال: إن أخلص المذاهب في هذه المسألة مذهب مالك، فإن الماء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه؛ إذ لا حديث في الباب يعوّل عليه، وإنما المعوّل على ظاهر القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ وهو ماء بصفاته، فإذا تغير عن شيء منها خرج عن الاسم لخروجه عن الصفة، ولذلك لما لم يجد البخاري إمام الحديث والفقه في الباب خبراً يعوّل عليه قال: (باب إذا تغير وصف الماء) وأدخل الحديث الصحيح: «ما من أحد يُكلَم في سبيل الله والله أعلم بمن يُكلَم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَب[2] دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك». فأخبر ﷺ أن الدم بحاله وعليه رائحة المسك، ولم تخرجه الرائحة عن صفة الدموية. ولذلك قال علماؤنا: إذا تغير الماء بريح جيفة على طرفه وساحله لم يمنع ذلك الوضوء منه. ولو تغير بها وقد وضعت فيه لكان ذلك تنجيساً له للمخالطة والأولى مجاورة لا تعويل عليها.

---

(١) بئر بضاعة: بئر بالمدينة. ويقال إن بضاعة ٱسم ٱلمرأة نسبت إليها البئر.

(٢) يثعب: يجري.

قلت: وقد ٱستدل به أيضاً على نقيض ذلك، وهو أن تغير الرائحة يخرجه عن أصله. ووجه هذا الاستدلال أن الدم لما ٱستحالت رائحته إلى رائحة المسك خرج عن كونه مستخبثاً نجساً، وأنه صار مسكاً؛ وإن المسك بعض دم الغزال.

فكذلك الماء إذا تغيرت رائحته. وإلى هذا التأويل ذهب الجمهور في الماء. وإلى الأول ذهب عبد الملك. قال أبو عمر: جعلوا الحكم للرائحة دون اللون، فكان الحكم لها فاستدلوا عليها في زعمهم بهذا الحديث. وهذا لا يفهم منه معنى تسكن إليه النفس، ولا في الدم معنى الماء فيقاس عليه، ولا يشتغل بمثل هذا الفقهاء، وليس من شأن أهل العلم اللغز به وإشكاله؛ وإنما شأنهم إيضاحه وبيانه، ولذلك أخذ الميثاق عليهم ليبيننه للناس ولا يكتمونه، والماء لا يخلو تغيره بنجاسة أو بغير نجاسة، فإن كان بنجاسة وتغير فقد أجمع العلماء على أنه غير طاهر ولا مطهر، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغير بغير نجاسة أنه طاهر على أصله. وقال الجمهور: إنه غير مطهر إلا أن يكون تغيره من تربة وحمأة. وما أجمعوا عليه فهو الحق الذي لا إشكال فيه، ولا التباس معه.

الرابعة ـ الماء المتغير بقراره كزرنيخ أو جير يجري عليه، أو تغير بطحلب أو ورق شجر ينبت عليه لا يمكن الاحتراز عنه فٱتفق العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به، لعدم الاحتراز منه والانفكاك عنه؛ وقد روى ٱبن وهب عن مالك أن غيره أولى منه.

الخامسة ـ قال علماؤنا رحمة الله عليهم: ويكره سؤر النصرانيّ وسائر الكفار والمدمن الخمر، وما أكل الجيف؛ كالكلاب وغيرها. ومن توضأ بسؤرهم فلا شيء عليه حتى يستيقن النجاسة. قال البخاريّ: وتوضأ عمر رضي الله عنه من بيت نصرانية. ذكر سفيان بن عيينة قال: حدّثونا عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما كنا بالشأم أتيت عمر بن الخطاب بماء فتوضأ منه فقال: من أين جئت بهذا الماء؟ ما رأيت ماءً عذباً ولا ماء سماء أطيب منه. قال قلت: جئت به من بيت هذه العجوز النصرانية؛ فلما توضأ أتاها فقال: أيتها العجوز أسلِمي تسلمِي، بعث الله محمداً ﷺ بالحق. قال: فكشفت عن رأسها؛ فإذا

مثل الثَّغامة[١]، فقالت: عجوز كبيرة، وإنما أموت الآن! فقال عمر رضي الله عنه: اللهم ٱشهد. خرّجه الدارقطنيّ، حدّثنا الحسين بن إسماعيل قال حدّثنا أحمد بن إبراهيم البُوشَنْجِي قال حدّثنا سفيان.. فذكره. ورواه أيضاً عن الحسين بن إسماعيل قال حدّثنا خلاد بن أسلم حدّثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توضأ من بيت نصرانية أتاها فقال: أيتها العجوز أسلمي...؛ وذكر الحديث بمثل ما تقدّم.

السادسة ـ فأما الكلب إذا ولغ في الماء فقال مالك: يغسل الإناء سبعاً ولا يتوضأ منه وهو طاهر. وقال الثورِيّ: يتوضأ بذلك الماء ويتيمم معه. وهو قول عبد الملك بن عبد العزيز ومحمد بن مسلمة. وقال أبو حنيفة: الكلب نجس، ويغسل الإناء منه لأنه نجس. وبه قال الشافعيّ وأحمد وإسحاق. وقد كان مالك يفرق بين ما يجوز ٱتخاذه من الكلاب وبين ما لا يجوز ٱتخاذه منها في غسل الإناء من ولوغه. وتحصيل مذهبه أنه طاهر عنده، لا ينجس ولوغه شيئاً ولغ فيه طعاماً ولا غيره؛ إلا أنه ٱستحب هراقة ما ولغ فيه من الماء ليسارة مؤنته. وكلب البادية والحاضرة سواء. ويغسل الإناء منه على كل حال سبعاً تعبداً. هذا ما ٱستقر عليه مذهبه عند المناظرين من أصحابه. ذكر ٱبن وهب قال: حدّثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الحياض التي تكون فيما بين مكة والمدينة، فقيل له: إن الكلاب والسباع ترد عليها. فقال: «لها ما أخذت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور» أخرجه الدارقطنيّ. وهذا نص في طهارة الكلاب وطهارة ما تلغ فيه. وفي البخاريّ عن ٱبن عمر أن الكلاب كانت تقبل وتدبر في مسجد رسول الله ﷺ ولا يرشُّون شيئاً من ذلك. وقال عمر بحضرة الصحابة لصاحب الحوض الذي سأله عمرو بن العاص: هل ترد حوضك السباع. فقال عمر: يا صاحب الحوض، لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا. أخرجه مالك والدارقطنيّ. ولم يفرّق بين السباع، والكلب من جملتها، ولا حجة للمخالف

(١) الثغامة: نبات أبيض الثمر والزهر يشبه بياض الشيب به.

في الأمر بإراقة ما ولغ فيه وأن ذلك للنجاسة، وإنما أمر بإراقته لأن النفس تعافه لا لنجاسته؛ لأن التنزه من الأقذار مندوب إليه، أو تغليظاً عليهم لأنهم نهوا عن ٱقتنائها كما قاله ٱبن عمر والحسن؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلظ عليهم في الماء لقلته عندهم في البادية، حتى يشتد عليهم فيمتنعوا من ٱقتنائها. وأما الأمر بغسل الإناء فعبادة لا لنجاسة كما ذكرناه بدليلين: أحدهما ـ أن الغسل قد دخله العدد. الثاني ـ أنه قد جعل للتراب فيه مدخل لقوله عليه السلام: «وعفِّروه الثامنة بالتراب». ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب فيه مدخل كالبول. وقد جعل ﷺ الهرّ وما ولغ فيه طاهراً، والهرّ سبع لا خلاف في ذلك؛ لأنه يفترس ويأكل الميتة؛ فكذلك الكلب وما كان مثله من السباع؛ لأنه إذا جاء نص في أحدهما كان نصاً في الآخر. وهذا من أقوى أنواع القياس. هذا لو لم يكن هناك دليل، وقد ذكرنا النص على طهارته فسقط قول المخالف. والحمد لله.

السابعة ـ ما مات في الماء مما لا دم له فلا يضرّ الماء إن لم يغيّر ريحه؛ فإن أنتن لم يتوضأ به. وكذلك ما كان له دم سائل من دواب الماء كالحوت والضفدع لم يفسد ذلك الماء موته فيه؛ إلا أن تتغير رائحته، فإن تغيرت رائحته وأنتن لم يجز التطهر به ولا الوضوء منه، وليس بنجس عند مالك. وأما ماله نفس سائلة فمات في الماء ونزح مكانه ولم يغير لونه ولا طعمه ولا ريحه فهو طاهر مطهر سواء كان الماء قليلاً أو كثيراً عند المدنيين. وٱستحب بعضهم أن ينزح من ذلك الماء دلاء لتطيب النفس به، ولا يحدّون في ذلك حدّاً لا يتعدّى. ويكرهون استعمال ذلك الماء قبل نزح الدلاء، فإن ٱستعمله أحد في غسل أو وضوء جاز إذا كانت حاله ما وصفنا. وقد كان بعض أصحاب مالك يرى لمن توضأ بهذا الماء وإن لم يتغير أن يتيمم، فيجمع بين الطهارتين ٱحتياطاً، فإن لم يفعل وصلى بذلك الماء أجزأه. وروى الدارقطنيّ عن محمد بن سِيرين أن زِنجِياً وقع في زمزم ـ يعني فمات ـ فأمر به ٱبن عباس رضي الله عنه فأخرِج فأمر بها أن تنزح. قال: فغلبتهم عين جاءتهم من

الركن فأمر بها فدُسِمت بالقُبَاطِيّ[1] والمطارف حتى نزحوها، فلما نزحوها أنفجرت عليهم. وأخرجه عن أبـي الطفيل أن غلاماً وقع في بئر زمزم فنزحت. وهذا يحتمل أن يكون الماء تغير، والله أعلم. وروى شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يقول: كل نفس سائلة لا يتوضأ منها، ولكن رخص في الخنفساء والعقرب والجراد والجدجد[2] إذا وقعن في الركاء[3] فلا بأس به. قال شعبة: وأظنه قد ذكر الوزغة. أخرجه الدارقطنيّ، حدّثنا الحسين بن إسماعيل قال حدّثنا محمد بن الوليد قال حدّثنا محمد بن جعفر قال حدّثنا شعبة. . . ؛ فذكره.

الثامنة ـ ذهب الجمهور من الصحابة وفقهاء الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أن ما ولغ فيه الهرّ من الماء طاهر، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره؛ لحديث أبـي قتادة، أخرجه مالك وغيره. وقد روي عن أبـي هريرة فيه خلاف. وروي عن عطاء بن أبـي رباح وسعيد بن المسيب ومحمد بن سِيرين أنهم أمروا بإراقة ماء ولغ فيه الهرّ وغسل الإناء منه. وآختلف في ذلك عن الحسن. ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فمه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه. قال الترمذيّ لما ذكر حديث مالك: «وفي الباب عن عائشة وأبـي هريرة، هذا حديث حسن صحيح، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ ﷺ والتابعين ومن بعدهم؛ مثلِ الشافعيّ وأحمد وإسحاق، لم يروا بسؤر الهِرّة بأساً. وهذا أحسن شيء في الباب، وقد جوّد مالك هذا الحديث عن إسحاق بن عبد الله بن أبـي طلحة، ولم يأت به أحد أتم من مالك» قال الحافظ أبو عمر: الحجة عند التنازع والاختلاف سنة رسول الله ﷺ، وقد صح من حديث أبـي قتادة أنه أصغى لها الإناء حتى شربت . الحديث. وعليه آعتماد الفقهاء في كل مصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله؛ فإنه كان يكره سؤره . وقال: إن توضأ به أحد أجزأه، ولا أعلم حجة لمن كره الوضوء بسؤر الهرّة أحسن من أنـه لم يبلغه حديث أبـي قتادة، وبلغه حديث أبـي هريرة في الكلب فقاس الهرّ عليه، وقد فرقت السنة بينهما في باب

(١) دسم الشيء يدسمه دسماً: سدّه. والقباطي (بالضم): ثياب من كتان رقيق يعمل بمصر؛ نسبة إلى القبط على غير قياس. والمطارف: جمع مطرف، وهو رداء من خزّ مربع ذو أعلام.

(٢) الجدجد كهدهد طوير شبه الجرادة.

(٣) الركاء (جمع ركوة): إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

التعبد في غسل الإناء، ومن حجَّته السنة خاصمته، وما خالفها مطرح. وبالله التوفيق. ومِن حجتهم أيضاً ما رواه قرّة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبـي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «طهور الإناء إذا ولغ فيه الهرّ أن يغسل مرة أو مرتين» شك قرّة. وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بن خالد، وقرة ثقة ثبت.

قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطنيّ، ومتنه: «طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والهرّ مرة أو مرتين». قرّة شك. قال أبو بكر: كذا رواه أبو عاصم مرفوعاً، ورواه غيره عن قرّة (ولوغ الكلب) مرفوعاً و (ولوغ الهرّ) موقوفاً. وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يغسل الإناء من الهرّ كما يغسل من الكلب» قال الدارقطني: لا يثبت هذا مرفوعاً والمحفوظ من قول أبـي هريرة وٱختلف عنه. وذكر معمر وٱبن جريج عن ٱبن طاوس عن أبيه أنه كان يجعل الهرّ مثل الكلب. وعن مجاهد أنه قال في الإناء يلغ فيه السنور قال: ٱغسله سبع مرات. قاله الدارقطنيّ.

التاسعة ـ الماء المستعمل طاهر إذا كانت أعضاء المتوضىء به طاهرة؛ إلا أن مالكاً وجماعة من الفقهاء الجِلة كانوا يكرهون الوضوء به. وقال مالك: لا خير فيه، ولا أحِب لأحد أن يتوضأ به، فإن فعل وصلى لم أر عليه إعادة الصلاة ويتوضأ لما يستقبل. وقال أبو حنيفة والشافعيّ وأصحابهما: لا يجوز ٱستعماله في رفع الحدث، ومن توضأ به أعاد؛ لأنه ليس بماء مطلق، ويتيمّم واجده لأنه ليس بواجد ماء. وقال بقولهم في ذلك أصبغ بن الفرج، وهو قول الأوزاعِيّ. وٱحتجوا بحديث الصُّنابِحيّ خرجه مالك وحديث عمرو بن عنبسة أخرجه مسلم، وغير ذلك من الآثار. وقالوا: الماء إذا توضىء به خرجت الخطايا معه؛ فوجب التنزه عنه لأنه ماء الذنوب. قال أبو عمر: وهذا عندي لا وجه له؛ لأن الذنوب لا تنجس الماء لأنها لا أشخاص لها ولا أجسام تمازج الماء فتفسده، وإنما معنى قوله: «خرجت الخطايا مع الماء» إعلام منه بأن الوضوء للصلاة عمل يكفر الله به السيئات عن عباده

المؤمنين رحمة منه بهم وتفضلاً عليهم. وقال أبو ثور وداود مثل قول مالك، وأن الوضوء بالماء المستعمل جائز؛ لأنه ماء طاهر لا ينضاف إليه شيء وهو ماء مطلق. وٱحتجوا بإجماع الأمة على طهارته إذا لم يكن في أعضاء المتوضىء نجاسة. وإلى هذا ذهب أبو عبد الله المَرْوَزِيّ محمد بن نصر. وروي عن عليّ بن أبي طالب وٱبن عمر وأبي أمامة وعطاء بن أبي رَبَاح والحسن البصري والنخعِيّ ومكحول والزهرِيّ أنهم قالوا فيمن نسي مسح رأسه فوجد في لحيته بللاً: إنه يجزئه أن يمسح بذلك البلل رأسه؛ فهؤلاء كلهم أجازوا الوضوء بالماء المستعمل. روى عبد السلام بن صالح حدّثنا إسحاق بن سُويد عن العلاء بن زياد عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ مرضيّ أن رسول الله ﷺ خرج عليهم ذات يوم وقد ٱغتسل وقد بقيت لمعة من جسده لم يصبها الماء، فقلنا: يا رسول الله، هذه لمعة لم يصبها الماء؛ فكان له شعر وارد[1]، فقال[2] بشعره هكذا على المكان فبَلَّه. أخرجه الدارقطنِيّ، وقال: عبد السلام بن صالح هذا بصريّ وليس بقويّ، وغيره من الثقات يرويه عن إسحاق عن العلاء مرسلاً، وهو الصواب.

قلت: الراوي الثقة عن إسحاق بن سويد العدوي عن العلاء بن زياد العدوي أن رسول الله ﷺ ٱغتسل. . . ؛ الحديث فيما ذكره هشيم. قال ٱبن العربي: «مسألة الماء المستعمل إنما تنبني على أصل آخر، وهو أن الآلة إذا أُدِّيَ بها فرض هل يؤدى بها فرض آخر أم لا؛ فمنع ذلك المخالف قياساً على الرقبة إذا أدّى بها فرض عتق لم يصلح أن يتكرر في أداء فرض آخر؛ وهذا باطل من القول، فإن العتق إذا أتى على الرق أتلفه فلا يبقى محل لأداء الفرض بعتق آخر. ونظيره من الماء ما تلف على الأعضاء فإنه لا يصح أن يؤدّى به فرض آخر لتلف عينه حِسّاً كما تلف الرق في الرقبة بالعتق حكماً، وهذا نفيس فتأملوه».

---

(١) أي مسترسل طويل.

(٢) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، وتطلقه على غير الكلام واللسان؛ فتقول: قال بيده، أي أخذ. وقال برجله؛ أي مشى. وقال بالماء على يده؛ أي قلب. وقال بثوب، أي رفعه. وكل ذلك على المجاز والاتساع.

العاشرة ـ لم يفرق مالك وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسة وبين النجاسة يرد عليها الماء، راكداً كان الماء أو غير راكد؛ لقول رسول الله ﷺ: «الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب عليه فغيّر طعمه أو لونه أو ريحه». وفرقت الشافعية فقالوا: إذا وردت النجاسة على الماء تنجس؛ وٱختاره ٱبن العربـي. وقال: من أصول الشريعة في أحكام المياه أن ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماء على النجاسة؛ لقول النبي ﷺ: «إذا ٱستيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده». فمنع من ورود اليد على الماء، وأمر بإيراد الماء عليها، وهذا أصل بديع في الباب، ولولا وروده على النجاسة ـ قليلاً كان أو كثيراً ـ لما طهرت. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في بول الأعرابـي في المسجد: «صبّوا عليه ذَنُوباً[١] من ماء». قال شيخنا أبو العباس: وٱستدلوا أيضاً بحديث القلتين، فقالوا: إذا كان الماء دون القلتين فحلته نجاسة تنجس وإن لم تغيّره، وإن ورد ذلك القدر فأقبل على النجاسة فأذهب عينها بقي الماء على طهارته وأزال النجاسة وهذه مناقضة، إذ المخالطة قد حصلت في الصورتين، وتفريقهم بورود الماء على النجاسة وورودها عليه فرق صوريّ ليس فيه من الفقه شيء، فليس الباب باب التعبدات بل من باب عقلية المعاني، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامها. ثم هذا كله منهم يرده قوله عليه الصلاة والسلام: «الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه».

قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطنِيّ عن رِشدِين بن سعد أبـي الحجاج عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبـي أمامة الباهلي وعن ثوبان عن النبيّ ﷺ، وليس فيه ذكر اللون. وقال: لم يرفعه غير رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوي، وأحسن منه في الاستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خدِيج عن أبـي سعيد الخدري قال قيل: يا رسول الله،

---

(١) الذنوب (بالفتح): الدلو.

أنتوضأ من بئر بُضاعة، وهي بئر تلقى فيها الحِيض[1] ولحوم الكلاب والنَّتِن؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء» أخرجه أبو داود والترمذي والدارقطنِيّ كلهم بهذا الإسناد. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وقد جوّد أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو أحد حديث أبي سعيد في بئر بُضاعة أحسن مما روى أبو أسامة. فهذا الحديث نص في ورود النجاسة على الماء، وقد حكم ﷺ بطهارته وطهوره. قال أبو داود: سمعت قتيبة بن سعيد قال سألت قيم بئر بضاعة عن عمقها؛ قلت: أكثر ما يكون الماء فيها؟ قال: إلى العانة. قلت: فإذا نقص؟ قال: دون العورة. قال أبو داود: وقدّرت بئر بضاعة بردائي مددته عليها ثم ذرعته فإذا عرضها ستة أذرع، وسألت الذي فتح لي باب البستان فأدخلني إليه: هل غيِّر بناؤها عما كانت عليه؟ فقال لا. ورأيت فيها ماء متغير اللون. فكان هذا دليلاً لنا على ما ذكرناه، غير أن ٱبن العربي قال: إنها في وسط السَّبَخة، فماؤها يكون متغيراً من قرارها؛ والله أعلم.

الحادية عشرة ـ الماء الطاهر المطهر الذي يجوز به الوضوء وغسل النجاسات هو الماء القراح الصافي من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار، وما عرفه الناس ماء مطلقاً غير مضاف إلى شيء خالطه كما خلقه الله عز وجل صافياً ولا يضره لون أرضه على ما بيناه. وخالف في هذه الجملة أبو حنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنبيذ في السفر، وجوز إزالة النجاسة بكل مائع طاهر. فأما بالدهن والمرق فعنه رواية أنه لا يجوز إزالتها به. إلا أن أصحابه يقولون: إذا زالت النجاسة به جاز. وكذلك عنده النار والشمس؛ حتى أن جلد الميتة إذا جف في الشمس طهر من غير دباغ. وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يطهر ذلك الموضع، بحيث تجوز الصلاة عليه، ولكن لا يجوز التيمم بذلك التراب. قال ٱبن العربي: لما وصف الله سبحانه الماء بأنه طهور وٱمتن بإنزاله من السماء ليطهرنا به دل على ٱختصاصه بذلك؛ وكذلك قال عليه الصلاة

---

(١) الحيض: الخرق التي يمسح بها دم الحيض؛ ويقال لها المحايض.

والسلام لأسماء بنت الصدّيق حين سألته عن دم الحيض يصيب الثوب: «حُتِّيه ثم اقرِصيه ثم اغسليه بالماء». فلذلك لم يلحق غير الماء بالماء لما في ذلك من إبطال الامتنان، وليست النجاسة معنى محسوساً حتى يقال كل ما أزالها فقد قام به الغرض، وإنما النجاسة حكم شرعيّ عين له صاحب الشرع الماء فلا يلحق به غيره إذ ليس في معناه، ولأنه لو لحق به لأسقطه، والفرع إذا عاد إلحاقه بالأصل في إسقاطه سقط في نفسه. وقد كان تاج السنة ذو العز ابن المرتضى الدبوسي يسميه فرخ زنى.

قلت: وأما ما استدل به على استعمال النبيذ فأحاديث واهية، ضعاف لا يقوم شيء منها على ساق؛ ذكرها الدارقطنيّ وضعفها ونص عليها. وكذلك ضعف ما روي عن ابن عباس موقوفاً «النبيذ وضوء لمن لم يجد الماء». في طريقه ابن محرز متروك الحديث. وكذلك ما روي عن عليّ أنه قال: لا بأس بالوضوء بالنبيذ. الحجاج وأبو ليلى ضعيفان. وضعف حديث ابن مسعود وقال: تفرّد به ابن لَهيعة وهو ضعيف الحديث. وذكر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود: أشهِد رسول الله ﷺ أحد منكم ليلة أتاه داعي الجن؟ فقال لا.

قلت: هذا إسناد صحيح لا يختلف في عدالة رواته. وأخرج الترمذي حديث ابن مسعود قال: سألني النبيّ ﷺ: «ما في إدواتك»[1] فقلت: نبيذ. فقال: «تمرة طيبة وماء طهور» قال: فتوضأ منه. قال أبو عيسى: وإنما روي هذا الحديث عن أبي زيد عن عبد الله عن النبيّ ﷺ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لا نعرف له رواية غير هذا الحديث، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالنبيذ؛ منهم سفيان وغيره، وقال بعض أهل العلم: لا يتوضأ بالنبيذ، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحق، وقال إسحق: إن ابتلي رجل بهذا فتوضأ بالنبيذ وتيَمَّم أحب إليّ. قال أبو عيسى: وقول من يقول لا يتوضأ بالنبيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا

(١) الإداوة (بالكسر): إناء صغير من جلد يتخذ للماء.

صَعِيداً طَيِّباً﴾. وهذه المسألة مطولة في كتب الخلاف؛ وعمدتهم التمسك بلفظ الماء حسبما تقدم في ﴿المائدة﴾[1] بيانه والله أعلم.

الثانية عشرة ـ لما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ وقال: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ توقف جماعة في ماء البحر؛ لأنه ليس بمنزل من السماء؛ حتى رووا عن عبد الله بن عمر وآبن عمرو معا أنه لا يتوضأ به؛ لأنه نار ولأنه طبق جهنم. ولكن النبيّ ﷺ بين حكمه حين قال لمن سأله: «هو الطهور ماؤه الحِل ميتته» أخرجه مالك. وقال فيه أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وهو قول أكثر الفقهاء من أصحاب النبيّ ﷺ، منهم أبو بكر وعمر وآبن عباس، لم يروا بأساً بماء البحر، وقد كره بعض أصحاب النبيّ ﷺ الوضوء بماء البحر؛ منهم آبن عمر وعبد الله بن عمرو، وقال عبد الله بن عمرو: هو نار. قال أبو عمر: وقد سئل أبو عيسى الترمذي عن حديث مالك هذا عن صفوان بن سُلَيم فقال: هو عندي حديث صحيح. قال أبو عيسى فقلت للبخاري: هشيم يقول فيه آبن أبي بَرْزة. فقال: وَهِم فيه، إنما هو المغيرة بن أبي بُرْدة. قال أبو عمر: لا أدري ما هذا من البخاريّ رحمه الله، ولو كان صحيحاً لأخرجه في مصنفه الصحيح عنده، ولم يفعل لأنه لا يعول في الصحيح إلا على الإسناد. وهذا الحديث لا يحتج أهل الحديث بمثل إسناده، وهو عندي صحيح لأن العلماء تلقوه بالقبول له والعمل به، ولا يخالف في جملته أحد من الفقهاء، وإنما الخلاف بينهم في بعض معانيه. وقد أجمع جمهور من العلماء وجماعة أئمة الفتوى بالأمصار من الفقهاء: أن البحر طهور ماؤه، وأن الوضوء به جائز؛ إلا ما روي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاصي أنهما كرها الوضوء بماء البحر، ولم يتابعهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك ولا عرج عليه، ولا التفت إليه لحديث هذا الباب. وهذا يدلك على آشتهار الحديث عندهم، وعملهم به وقبولهم له، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهر الصحة لمعنى ترده الأصول. وبالله التوفيق.

---

(١) راجع ٦/ ١٠٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قال أبو عمر: وصفوان بن سُلَيم مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهريّ، من عبَّاد أهل المدينة وأتقاهم لله، ناسكاً، كثير الصدقة بما وجد من قليل وكثير، كثير العمل، خائفاً لله، يكنى أبا عبد الله، سكن المدينة لم ينتقل عنها، ومات بها سنة ٱثنتين وثلاثين ومائة. ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبي يسأل عن صفوان بن سُلَيم فقال: ثقة من خيار عباد الله وفضلاء المسلمين. وأما سعيد بن سلمة فلم يرو عنه فيما علمت إلا صفوان ـ والله أعلم ـ ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عند جميعهم. وأما المغيرة بن أبي بُرْدة فقيل عنه إنه غير معروف في حملة العلم كسعيد بن سلمة. وقيل: ليس بمجهول. قال أبو عمر: المغيرة بن أبي بردة وجدت ذكره في مغازي موسى بن نصير بالمغرب، وكان موسى يستعمله على الخيل، وفتح الله له في بلاد البربر فتوحات في البر والبحر. وروى الدارقطنِيّ من غير طريق مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يطهره ماء البحر فلا طهره الله». قال إسناد حسن.

الثالثة عشرة ـ قال ٱبن العربيّ: توهم قوم أن الماء إذا فضلت للجنب منه فضلة لا يتوضأ به، وهو مذهب باطل، فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت: أجنبت أنا ورسول الله ﷺ واغتسلتُ من جَفْنة وفضلت فضلة، فجاء رسول الله ﷺ ليغتسل منه فقلت: إني قد ٱغتسلت منه. فقال: «إن الماء ليس عليه نجاسة ـ أو ـ إن الماء لا يُجْنِب». قال أبو عمر: وردت آثار في هذا الباب مرفوعة في النهي عن أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة. وزاد بعضهم في بعضها: ولكن ليغترفا جميعاً. فقالت طائفة: لا يجوز أن يغترف الرجل مع المرأة في إناء واحد؛ لأن كل واحد منهما متوضىء بفضل صاحبه. وقال آخرون: إنما كره من ذلك أن تنفرد المرأة بالإناء ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها. وكل واحد منهم روى بما ذهب إليه أثرا. والذي ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعة فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة وتتوضّأ المرأة من فضله، ٱنفردت المرأة بالإناء أو لم تنفرد. وفي مثل هذا آثار كثيرة صحاح. والذي نذهب إليه أن

الماء لا ينجسه شيء إلا ما ظهر فيه من النجاسات أو غلب عليه منها؛ فلا وجه للاشتغال بما لا يصح من الآثار والأقوال. والله المستعان.

روى الترمذيّ عن ٱبن عباس قال حدثتني ميمونة قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد من الجنابة. قال هذا حديث حسن صحيح. وروى البخاريّ عن عائشة قالت: كنت أغتسل أنا والنبيّ ﷺ من إناء واحد يقال له الفَرَق[1]. وفي «صحيح مسلم» عن ٱبن عباس أن رسول الله ﷺ كان يغتسل بفضل ميمونة. وروى الترمذيّ عن ٱبن عباس قال: ٱغتسل بعض أزواج النبيّ ﷺ في جَفْنة فأراد رسول الله ﷺ أن يتوضأ منه فقالت: يا رسول الله، إني كنت جنباً. قال: «إن الماء لا يُجْنِب». قال: هذا حديث حسن صحيح، وهو قول سفيان الثوريّ ومالك والشافعيّ. وروى الدارقطنِيّ عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أتوضأ أنا والنبيّ ﷺ من إناء واحد وقد أصابت الهرة منه قبل ذلك. قال: هذا حديث حسن صحيح. وروي أيضاً عن رجل من بني غفار قال: نهى رسول الله ﷺ عن فضل طهور المرأة. وفي الباب عن عبد الله بن سَرْجِس، وكره بعض الفقهاء فضل طهور المرأة، وهو قول أحمد وإسحاق.

الرابعة عشرة ـ روى الدارقطنيّ عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر بن الخطاب كان يسخن له الماء في قمقمة[2] ويغتسل به. قال: وهذا إسناد صحيح. وروي عن عائشة قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وقد سخَّنت ماء في الشمس. فقال «لا تفعلي يا حميراء فإنه يورث البرص». رواه خالد بن إسمٰعيل المخزوميّ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وهو متروك. ورواه عمرو بن محمد الأعشم عن فليح عن الزهريّ عن عروة عن عائشة. وهو منكر الحديث، ولم يروه غيره عن فليح، ولا يصح عن الزهري؛ قاله الدارقطني.

---

(١) الفرق (بالتحريك): مكيال يسع ستة عشر رطلاً. وبالسكون مائة وعشرون رطلاً.

(٢) القمقمة والقمقم (كهدهد): ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره.

الخامسة عشرة ـ كل إناء طاهر فجائز الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة؛ لنهي رسول الله ﷺ عن ٱتخاذهما. وذلك ـ والله أعلم ـ للتشبه بالأعاجم والجبابرة لا لنجاسة فيهما. ومن توضأ فيهما أجزأه وضوءه وكان عاصياً باستعمالهما. وقد قيل: لا يجزىء الوضوء في أحدهما. والأوّل أكثر؛ قاله أبو عمر. وكل جلد ذُكِّيَ فجائز ٱستعماله للوضوء وغير ذلك. وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ؛ على ٱختلاف من قوله. وقد تقدّم في ﴿النحل﴾(1).

[٤٩] ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ﴾ أي بالمطر. ﴿بَلْدَةً مَيْتاً﴾ بالجدوبة والمحل وعدم النبات. قال كعب: المطر روح الأرض يحييها الله به. وقال: ﴿مَيْتاً﴾ ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة والبلد واحد؛ قاله الزجاج. وقيل: أراد بالبلد المكان. ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ قراءة العامة بضم النون. وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضل عنهما ﴿نَسْقِيَهُ﴾ (بفتح)(2) النون. ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ أي بشراً كثيراً وأناسيّ واحده إنسي نحو جمع القُرْقُور(3) قَرَاقير وقَرَاقِر في قول الأخفش والمبرد وأحد قولي الفراء؛ وله قول آخر وهو أن يكون واحده إنساناً ثم تبدل من النون ياء؛ فتقول: أناسي، والأصل أناسين، مثل سرحان وسراحين، وبستان وبساتين؛ فجعلوا الياء عوضاً من النون، وعلى هذا يجوز سراحي وبساتي، لا فرق بينهما. قال الفراء: ويجوز ﴿أَنَاسِي﴾ بتخفيف الياء التي فيما بين لام الفعل وعينه؛ مثل قراقير وقراقر. وقال ﴿كثِيرا﴾ ولم يقل كثيرين؛ لأن فعيلا قد يراد به الكثرة؛ نحو ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾.

---

(1) راجع ١٠/١٥٦ طبعة أولى أو ثانية.

(2) في الأصول: «بضم النون». وهو تحريف والتصويب عن أبي حيان وغيره.

(3) القرقور: ضرب من السفن. وقيل: هي السفينة العظيمة أو الطويلة.

[٥٠] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني القرآن، وقد جرى ذكره في أوّل السورة: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ﴾. وقوله: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وقوله: ﴿اتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً﴾. ﴿لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ أي جحودا له وتكذيباً به. وقيل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ هو المطر. روي عن ابن عباس وابن مسعود: وأنه ليس عام بأكثر مطراً من عام ولكن الله يصرِّفه حيث يشاء، فما زيد لبعض نقص من غيرهم. فهذا معنى التصريف. وقيل: ﴿صَرَّفْنَاهُ بينهم﴾ وابلا وطَشّا وطَلاّ ورِهاما ـ الجوهري: الرهام الأمطار اللينة ـ ورَذَاذاً. وقيل: تصريفه تنويع الانتفاع به في الشرب والسقي والزراعات به والطهارات وسقي البساتين والغسل وشبهه. ﴿لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ قال عكرمة: هو قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا. قال النحاس: ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافاً أن الكفر هاهنا قولهم مطرنا بنوء كذا وكذا؛ وأن نظيره فعل النجم كذا، وأن كل من نسب إليه فعلا فهو كافر. وروى الربيع بن صبيح قال: مُطِر الناس على عهد رسول الله ﷺ ذات ليلة، فلما أصبح قال النبيّ ﷺ: «أصبح الناس فيها رجلين شاكر وكافر فأما الشاكر فيحمد الله تعالى على سقياه وغياثه وأما الكافر فيقول مُطِرنا بنوء كذا وكذا». وروي من حديث ابن مسعود عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار». وقيل: التصريف راجع إلى الريح، وقد مضى في ﴿البقرة﴾[1] بيانه. وقرأ حمزة والكسائي ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ مخففة الذال من الذكر. الباقون مثقلاً من التذكر؛ أي ليذّكروا نعم الله ويعلموا أن من أنعم بها لا يجوز الإشراك به؛ فالتذكر قريب من الذكر غير أن التذكر يطلق فيما بعد عن القلب فيحتاج إلى تكلف في التذكر.

(١) راجع ٢/١٩٧ طبعة ثانية.

[٥١] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾﴾.

[٥٢] ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ أي رسولاً ينذرهم كما قسمنا المطر ليخفّ عليك أعباء النبوّة، ولكنا لم نفعل بل جعلناك نذيراً للكل لترتفع درجتك فاْشكر نعمة الله عليك. ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ أي فيما يدعونك إليه من اْتباع آلهتهم. ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ قال اْبن عباس بالقرآن. اْبن زيد: بالإسلام. وقيل: بالسيف؛ وهذا فيه بعد؛ لأن السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال. ﴿جِهاداً كَبِيراً﴾ لا يخالطه فتور.

[٥٣] ﴿۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَينِ﴾ عاد الكلام إلى ذكر النعم. و ﴿مَرَجَ﴾ خَلَّ وخلط وأرسل. قال مجاهد: أرسلهما وأفاض أحدهما في الآخر. قال اْبن عرفة: ﴿مرَجَ الْبَحْرَينِ﴾ أي خلطهما فهما يلتقيان؛ يقال: مرجته إذا خلطته. ومَرِج الدينُ والامرُ اْختلط واْضطرب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاصي[1]: «إذا رأيتَ الناس مَرِجت عهودهم وخفّت أماناتهم وكانوا هكذا وهكذا» وشبك بين أصابعه فقلت له: كيف أصنع عند ذلك، جعلني الله فداك! قال: «اْلزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ بما تعرِف ودع ما تنكِر وعليك بخاصة أمر نفسك ودع عنك أمر العامة» خرجه النسائيّ وأبو داود وغيرهما. وقال الأزهريّ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلى بينهما؛ يقال مَرَجْتُ الدابةَ إذا خليتَها ترعى. وقال ثعلب: المرج الإجراء؛ فقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي أجراهما. وقال الأخفش: يقول قوم أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل بمعنى. ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي حلو شديد العذوبة.

(١) الحديث في الفتنة.

﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي فيه ملوحة ومرارة. وروى طلحة أنه قرىء ﴿وَهَذَا مَلِحٌ﴾ بفتح الميم وكسر اللام. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ أي حاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه؛ كما قال في سورة الرحمن ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ﴾. ﴿وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي سترا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر. فالبرزخ الحاجز، والحجر المانع. وقال الحسن: يعني بحر فارس وبحر الروم. وقال ابن عباس وابن جبير: يعني بحر السماء وبحر الأرض. قال ابن عباس: يلتقيان في كل عام وبينهما برزخ قضاء من قضائه. ﴿وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ حراماً محرّما أن يعذب هذا الملح بالعذب، أو يملح هذا العذب بالملح.

[٥٤] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً﴾ أي خلق من النطفة إنساناً. ﴿فَجَعَلَهُ﴾ أي جعل الإنسان ﴿نَسَباً وَصِهْراً﴾. وقيل: ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ إشارة إلى أصل الخلقة في أن كل حيّ مخلوق من الماء. وفي هذه الآية تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم، والتنبيه على العبرة في ذلك.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾ النسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميين. قال ابن العربي: النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع؛ فإن كان بمعصية كان خلقاً مطلقاً ولم يكن نسباً محققاً، ولذلك لم يدخل تحت قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ بنتُه من الزنى؛ لأنها ليست ببنت له في أصح القولين لعلمائنا وأصح القولين في الدين؛ وإذا لم يكن نسب شرعا فلا صهر شرعا، فلا يحرّم الزنى بنتَ أمّ ولا أمّ بنت، وما يحرّم من الحلال لا يحرّم من الحرام؛ لأن الله امتن بالنسب والصهر على عباده ورفع قدرهما، وعلّق الأحكام في الحل والحرمة عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما.

قلت: ٱختلف الفقهاء في نكاح الرجل ٱبنته من زنى أو أخته أو بنت ٱبنه من زنى؛ فحرّم ذلك قوم منهم ٱبن القاسم، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، وأجاز ذلك آخرون منهم عبد الملك بن الماجشون، وهو قول الشافعيّ، وقد مضى هذا في ﴿النساء﴾[1] مجوّدا. قال الفراء: النسب الذي لا يحل نكاحه. وقاله الزجاج، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وٱشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته؛ فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه، فسميت المناكح صهرا لاختلاط الناس بها. وقيل: الصهر قرابة النكاح؛ فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء. والأصهار يقع عاماً لذلك كله؛ قاله الأصمعيّ. وقال ٱبن الأعرابي: الأختان أبو المرأة وأخوها وعمها ـ كما قال الأصمعيّ ـ والصهر زوج ٱبنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه. وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجوزجاني: أختان الرجل أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته، وكل ذات محرم منه، وأصهاره كل ذي رحم محرم من زوجته. قال النحاس: الأولى في هذا أن يكون القول في الأصهار ما قال الأصمعي، وأن يكون من قبلهما جميعاً. يقال صهرت الشيء أي خلطته؛ فكل واحد منهما قد خلط صاحبه. والأولى في الأختان ما قال محمد بن الحسن لجهتين: إحداهما الحديث المرفوع، روى محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ: «أما أنت يا عليّ فختني وأبو ولدي وأنت مني وأنا منك». فهذا على أن زوج البنتَ خَتَن. والجهة الأخرى أن ٱشتقاق الخَتَن من خَتَنه إذا قطعه؛ وكأن الزوج قد ٱنقطع عن أهله، وقطع زوجته عن أهلها. وقال الضحاك: الصهر قرابة الرضاع. قال ٱبن عطية: وذلك عندي وَهم أوجبه أن ٱبن عباس قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر خمس. وفي رواية أخرى من الصهر سبع؛ يريد قوله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ﴾ فهذا هو النسب. ثم يريد بالصهر قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾. ثم ذكر المحصنات. ومحمل هذا أن ٱبن عباس أراد حرم من الصهر ما ذكر معه، فقد أشار

(١) راجع ٥/ ١١٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

بما ذكر إلى عظمه وهو الصهر، لا أن الرضاع صهر، وإنما الرضاع عديل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه. ومن روى: وحرم من الصهر خمس أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصنات؛ وهنّ ذوات الأزواج.

قلت: فابن عطية جعل الرضاع مع ما تقدّم نسباً، وهو قول الزجاج. قال أبو إسحاق: النسب الذي ليس بصهر من قوله جل ثناؤه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾ والصهر من له التزويج. قال ابن عطية: وحكى الزهراوي قولاً أن النسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات.

قلت: وذكر هذا القول النحاس، وقال: لأن المصاهرة من جهتين تكون. وقال ابن سيرين: نزلت هذه الآية في النبيّ ﷺ وعليّ رضي الله عنه؛ لأنّه جمعه معه نسب وصهر. قال ابن عطية: فاجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة. ﴿وَكَان رَبُّكَ قَدِيراً﴾ على خلق ما يريده.

[٥٥] ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ﴾ لما عدد النعم وبين كمال قدرته عجب من المشركين في إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضر؛ أي إن الله هو الذي خلق ما ذكره، ثم هؤلاء لجهلهم يعبدون من دونه أمواتاً جمادات لا تنفع ولا تضر. ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ روي عن ابن عباس ﴿الْكَافِرُ﴾ هنا أبو جهل؛ وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه. وقال عكرمة: ﴿الْكَافِرُ﴾ إبليس، ظهر على عداوة ربه. وقال مطرف: ﴿الْكَافِرُ﴾ هنا الشيطان. وقال الحسن: ﴿ظَهِيراً﴾ أي معيناً للشيطان على المعاصي. وقيل: المعنى؛ وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً لا قدر له ولا وزن عنده؛ من قول العرب: ظَهرت به أي جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي هيناً.

ومنه قول الفرزدق:

تَميمَ بنَ قيسٍ لا تكوننّ حاجتي بِظَهْرٍ فلا يعيا عليّ جوابُها

هذا معنى قول أبي عبيدة. وظهير بمعنى مظهور. أيْ كفر الكافرين هين على الله تعالى، والله مستهين به لأن كفره لا يضره. وقيل: وكان الكافر على ربه الذي يعبده وهو الصنم قوياً غالباً يعمل به ما يشاء؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضر ونفع.

[٥٦] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

[٥٧] ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ يريد بالجنة مبشراً ونذيراً من النار؛ وما أرسلناك وكيلاً ولا مسيطراً. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يريد على ما جئتكم به من القرآن والوحي. و ﴿مِنْ﴾ للتأكيد. ﴿إِلاَّ مَنْ شَاءَ﴾ لكن من شاء؛ فهو ٱستثناء منقطع، والمعنى: لكن من شاء ﴿أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ بإنفاقه من ماله في سبيل الله فلينفق. ويجوز أن يكون متصلاً ويقدّر حذف المضاف؛ التقدير: إلا أجر ﴿مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ بأتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة.

[٥٨] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلَ عَلى ٱلْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ تقدم معنى التوكل في ﴿آل عمران﴾[1] وهذه السورة وأنه ٱعتماد القلب على الله تعالى في كل الأمور، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير ٱعتماد عليها. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي نزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار به من الشركاء. والتسبيح التنزيه، وقد تقدم. وقيل: ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي صلّ له؛ وتسمى الصلاة تسبيحاً. ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ أي عليماً فيجازيهم بها.

---

(١) راجع ١٨٩/٤ طبعة أولى أو ثانية.

[٥٩] ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدم في ﴿الأعراف﴾[١]. و ﴿ٱلَّذِي﴾ في موضع خفض نعتاً للحيّ. وقال ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ولم يقل بينهن؛ لأنه أراد الصنفين والنوعين والشيئين؛ كقول القُطَامِيّ:

ألــم يحــزنــك أن حبــال قيــس   وتغلــب قــد تبــاينتــا انقطــاعــاً

أراد وحبال تغلب فثنى، والحبال جمع؛ لأنه أراد الشيئين والنوعين. ﴿ٱلرَّحْمَنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ قال الزجاج: المعنى فاسأل عنه. وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى عن؛ كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ وقال الشاعر:

هَلاَّ سألتِ الخيل يا ابنة مالك   إن كنت جاهلة بما لم تعلمي[٢]

وقال [عَلْقَمة بن عَبَدة][٣]:

فإن تسألوني بالنساء فإنني   خبيــرٌ بــأدواء النســاءِ طبيــبُ

أي عن النساء وعما لم تعلمي. وأنكره عليّ بن سليمان وقال: أهل النظر ينكرون أن تكون الباء بمعنى عن؛ لأن في هذا إفساداً لمعاني قول العرب: لو لقيت فلاناً للقيك به الأسد؛ أي للقيك بلقائك إياه الأسد. المعنى فأسأل بسؤالك إياه خبيراً. وكذلك قال ابن جبير: الخبير هو الله. فـ ﴿خَبِيراً﴾ نصب على المفعول به بالسؤال.

قلت: قول الزجاج يخرج على وجه حسن، وهو أن يكون الخبير غير الله؛ أي فأسأل عنه خبيراً، أي عالماً به، أي بصفاته وأسمائه. وقيل: المعنى فأسأل له خبيراً، فهو نصب

---

(١) راجع ٧/ ٢١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) البيت من معلقة عنترة.

(٣) في نسخ الأصل: «وقال أمرؤ القيس» وهو تحريف. والبيت من قصيدة لعلقمة مطلعها:

طحــا بــك قلــب فــي الحســان طــروب   بعيــد الشبــاب عصــر حــان مشيــب

على الحال من الهاء المضمرة. قال المهدوِيّ: ولا يحسن حالاً إذ لا يخلو أن تكون الحال من السائل أو المسؤول، ولا يصح كونها حالاً من الفاعل؛ لأن الخبير لا يحتاج أن يسأل غيره. ولا يكون من المفعول؛ لأنّ المسؤول عنه وهو الرحمن خبير أبداً، والحال في أغلب الأمر يتغير وينتقل؛ إلا أن يحمل على أنها حال مؤكدة؛ مثل ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾ فيجوز. وأما ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ففي رفعه ثلاثة أوجه: يكون بدلاً من المضمر الذي في ﴿ٱسْتَوَى﴾. ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى هو الرحمن. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء وخبره ﴿فاسأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾. ويجوز الخفض بمعنى وتوكل على الحيّ الذي لا يموت الرحمنِ؛ يكون نعتاً. ويجوز النصب على المدح.

[٦٠] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ أي لله تعالى. ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ على جهة الإنكار والتعجب، أي ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب. وزعم القاضي أبو بكر بن العربيّ أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف، وٱستدل على ذلك بقوله: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ ولم يقولوا ومن الرحمن. قال ٱبن الحصار: وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾. ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هذه قراءة المدنيين والبصريين: أي لما تأمرنا أنت يا محمد. وٱختاره أبو عبيد وأبوحاتم. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائيّ ﴿يَأْمُرُنَا﴾ بالياء. يعنون الرحمن؛ كذا تأوّله أبو عبيد، قال: ولو أقرّوا بأنّ الرحمن أمرهم ما كانوا كفاراً. فقال النحاس: وليس يجب أن يتأوّل عن الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا﴾ النبيّ ﷺ؛ فتصح القراءة على هذا، وإن كانت الأولى أبين وأقرب تناولاً. ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ أي زادهم قول القائل لهم ٱسجدوا للرحمن نفوراً عن الدين. وكان سفيان الثوريّ يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعاً ما زاد عداك نفوراً.

[٦١] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ أي منازل؛ وقد تقدّم[1] ذكرها. ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً ﴾ قال ابن عباس: يعني الشمسَ؛ نظيره ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾. وقراءة العامة ﴿سِرَاجاً﴾ بالتوحيد. وقرأ حمزة والكسائيّ ﴿سُرُجاً﴾ يريدون النجوم العظام الوقادة. والقراءة الأولى عند أبي عبيد أولى؛ لأنه تأوّل أن السُّرُج النجوم، وأن البروج النجوم، فيجيء المعنى نجوماً ونجوماً. النحاس: ولكن التأويل لهم أن أبان بن تغلِب قال: السرج النجوم الدراريّ. الثعلبي: كالزهرة والمشترِي وزحل والسماكين ونحوها. ﴿وَقَمَراً مُنِيراً﴾ ينير الأرض إذا طلع. وروى عِصمة عن الأعمش ﴿وَقُمْراً﴾ بضم القاف وإسكان الميم. وهذه قراءة شاذة، ولو لم يكن فيها إلا أن أحمد بن حنبل وهو إمام المسلمين في وقته قال: لا تكتبوا ما يحكيه عِصمة الذي يروي القراءات، وقد أولع أبو حاتم السجستاني بذكر ما يرويه عِصمة هذا.

[٦٢] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿خِلْفَةً﴾ قال أبو عبيدة: الخِلفة كل شيء بعد شيء. وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه. ويقال للمبطون: أصابته خِلفة؛ أي قيام وقعود يخلف هذا ذاك. ومنه خلفة النبات، وهو ورق يخرج بعد الورق الأوّل في الصيف. ومن هذا المعنى قول زهير بن أبي سُلْمى:

بهـا العِيـنُ والآرَامُ يَمْشِيـنَ خِلْفَـةً وأَطْلاَؤُهَا يَنْهضنَ من كُلِّ مَجْثَمِ[2]

---

(١) راجع ١٠/٩ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) العين (بالكسر) جمع أعين وعينـاء ، وهي بقر الوحش ؛ سميت بذلك لسعة أعينها . والأطلاء: جمع طلا، وهو ولد البقرة وولد الظبية الصغير. والمجثم: الموضع الذي يجثم فيه؛ أي يقام فيه.

الرئم ولد الظبي وجمعه آرام؛ يقول: إذا ذهب فوج جاء فوج. ومنه قول الآخر[١] يصف أمرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأباً:

ولهـا بـالمـاطـرونِ إذا ... أكَلَ النملُ الذي جَمَعَا
خِلْفَـةً حتـى إذا ٱرتبعـتْ ... سَكَنـتْ مِـن جلّـقٍ بِيَعَـا
فـي بيـوت وَسْـطَ دَسْكَـرةٍ ... حـولَهـا الـزيتـونُ قـد يَنَعَـا

قال مجاهد: ﴿خِلْفَةً﴾ من الخلاف؛ هذا أبيض وهذا أسود؛ والأوّل أقوى. وقيل: يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان. وقيل: هو من باب حذف المضاف؛ أي جعل الليل والنهار ذوي خلفة، أي ٱختلاف. ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ أي يتذكر، فيعلم أن الله لم يجعله كذلك عبثاً فيعتبر في مصنوعات الله، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم. وقال عمر بن الخطاب وٱبن عباس والحسن: معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل. وفي «الصحيح»: «ما من أمرىء تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها نوم فيصلي ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة». وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: «من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل».

الثانية ـ قال ٱبن العربيّ: سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول: إن الله تعالى خلق العبد حياً عالماً، وبذلك كماله، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخِلقة؛ إذ الكمال للأوّل الخالق، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الأكل والسهر في طاعة الله فليفعل. ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغواً، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه ويبقى له من العمر عشرون سنة. ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثي عمرِه في لذة فانية، ولا يتلف عمره بسهر في لذة باقية عند الغنيّ الوفيّ الذي ليس بعديم ولا ظلوم.

---

(١) هو يزيد بن معاوية. والماطرون: موضع بالشام قرب دمشق.

الثالثة ـ الأشياء لا تتفاضل بأنفسها؛ فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة، وإنما يقع التفاضل بالصفات. وقد اختلف أيّ الوقتين أفضل، الليل أو النهار. وفي الصوم غنية في الدلالة، والله أعلم؛ قاله ابن العربيّ.

قلت: والليل عظيم قدره؛ أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾، وقال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ على ما يأتي بيانه. ومدح المؤمنين على قيامه فقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء وفيه ينزل الرب تبارك وتعالى» حسبما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الرابعة ـ قرأ حمزة وحده ﴿يَذْكُرَ﴾ بسكون الذال وضم الكاف. وهي قراءة ابن وثاب وطلحة والنخعيّ. وفي مصحف أبيّ ﴿يَتَذَكَّرَ﴾ بزيادة تاء. وقرأ الباقون ﴿يَذَّكَّرَ﴾ بتشديد الكاف. ويَذْكُرَ ويَذَّكَّرَ بمعنى واحد. وقيل: معنى ﴿يَذْكُرَ﴾ بالتخفيف أي يذكر ما نسيه في أحد الوقتين في الوقت الثاني، أو ليذكر تنزيه الله وتسبيحه فيها. ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ يقال: شكر يشكر شكراً وشكوراً، مثل كفر يكفر كفراً وكفوراً. وهذا الشكور على أنهما جعلهما قواماً لمعاشهم. وكأنهم لما قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ قالوا: هو الذي يقدر على هذه الأشياء.

[٦٣] ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة ذكر عباده المؤمنين أيضاً وذكر صفاتهم، وأضافهم إلى عبوديته تشريفاً لهم، كما قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وقد تقدم[1]. فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذي يستحق

(١) راجع ١٠/ ٢٠٥ طبعة أولى أو ثانية.

ٱسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ يعني في عدم الاعتبار؛ كما تقدّم في ﴿الأعراف﴾[1]. وكأنه قال: وعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض، فحذف هم؛ كقولك: زيد الأمير، أي زيد هو الأمير. فـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ قاله الأخفش. وقيل الخبر قوله في آخرة السورة: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ وما بين المبتدأ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها؛ قاله الزجاج. قال: ويجوز أن يكون الخبر ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾. و ﴿يَمْشُونَ﴾ عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم، فذكر من ذلك العظم، لا سيما وفي ذلك الانتقال في الأرض؛ وهو معاشرة الناس وخلطتهم.

قوله تعالى: ﴿هَوْناً﴾ الهون مصدر الهيِّن، وهو من السكينة والوقار. وفي «التفسير»: يمشون على الأرض حلماء متواضعين، يمشون في ٱقتصاد. والقصد والتؤدة وحسن السَّمْت من أخلاق النبوة. وقال ﷺ: «أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس في الإيضاع»[2] وروي في صفته ﷺ أنه كان إذا زال زال تقلعاً، ويخطو تكفؤاً، ويمشي هوناً، ذرِيع المِشية إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب. التقلع: رفع الرجل بقوّة. والتكفؤ: الميل إلى سنن المشي وقصده. والهون الرفق والوقار. والذريع الواسع الخطا؛ أي أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه؛ خلاف مِشية المختال، ويقصد سمته وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة. كما قال: كأنما ينحط من صَبَب؛ قاله القاضي عِياض. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسرع جِبْلَة لا تكلفا قال الزهريّ: سرعة المشي تذهب بهاء الوجه. قال ٱبن عطية: يريد الإسراع الحثيث لأنه يخل بالوقار؛ والخير في التوسط. وقال زيد بن أسلم: كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾ فما وجدت من ذلك شفاء، فرأيت في المنام من جاءني فقال لي: هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض. قال القشيريّ: وقيل: لا يمشون لإفساد ومعصية، بل في طاعة الله والأمور المباحة من غير هوك. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) راجع ٧/ ٣٢٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) الإيضاع: سير مثل الخبب.

كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. وقال ابن عباس: بالطاعة والمعروف والتواضع. الحسن: حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا. وقيل: لا يتكبرون على الناس.

قلت: وهذه كلها معانٍ متقاربة، ويجمعها العلم بالله والخوف منه، والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابه؛ جعلنا الله منهم بفضله ومنّه. وذهبت فرقة إلى أن ﴿هوناً﴾ مرتبط بقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ﴾ أن المشي هو هون. قال ابن عطية: ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبةً لمشيه، فيرجع القول إلى نحو ما بيناه. وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل؛ لأنه رُبَّ ماشٍ هوناً رويداً وهو ذئب أطلس[1]. وقد كان رسول الله ﷺ يتكفأ في مشيه كأنما يمشي في صبب. وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الأمّة. وقوله عليه الصلاة والسلام: «من مشى منكم في طمع فليمش رويداً» إنما أراد في عقد نفسه، ولم يرد المشي وحده. ألا ترى أن المبطلين المتحلين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط؛ حتى قال فيهم الشاعر[2] ذماً لهم:

كلُّهم يمشِي رُوَيْد ... كلُّهم يَطْلُبُ صَيْد

قلت: وفي عكسه أنشد ابن العربيّ لنفسه:

تواضعتُ في العلياء والأصل كابر ... وحزتُ قصابَ السبق بالهَوْن في الأمر

سكونٌ فلا خبث السريرة أصله ... وجلّ سكون الناس من عظم الكبر

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾ قال النحاس: ليس ﴿سَلاَماً﴾ من التسليم إنما هو من التسلُّم؛ تقول العرب: سلاماً، أي تَسلُّماً منك، أي براءة منك. منصوب على أحد أمرين: يجوز أن يكون منصوباً بـ ﴿قَالُوا﴾، ويجوز أن يكون مصدراً؛ وهذا قول سيبويه. قال ابن عطية: والذي أقوله: أن ﴿قَالُوا﴾ هو العامل في ﴿سَلاَماً﴾ لأن المعنى قالوا هذا اللفظ. وقال مجاهد: معنى ﴿سَلاَماً﴾ سَدَاداً. أي يقول للجاهل كلاماً

---

(١) الأطلس من الذئاب: هو الذي تساقط شعره، وهو أخبث ما يكون. وقيل: هو الذي في لونه غبرة إلى السواد.

(٢) هذا من كلام أبي جعفر المنصور الخليفة في مدح عمرو بن عبيد الزاهد المشهور. وتمامه:

غير عمرو بن عبيد

يدفعه به برفق ولين. فـ ﴿قَالُوا﴾ على هذا التأويل عامل في قوله: ﴿سَلَاماً﴾ على طريقة النحويين؛ وذلك أنه بمعنى قولاً. وقالت فرقة: ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل سلاماً؛ بهذا اللفظ أي سلمنا سلاماً أو تسليماً، ونحو هذا؛ فيكون العامل فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين.

مسألة - هذه الآية كانت قبل آية السيف، نسخ منها ما يخص الكفرة وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة. وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه، وما تكلم فيه على نسخ سواه؛ رجح به أن المراد السلامة لا التسليم؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة. والآية مكية فنسختها آية السيف. قال النحاس: ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى الناسخ والمنسوخ إلا في هذه الآية. قال سيبويه: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على معنى قوله: تَسلُّماً منكم، ولا خير ولا شر بيننا وبينكم. المبرد: كان ينبغي أن يقال: لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ثم أمِروا بحربهم. محمد بن يزيد: أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة. ٱبن العربيّ: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أنديتهم ويحييهم ويدانيهم، ولا يداهنهم. وقد ٱتفق الناس على أن السفيه من المؤمنين إذا جفاك يجوز أن تقول له سلام عليك.

قلت: هذا القول أشبه بدلائل السنة. وقد بينا في سورة ﴿مريم﴾[1] ٱختلاف العلماء في جواز التسليم على الكفار، فلا حاجة إلى دعوى النسخ؛ والله أعلم. وقد ذكر النضر بن شميل قال حدثني الخليل قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابيّ وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فلما سلمنا ردّ علينا السلام وقال لنا: ٱستووا. وبقينا متحيرين ولم ندر ما قال. فقال لنا أعرابيّ إلى جنبه: أمركم أن ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ فصعدنا إليه فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير، وماء نمير[2]؟ فقلنا الساعة فارقناه. فقال سلاماً. فلم ندر ما قال. قال فقال الأعرابيّ: إنه

---

(١) راجع ١١/ ١١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) الفطير: خلاف الخمير، وهو العجين الذي لم يختمر. والهجير: الفائق الفاضل. والنمير: الناجع في الري.

سألكم متاركة لا خير فيها ولا شر. فقال الخليل: هو من قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾. قال ابن عطية: ورأيت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهديّ ـ وكان من المائلين على عليّ بن أبـي طالب رضي الله عنه ـ قال يوماً بحضرة المأمون وعنده جماعة: كنت أرى عليّ بن أبـي طالب في النوم فكنت أقول له من أنت؟ فكان يقول: عليّ بن أبـي طالب. فكنت أجيء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمني في عبورها. فكنت أقول: إنما تدعي هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك. فما رأيت له في الجواب بلاغة كما يذكر عنه. قال المأمون: وبماذا جاوبك؟ قال: فكان يقول لي سلاماً. قال الراوي: فكأن إبراهيم بن المهديّ لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه في ذلك الوقت. فنبه المأمون على الآية من حضره وقال: هو والله يا عم عليّ بن أبـي طالب، وقد جاوبك بأبلغ جواب، فخزي إبراهيم واستحيا. وكانت رؤيا لا محالة صحيحة.

[٦٤] ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾ قال الزجاج: بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل، نام أو لم ينم. قال زهير(١):

فبتنا قياماً عند رأس جوادِنا … يزاولنا عن نفسه ونزاوله

وأنشدوا في صفة الأولياء:

امنع جفونك أن تذوق مناماً … وأذرِ الدموع على الخدود سِجاما
واعلم بأنك ميت ومحاسَبٌ … يا من على سخط الجليل أقاما
لله قوم أخلصوا في حبه … فرضِي بهم واختصهم خدّاما
قوم إذا جنّ الظلام عليهم … باتوا هنالك سجداً وقِياماً
خمص البطون من التعفف ضمّرا … لا يعرفون سوى الحلال طعاماً

(١) في نسخ الأصل: «قال امرؤ القيس». وهو تحريف. والبيت من قصيدة لزهير مطلعها:
صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله … وعرى أفراس الصبا ورواحله

وقال ٱبن عباس: من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً. وقال الكلبيّ: من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعاً بعد العشاء فقد بات ساجداً وقائماً.

[٦٥] ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

[٦٦] ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجِلون من عذاب الله. ٱبن عباس: يقولون ذلك في سجودهم وقيامهم. ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ أي لازماً دائماً غير مفارق. ومنه سمي الغريم لملازمته. ويقال: فلان مغرم بكذا أي لازم له مولع به. وهذا معناه في كلام العرب فيما ذكر ٱبن الأعرابيّ وٱبن عرفة وغيرهما. وقال الأعشى:

إن يعاقِب يكن غراماً وإن يعـ ـطِ جزيلاً فإنه لا يبالي

وقال الحسن: قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم. وقال الزجاج: الغرام أشد العذاب. وقال ٱبن زيد: الغرام الشر. وقال أبو عبيدة: الهلاك. والمعنى واحد. وقال محمد بن كعب: طالبهم الله تعالى بثمن النعيم في الدنيا فلم يأتوا به، فأغرمهم ثمنها بإدخالهم النار. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً﴾ أي بئس المستقر وبئس المقام. أي إنهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقرب إلى النجح.

[٦٧] ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ ٱختلف المفسرون في تأويل هذه الآية. فقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في معناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام.

وقال ٱبن عباس: من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف، ومن أنفق درهماً في غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر. وقاله مجاهد وٱبن زيد وغيرهما. وقال عون بن عبد الله: الإسراف أن تنفق مال غيرك. قال ٱبن عطية: وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية، والوجه أن يقال: إن النفقة في معصيةٍ أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيالاً ونحو هذا، وألا يضيق أيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرِط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام، أي العدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب، أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوساطها؛ ولهذا ترك رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق يتصدق بجميع ماله، لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك. ونعم ما قال إبراهيم النخعيّ: هو الذي لا يجيع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف. وقال يزيد بن أبي حبيب: هم الذين لا يلبسون الثياب لجمال، ولا يأكلون طعاماً للذة. وقال يزيد أيضاً في هذه الآية: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثياباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ عنهم الجوع ويقوّيهم على عبادة ربهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحرّ والبرد. وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوّجه ٱبنته فاطمة: ما نفقتك؟ فقال له عمر: الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية. وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا ٱشتراه فأكله. وفي سنن ٱبن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «إن من السرف أن تأكل كل ما ٱشتهيت» وقال أبو عبيدة: لم يزيدوا على المعروف ولم يبخلوا. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وقال الشاعر:

ولا تغل في شيءٍ من الأمر وٱقتصد ... كلا طَرَفَيْ قصد الأمور ذميمُ

وقال آخر:

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما اشتهتْ ولم يَنْهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذي دعته إليه من حلاوةِ عاجلِ

وقال عمر لابنه عاصم: يا بنيّ، كلْ في نصف بطنك؛ ولا تطرح ثوباً حتى تستخلقه، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم. ولحاتم طيّ:

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

﴿وَلَم يَقْتُرُوا﴾ قرأ حمزة والكسائيّ والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب على اختلاف عنهما ﴿يَقْتُرُوا﴾ بفتح الياء وضم التاء، وهي قراءة حسنة؛ من قتر يقترُ. وهذا القياس في اللازم، مثل قعد يقعد. وقرأ أبو عمرو بن العلاء وابن كثير بفتح الياء وكسر التاء، وهي لغة معروفة حسنة. وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الياء وكسر التاء. قال الثعلبيّ: كلها لغات صحيحة. النحاس: وتعجب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه؛ لأن أهل المدينة عنده لا يقع في قراءتهم الشاذ، إنما يقال: أقتر يقتر إذا افتقر، كما قال عز وجل: ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ وتأوّل أبو حاتم لهم أن المسرف يفتقر سريعاً. وهذا تأويل بعيد، ولكن التأويل لهم أن أبا عمر الجَرْميّ حكى عن الأصمعيّ أنه يقال للإنسان إذا ضيق: قتر يقتر ويقتِر، وأقتر يقتِر. فعلى هذا تصح القراءة، وإن كان فتح الياء أصح وأقرب تناولاً، وأشهر وأعرف. وقرأ أبو عمرو والناس ﴿قَوَاماً﴾ بفتح القاف؛ يعني عدلاً. وقرأ حسان بن عبد الرحمن ﴿قِوَاماً﴾ بكسر القاف؛ أي مبلغاً وسداداً ومِلاك حال. والقِوام بكسر القاف: ما يدوم عليه الأمر ويستقر. وهما لغتان بمعنى. و ﴿قَوَاماً﴾ خبر كان، واسمها مقدر فيها؛ أي كان الإنفاق بين الإسراف والقتر قواماً؛ قاله الفراء. وله قول آخر يجعل ﴿بَيْنَ﴾ اسم كان وينصبها؛ لأن هذه الألفاظ كثير استعمالها فتركت على حالها في موضع الرفع. قال النحاس: ما أدري ما وجه هذا؛ لأن «بينا» إذا كانت في موضع رفع رفعت؛ كما يقال: بَيْنُ عينيه أحمرُ.

[٦٨] ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ .

[٦٩] ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾ إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في عبادتهم الأوثان، وقتلهم النفس بوأد البنات، وغير ذلك من الظلم والاغتيال، والغارات، ومن الزنى الذي كان عندهم مباحاً. وقال من صرف هذه الآية عن ظاهرها من أهل المعاني: لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص، وذكرهم ووصفهم من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفيها عنهم لأنهم أعلى وأشرف، فقال: معناها لا يدعون الهوى إلهاً، ولا يذلون أنفسهم بالمعاصي فيكون قتلاً لها. ومعنى ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا بسكين الصبر وسيف المجاهدة فلا ينظرون إلى نساء ليست لهم بمحرم بشهوة فيكون سفاحاً؛ بل بالضرورة فيكون كالنكاح. قال شيخنا أبو العباس: وهذا كلام رائق غير أنه عند السبر مائق. وهي نبعة باطنية ونزعة باطلية. وإنما صح تشريف عباد الله بٱختصاص الإضافة بعد أن تحلوا بتلك الصفات الحميدة وتخلوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذميمة، فبدأ في صدر هذه الآيات بصفات التحلي تشريفاً لهم، ثم أعقبها بصفات التخلي تقعيداً لها؛ والله أعلم.

قلت: ومما يدل على بطلان ما ٱدعاه هذا القائل من أن تلك الأمور ليست على ظاهرها ما روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال قلت: يا رسول الله، أيّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعو لله نداً وهو خلقك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعَم معك» قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾. والأثام في كلام العرب العقاب، وبه قرأ ٱبن زيد وقتادة هذه الآية.

ومنه قول الشاعر:

جَزى الله ٱبن عُروة حيث أَمسى ... عُقُـوقـاً والعُقُـوقُ لـه أثـامُ

أي جزاء وعقوبة. وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد: إن ﴿أَثَاماً﴾ وادٍ في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة. قال الشاعر:

لقيـت المهـالـك فـي حـربنـا ... وبعـد المهـالـك تلقـى أثـامـاً

وقال السدي: جبل فيها. قال:

وكـان مُقـامُنـا نـدعـو عليهـم ... بـأبطَـح ذي المجـاز لـه أثـامُ

وفي «صحيح مسلم» أيضاً عن ٱبن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا؛ فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، وهو يخبرنا بأن لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿والَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾. ونزل: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية. وقد قيل: إن هذه الآية ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ نزلت في وحشِيّ قاتلِ حمزة؛ قاله سعيد بن جبير وٱبن عباس، وسيأتي في ﴿الزمر﴾ بيانه.

قوله تعالى: ﴿إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان؛ على ما تقدم بيانه في ﴿الأنعام﴾[1]. ﴿وَلاَ يَزْنُونَ﴾ فيستحلون الفروج بغير نكاح ولا مِلك يمين. ودلت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق ثم الزنى؛ ولهذا ثبت في حد الزنا القتل لمن كان محصناً أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ قرأ نافع وٱبن عامر وحمزة والكسائي ﴿يُضَاعَفْ. وَيَخْلُدْ﴾ جزماً. وقرأ ٱبن كثير ﴿يُضَعَّفْ﴾ بشد العين وطرح الألف؛ وبالجزم في ﴿يُضَعَّفْ. وَيَخْلُدْ﴾. وقرأ طلحة بن سليمان ﴿نُضَعِّفْ﴾ بضم النون وكسر العين المشدّدة. ﴿الْعَذَابَ﴾ نصب ﴿وَيَخْلُدْ﴾ جزم، وهي قراءة أبي جعفر وشيبة.

(١) راجع ٧/ ١٣٣ طبعة أولى أو ثانية.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿يُضَاعَفُ. وَيُخْلَدُ﴾ بالرفع فيهما على العطف والاستئناف. وقرأ طلحة بن سليمان ﴿وتَخْلُدْ﴾ بالتاء على معنى مخاطبة الكافر. وروي عن أبـي عمرو ﴿ويُخْلَدْ﴾ بضم الياء من تحت وفتح اللام. قال أبو علي: وهي غلط من جهة الرواية. و ﴿يُضَاعَفْ﴾ بالجزم بدل من ﴿يَلْقَ﴾ الذي هو جزاء الشرط. قال سيبويه: مضاعفة العذاب لُقِيُّ الأثام. قال الشاعر:

مَتَى تأتِنا تُلْمِمْ بنا في دِيارنا ... تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وناراً تَأَجَّجَا

وقال آخر:

إنّ علـيّ اللّـهَ أَنْ تُبـايِعَـا[1] ... تُؤْخَذَ كَرْهاً أو تَجِيءَ طائعَا

وأما الرفع ففيه قولان: أحدهما أن تقطعه مما قبله. والآخر أن يكون محمولاً على المعنى؛ كأن قائلاً قال: ما لُقِيّ الأثام؟ فقيل له: يضاعف له العذاب. و ﴿مُهَاناً﴾ معناه ذليلاً خاسئاً مبعَداً مطروداً.

[٧٠] ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾ لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل في الكافر والزاني. وٱختلفوا في القاتل من المسلمين على ما تقدم بيانه في ﴿النساء﴾[2] ومضى في ﴿المائدة﴾[3] القول في جواز التراخي في الاستثناء في اليمين، وهو مذهب ٱبن عباس مستدلاً بهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال النحاس: من أحسن ما قيل فيه أنه يكتب موضع كافرٍ مؤمنٌ، وموضع عاصٍ مطيع. وقال مجاهد والضحاك: أن يبدلهم

---

(١) الشاهد في حمل تؤخذ على تبايع وإبداله منه. وأراد بقوله: «الله» القسم، والمعنى إن على والله فلما حذف الجار نصب.

(٢) راجع ٥/ ٣٣٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ٦/ ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية.

الله من الشرك الإيمان وروي نحوه عن الحسن. قال الحسن: قوم يقولون التبديل في الآخرة، وليس كذلك، إنما التبديل في الدنيا؛ يبدلهم الله إيماناً من الشرك، وإخلاصاً من الشك، وإحصاناً من الفجور. وقال الزجاج: ليس بجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن بجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة. وروى أبو ذرٍّ عن النبي ﷺ: «أن السيئات تبدّل بحسنات». وروي معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرِهما. وقال أبو هريرة: ذلك في الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته، فيبدل الله السيئات حسنات. وفي الخبر: «ليَتمنينَّ أقوام أنهم أكثروا من السيئات» فقيل: ومن هم؟ قال: «الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات». رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ؛ ذكره الثعلبي والقشيرِيّ. وقيل: التبديل عبارة عن الغفران؛ أي يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبدّلها حسنات.

قلت: فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة؛ وقد قال ﷺ لمعاذ: «أتبع السيئةَ الحسنة تمحها وخالِق الناس بخلق حسن». وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذرٍّ قال قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخِر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخِرَ أهل النار خروجاً منها رجلٌ يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرِضوا عليه صِغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عمِلت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفِق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئةٍ حسنة فيقول يا رب قد عملتُ أشياء لا أراها هاهنا» فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه. وقال أبو طَويل[1]: يا رسول الله، أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يترك حاجّة ولا داجّة إلا اقتطعها فهل له من توبة؟ قال: «هل أسلمت» قال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك عبد الله ورسوله. قال: «نعم.

(١) أبو طويل: كنية شطب الممدود، رجل من كندة.

تفعل الخيـرات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات». قال: وغدراتي وفجراتي يا نبيّ الله قال: «نعم». قال: الله أكبر! فما زال يكررها حتى توارى. ذكره الثعلبي. قال مبشر بن عبيد، وكان عالماً بالنحو والعربية: الحاجّة التي تقطع على الحاج إذا توجهوا. والداجة التي تقطع عليهم إذا قفلوا. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

[٧١] ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ لا يقال: من قام فإنه يقوم؛ فكيف قال من تاب فإنه يتوب؟ فقال ابن عباس: المعنى من آمن من أهل مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحاً وأدّى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متاباً؛ أي فإني قدّمتهم وفضلتهم على من قاتل النبيّ ﷺ واستحل المحارم. وقال القفّال: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملاً صالحاً فله حكم التائبين أيضاً. وقيل: أي من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله، فليست تلك التوبة نافعة؛ بل من تاب وعمل صالحاً فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متاباً؛ أي تاب حق التوبة وهي النصوح، ولذا أكد بالمصدر. فـ ﴿متاباً﴾ مصدر معناه التأكيد؛ كقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ أي فإنه يتوب إلى الله حقاً فيقبل الله توبته حقاً.

[٧٢] ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي لا يحضُرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه. والزور كل باطل زُوِّر وزُخرِف، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد. وبه فسر الضحاك وابن زيد وابن عباس. وفي رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين. عِكرمة: لعبٌ

كان في الجاهلية يسمى بالزور. مجاهد: الغناء؛ وقاله محمد بن الحنفية أيضاً. ابن جُريج: الكذب؛ وروي عن مجاهد. وقال عليّ بن أبي طلحة ومحمد بن عليّ: المعنى لا يشهدون بالزور؛ من الشهادة لا من المشاهدة. قال ابن العربي: أما القول بأنه الكذب فصحيح، لأن كل ذلك إلى الكذب يرجع. وأما من قال إنه لعِبٌ كان في الجاهلية فإنه يحرم ذلك إذا كان فيه قمار أو جهالة، أو أمر يعود إلى الكفر. وأما القول بأنه الغناء فليس ينتهي إلى هذا الحد.

قلت: من الغناء ما ينتهي سماعه إلى التحريم، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال، أو يثير كامناً من حب اللهو؛ مثل قول بعضهم:

ذهبيّ اللون تحسب من ... وجنتيه النار تُقتدَحُ
خوّفوني من فضيحته ... ليته وافى وأفتضِحُ

لا سيما إذا اقترن بذلك شَبّابات[١] وطارات مثل ما يفعل اليوم في هذه الأزمان، على ما بيناه في غير هذا الموضع. وأما من قال إنه شهادة الزور، وهي:

الثانية ـ فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخّم وجهه، ويحلق رأسه، ويطوف به في السوق. وقال أكثر أهل العلم: ولا تقبل له شهادة أبداً وإن تاب وحسنت حاله فأمره إلى الله. وقد قيل: إنه إذا كان غير مبرَّز فحسنت حاله قبلت شهادته حسبما تقدّم بيانه في سورة ﴿الحج﴾[٢] فتأمله هناك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ قد تقدّم الكلام في اللغو[٣]. وهو كل سقط من قول أو فعل؛ فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه، ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر. وقال مجاهد: إذا أوذوا صفحوا. وروي عنه إذا ذكر النكاح كفُّوا عنه. وقال الحسن: اللغو المعاصي كلها. وهذا جامع. و ﴿كِراماً﴾ معناه معرضين منكرين لا يرضَونه، ولا يمالؤون عليه، ولا يجالسون أهله.

---

(١) الشبابة (بالتشديد): نوع من المزمار (مولد). (٢) راجع ١٢/ ٥٥ طبعة أولى أو ثانية.
(٣) راجع ٣/ ٩٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

أي مروا مر الكرام الذين لا يدخلون في الباطل. يقال: تكرم فلان عما يشينه؛ أي تنزه وأكرم نفسه عنه. وروي أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «لقد أصبح ابن أمّ عبدٍ كريماً». وقيل: من المرور باللغو كريماً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

[٧٣] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي إذا قرىء عليهم القرآن ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع. وقال: ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ وليس ثَمَّ خرور؛ كما يقال: قعد يبكي وإن كان غير قاعد؛ قاله الطبريّ واختاره؛ قال ابن عطية: وهو أنْ يخروا صماً وعمياناً هي صفة الكفار، وهي عبارة عن إعراضهم؛ وقرن ذلك بقولك: قعد فلان يشتمني وقام فلان يبكي وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام، وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة. قال ابن عطية: فكأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر، فإذا أعرض وضل كان ذلك خروراً، وهو السقوط على غير نظام وترتيب؛ وإن كان قد شبه به الذي يخر ساجداً لكن أصله على غير ترتيب. وقيل: أي إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم فخروا سجداً وبكيا، ولم يخروا عليها صماً وعمياناً. وقال الفراء: أي لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا.

الثانية ـ قال بعضهم: إن من سمع رجلاً يقرأ سجدة يسجد معه؛ لأنه قد سمع آيات الله تتلى عليه. قال ابن العربيّ: وهذا لا يلزم إلا القارىء وحده، وأما غيره فلا يلزمه ذلك إلا في مسألة واحدة؛ وهو أن الرجل إذا تلا القرآن وقرأ السجدة فإن كان الذي جلس معه جلس يسمعه فليسجد معه، وإن لم يلتزم السماع فلا سجود عليه. وقد مضى هذا في ﴿الأعراف﴾[1].

(١) راجع ٧/ ٣٥٩ طبعة أولى أو ثانية.

[٧٤] ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

[٧٥] ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

[٧٦] ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

[٧٧] ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال الضحاك: أي مطيعين لك. وفيه جواز الدعاء بالولد وقد تقدّم[١]. والذرّية تكون واحداً وجمعاً. فكونها للواحد قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ وكونها للجمع ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾ وقد مضى في ﴿البقرة﴾[٢] اشتقاقها مستوفى. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والحسن ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائيّ وطلحة وعيسى ﴿وذريتنا﴾ بالإفراد. ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ نصب على المفعول، أي قرّة أعين لنا. وهذا نحو قوله عليه الصلاة والسلام لأنس: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه» وقد تقدّم بيانه في ﴿آل عمران﴾[٣] و ﴿مريم﴾. وذلك أن الإنسان إذا بورك له في ماله وولده قرّت عينه بأهله وعياله، حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرّية محافظون على الطاعة، معاونون له على وظائف الدين والدنيا، لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده، فتسكن عينه عن الملاحظة، ولا تمتد عينه إلى ما ترى؛ فذلك حين قرّة العين، وسكون النفس. ووحد ﴿قُرَّة﴾ لأنه مصدر؛ تقول: قرّت عينك قُرّة. وقُرّة العين يحتمل أن تكون من القرار، ويحتمل أن تكون من القُرّ وهو الأشهر. والقُرّ البرد؛ لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح إلى البرد. وأيضاً فإن دمع السرور بارد، ودمع الحزن سخن، فمن هذا يقال: أقر الله عينك، وأسخن الله عين العدو. وقال الشاعر:

فكم سَخِنتْ بالأمس عينٌ قرِيرةٌ ... وقَرّت عيونٌ دمعُها اليومَ ساكبُ

---

(١) راجع ٤/ ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ٢/ ١٠٧ طبعة ثانية.
(٣) راجع ٤/ ٧٣ و ١١/ ٨٠ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي قدوة يقتدى بنا في الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقياً قدوة؛ وهذا هو قصد الداعي. وفي «الموطأ»: «إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم» فكان ٱبن عمر يقول في دعائه: اللهم ٱجعلنا من أئمة المتقين. وقال: ﴿إِمَاماً﴾ ولم يقل أئمة على الجمع؛ لأن الإمام مصدر. يقال: أمّ القومَ فلانٌ إمَاماً؛ مثل الصيام والقيام. وقال بعضهم: أراد أئمة، كما يقول القائل أميرنا هؤلاء، يعني أمراءنا. وقال الشاعر:

يـا عـاذلاتـي لا تَـزِدْنَ مَـلاَمَتـي ... إنّ العــواذل لَسْــنَ لِــي بــأميــرِ

أي أمراء. وكان القشيري أبو القاسم شيخ الصوفية يقول: الإمامة بالدعاء لا بالدعوى، يعني بتوفيق الله وتيسيره ومنته لا بما يدّعيه كل أحد لنفسه. وقال إبراهيم النَّخعيّ: لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة في الدين. وقال ابن عباس: ٱجعلنا أئمة هدى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنهُمْ أَئِمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وقال مكحول: ٱجعلنا أئمة في التقوى يقتدي بنا المتقون. وقيل: هذا من المقلوب؛ مجازه: وٱجعل المتقين لنا إماماً؛ وقاله مجاهد. والقول الأوّل أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول، ويكون فيه دليل على أن طلب الرياسة في الدين ندب. وإمام واحد يدل على جمع؛ لأنه مصدر كالقيام. قال الأخفش: الإمام جمع آمّ من أمّ يؤمّ جمع على فِعال، نحو صاحب وصِحاب، وقائم وقِيام.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ ﴿أولئك﴾ خبر و ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ في قول الزجاج على ما تقدّم، وهو أحسن ما قيل فيه. وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلّي والتخلي؛ وهي إحدى عشرة: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله. و ﴿الغرفة﴾ الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا، حكاه ٱبن شجرة. وقال الضحاك: الغرفة الجنة. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بصبرهم على أمر ربهم، وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام. وقال محمد بن علي بن الحسين: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الفقر والفاقة في الدنيا. وقال الضحاك: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عن الشهوات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيى

وحمزة والكسائي وخلف ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾ مخففة، وآختاره الفراء؛ قال لأن العرب تقول: فلان يُتلقى بالسلام وبالتحية وبالخير (بالتاء)، وقلما يقولون فلان يُلقى السلامة. وقرأ الباقون ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ قال أبو جعفر النحاس: وما ذهب إليه الفراء وآختاره غلط؛ لأنه يزعم أنها لو كانت ﴿يُلَقَّوْنَ﴾ كانت في العربية بتحية وسلام، وقال كما يقال: فلان يُتلقى بالسلام وبالخير؛ فمن عجيب ما في هذا الباب أنه قال يتلقى والآية ﴿يُلَقَّوْنَ﴾ والفرق بينهما بيّن؛ لأنه يقال فلان يتلقى بالخير ولا يجوز حذف (الباء)، فكيف يشبه هذا ذاك! وأعجب من هذا أن في القرآن ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ ولا يجوز أن يقرأ بغيره. وهذا يبين أن الأولى على خلاف ما قال. والتحية من الله والسلام من الملائكة. وقيل: التحية البقاء الدائم والملك العظيم؛ والأظهر أنهما بمعنى واحد، وأنهما من قبل الله تعالى؛ دليله قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ﴾ وسيأتي. ﴿خَالِدِينَ﴾ نصب على الحال ﴿فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾ هذه آية مشكلة تعلقت بها الملحدة. يقال: ما عبأت بفلان أي ما باليت به؛ أي ما كان له عندي وزن ولا قدر. وأصل يعبأ من العِبء وهو الثقل. وقول الشاعر(1):

كـأن بصـدره وبجـانبيـه عَبِيـراً بـاتَ يَعْبَـؤُهُ عَـروسُ

أي يجعل بعضه على بعض. فالعبء الحمل الثقيل، والجمع أعباء. والعبء المصدر. وما آستفهامية؛ ظهر في أثناء كلام الزجاج، وصرح به الفراء. وليس يبعد أن تكون نافية؛ لأنك إذا حكمت بأنها آستفهام فهو نفي خرج مخرج الاستفهام؛ كما قال تعالى : ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ﴾ قال ابن الشجري: وحقيقة القول عندي أن موضع ﴿ما﴾ نصب؛ والتقدير: أيّ عِبء يعبأ بكم؛ أي أيّ مبالاة يبالي ربي بكم لولا دعاؤكم؛ أي لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه، فالمصدر الذي هو الدعاء على هذا القول مضاف إلى مفعوله؛ وهو آختيار

---

(١) هو أبو زبيد يصف أسداً، كما في «اللسان» مادة «عبأ». ورواه هكذا:

كـأن بنحـره وبمنكبيـه عبيـراً بـات يعبـؤه عـروس

الفراء. وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ﴾ تقديره: لم يعبأ بكم. ودليل هذا القول قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ فالخطاب لجميع الناس؛ فكأنه قال لقريش منهم: أي ما يبالي الله بكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت؛ وذلك الذي يعبأ بالبشر من أجله. ويؤيد هذا قراءة ابن الزبير وغيره ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الكَافِرُونَ﴾ فالخطاب بما يعبأ لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه فسوف يكون التكذيب هو سبب العذاب لزاماً. وقال النقاش وغيره: المعنى؛ لولا استغاثتكم إليه في الشدائد ونحو ذلك. بيانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ ونحو هذا. وقيل: ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ﴾ أي بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم ﴿لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ معه الآلهة والشركاء. بيانه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾؛ قاله الضحاك. وقال الوليد بن أبي الوليد: بلغني فيها أي ما خلقتكم ولي حاجة إليكم إلا تسألوني فأغفر لكم وأعطيكم. وروى وهب بن مُنَبِّه أنه كان في التوراة «يا بن آدم وعزتي ما خلقتك لأربحَ عليك إنما خلقتك لتربحَ عليّ فاتخذني بدلاً من كل شيء فأنا خير لك من كل شيء». قال ابن جني قرأ ابن الزبير وابن عباس ﴿ فَقَد كَذَّبَ الْكَافِرُونَ ﴾. قال الزهراوي والنحاس: وهي قراءة ابن مسعود وهي على التفسير؛ للتاء والميم في ﴿ كذبتم ﴾. وذهب القتبي والفارسي إلى أن الدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف، الأصل لولا دعاؤكم آلهة من دونه، وجواب ﴿ لولا ﴾ محذوف تقديره في هذا الوجه: لم يعذبكم. ونظير قوله: لولا دعاؤكم آلهة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾. ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي كذبتم بما دعِيتم إليه؛ هذا على القول الأول؛ وكذبتم بتوحيد الله على الثاني. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ أي يكون تكذيبكم ملازماً لكم. والمعنى: فسوف يكون جزاء التكذيب كما قال: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ أي جزاء ما عملوا وقوله: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي جزاء ما كنتم تكفرون. وحسن إضمار التكذيب لتقدّم ذكر فعله؛ لأنك إذا ذكرت الفعل دل بلفظه على مصدره، كما قال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ أي لكان الإيمان. وقوله: ﴿وإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي يرضى الشكر. ومثله كثير. وجمهور المفسرين

على أن المراد باللزام هنا ما نزل بهم يوم بدر، وهو قول عبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب وأبي مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم. وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله: وقد مضت البطشة والدخان واللزام. وسيأتي مبيناً في سورة ﴿الدخان﴾ إن شاء الله تعالى. وقالت فرقة: هو توعد بعذاب الآخرة. وعن ابن مسعود أيضاً: اللزام التكذيب نفسه؛ أي لا يُعطَون التوبة منه؛ ذكره الزهراوي؛ فدخل في هذا يوم بدر وغيره من العذاب الذي يُلزَمونه. وقال أبو عبيدة: لزاماً فيصلا [أي] فسوف يكون فيصلاً بينكم وبين المؤمنين. والجمهور من القراء على كسر اللام؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر:

فإمّا يَنْجُوا من خَسْفِ أرضٍ فقد لَقِيا حُتُوفَهما لِزاما

ولزاماً وملازمة واحد. وقال الطبري: ﴿لزاماً﴾ يعني عذاباً دائماً لازماً، وهلاكاً مفنياً يلحق بعضكم ببعض؛ كقول أبي ذؤيب:

ففاجأه بعاديةٍ[1] لزامٍ كما يَتَفَجَّرُ الحوضُ اللَّقِيفُ

يعني باللزام الذي يتبع بعضه بعضاً، وباللقيف المتساقط الحجارة المتهدم. النحاس: وحكى أبو حاتم عن أبي زيد قال سمعت قَعْنَبا أبا السَّمّال يقرأ ﴿لَزاماً﴾ بفتح اللام. قال أبو جعفر: يكون مصدر لَزم والكسر أولى، يكون مثل قتال ومقاتلة، كما أجمعوا على الكسر في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾. قال غيره: اللِّزام بالكسر مصدر لازم لِزَاماً مثل خاصم خصاماً، واللَّزام بالفتح مصدر لَزِمَ مثل سَلِم سلاماً أي سلامة؛ فاللَّزام بالفتح اللّزوم، واللِّزام الملازمة، والمصدر في القراءتين وقع موقع اسم الفاعل، فاللِّزام وقع موقع ملازِم، واللَّزام وقع موقع لازِم. كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً﴾ أي غائر. قال النحاس: وللفراء قول في اسم يكون؛ قال: يكون مجهولاً وهذا غلط؛ لأن المجهول لا يكون خبره إلا جملة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ وكما حكى النحويون كان زيد منطلق ويكون المبتدأ وخبره خبر المجهول، والتقدير: كان الحديث؛ فأما أن يقال كان منطلقاً، ويكون في كان مجهول فلا يجوز عند أحد علمناه. وبالله التوفيق وهو المستعان والحمد لله رب العالمين.

---

(١) العادية: القوم يعدون على أرجلهم؛ أي فحملتهم لزام كأنهم لزموه لا يفارقون ما هم فيه. وشبه نحملتهم بتهدم الحوض إذا تهدم. ويروى:

فلم يرَ غير عادية لزاما

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشعراء

هي مكية في قول الجمهور. وقال مقاتل: منها مدنيّ؛ الآية التي يذكر فيها الشعراء، وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وقال ابن عباس وقتادة: مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخرها. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. وفي رواية: ست وعشرون. وعن ابن عباس قال النبيّ ﷺ: «أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأوّل وأعطيت طه وطسم من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصَّل نافلة». وعن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المبين مكان الإنجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصَّل ما قرأهن نبيّ قبلي».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿طسٓمٓ ①﴾.

[٢] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾.

[٣] ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ③﴾.

[٤] ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ④﴾.

[٥] ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ⑤﴾.

[٦] ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑥﴾.

[٧] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦﴾.

[٨] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ⑧﴾.

[٩] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑨﴾.

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائي وخلف بإمالة الطاء مشبعاً في هذه السورة وفي أختيها. وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهري بين اللفظين؛ وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وقرأ الباقون بالفتح مشبعاً. قال الثعلبي؛ وهي كلها لغات فصيحة. وقد مضى في ﴿طه﴾[1] قول النحاس في هذا. قال النحاس: وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي ﴿طسٓمٓ﴾ بإدغام النون في الميم، والفراء يقول بإخفاء النون. وقرأ الأعمش وحمزة ﴿طسين ميم﴾ بإظهار النون. قال النحاس: النون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه: يبيّنان عند حروف الحلق، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء، ويقلبان ميماً عند الباء ويكونان من الخياشيم؛ أي لا يبينان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصها سيبويه لا تجوز هذه القراءة؛ لأنه ليس هاهنا حرف من حروف الحلق فتبيّن النون عنده، ولكن في ذلك وُجَيْه: وهو أن حروف المعجم حكمها أن يوقف عليها، فإذا وقف عليها تبينت النون. قال الثعلبي: الإدغام ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم قياساً على كل القرآن، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف الفم. قال النحاس: وحكى أبو إسحاق في كتابه «فيما يجري وفيما لا يجري» أنه يجوز أن يقال ﴿طسينَ ميمُ﴾ بفتح النون وضم الميم، كما يقال هذا معدي كربُ. وقال أبو حاتم: قرأ خالد ﴿طسينَ ميمُ﴾. ٱبن عباس: ﴿طسم﴾ قَسَم وهو ٱسم من أسماء الله تعالى، والمقسم عليه ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾. وقال قتادة: ٱسم من أسماء القرآن أقسم الله به. مجاهد: هو ٱسم السورة؛ ويحسن افتتاح السورة. الربيع: حساب مدّة قوم. وقيل: قارعة تحل بقوم. ﴿طسٓمٓ﴾ و ﴿طسٓ﴾ واحد. قال[2]:

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ   بأن تُسعِدَا والدَّمعُ أَشْفَاهُ ساجِمهْ

---

(١) راجع ١١/١٦٨ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) هو المتنبي؛ والبيت مطلع قصيدة له مدح بها أبا الحسن علي بن عبد الله العدوي. وأشجاه: أحزنه. والطاسم: الدارس. والساجم: السائل. والمعنى: طلب وفاءهما بالإسعاد وهو الإعانة على البكاء والموافقة، ولذلك قال: (والدمع أشفاه ساجمه) والمعنى أبكيا معي بدمع في غاية السجوم فهو أشفى للوجد، فإن الربع في غاية الطسوم وهو أشجى للمحب. وأراد بالوفاء هنا البكاء لأنهما عاهداه على الإسعاد. «شرح التبيان جـ ٢ للعكبري».

وقال القرظي: أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه. وقال عبد الله بن محمد بن عَقِيل: الطاء طورسيناء والسين إسكندرية والميم مكة. وقال جعفر بن محمد بن عليّ: الطاء شجرة طُوبى، والسين سِدرة المنتهى، والميم محمد ﷺ. وقيل: الطاء من الطاهر والسين من القدوس ـ وقيل من السميع وقيل من السلام ـ والميم من المجيد. وقيل: من الرحيم. وقيل: من الملك. وقد مضى هذا المعنى في أول سورة ﴿البقرة﴾[١]. والطَّواسيمُ والطَّواسينُ سور في القرآن جُمعت على غير قياس. وأنشد أبو عبيدة:

وبـالطَّـواسِيـم التـي قـد ثُلِّـثـت وبـالحـوامِيـمِ التـي قـد سُبِّعـتْ

قال الجوهري: والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد، فيقال: ذواتُ طسم وذواتُ حم.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ رفع على إضمار مبتدأ أي هذه ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ التي كنتم وعدتم بها؛ لأنهم قد وعدوا في التوراة والإنجيل بإنزال القرآن. وقيل: ﴿تلك﴾ بمعنى هذه. ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ أي قاتل نفسك ومهلكها. وقد مضى في ﴿الكهف﴾[٢] بيانه. ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لتركهم الإيمان. قال الفراء: ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب؛ لأنها جزاء. قال النحاس: وإنما يقال: بإن مكسورة لأنها جزاء؛ كذا المتعارف. والقول في هذا ما قاله أبو إسحاق في كتابه في القرآن؛ قال: «أَنْ» في موضع نصب مفعول من أجله؛ والمعنى لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان. ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ أي معجزة ظاهرة وقدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية، ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية. وقال أبو حمزة الثماليّ في هذه الآية: صوت يسمع من السماء في النصف من شهر رمضان؛ تخرج به العواتق من البيوت وتضج له الأرض. وهذا فيه بعد؛ لأن المراد قريش لا غيرهم. ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ أي فتظل أعناقهم ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾ قال مجاهد: أعناقهم كبراؤهم؛ وقال النحاس: ومعروف في اللغة؛ يقال: جاءني عُنُق من الناس أي رؤساء منهم. أبو زيد والأخفش: ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾ جماعاتهم؛

---

(١) راجع ١/ ١٥٤ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) راجع ١٠/ ٣٤٨ طبعة أولى أو ثانية.

يقال: جاءني عُنُق من الناس أي جماعة. وقيل: إنما أراد أصحاب الأعناق، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. قتادة: المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية. ابن عباس: نزلت فينا وفي بني أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد معاوية؛ ذكره الثعلبي والغزنوي. وخاضعين وخاضعة هنا سواء؛ قاله عيسى بن عمر وآختاره المبرد. والمعنى: إنهم إذا ذلّت رقابهم ذلّوا؛ فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها. ويسوغ في كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتخبر عن الثاني؛ قال الراجز:

طولُ الليالي أسرعتْ في نَقْضي ... طَوَينَ طُولِي وطَوَيْنَ عَرْضِي

فأخبر عن الليالي وترك الطول. وقال جرير[1]:

أَرَى مَرَّ السِّنينِ أَخَذْنَ منّي ... كما أَخَذَ السِّرارُ من الهِلالِ

وإنما أجاز ذلك لأنه لو أسقط مرّ وطول من الكلام لم يفسد معناه، فكذلك رد الفعل إلى الكناية في قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام، ولأدّى ما بقي من الكلام عنه حتى يقول: فظلوا لها خاضعين. وعلى هذا اعتمد الفراء وأبو عبيدة. والكسائي يذهب إلى أن المعنى خاضعيها هم، وهذا خطأ عند البصريين والفراء. ومثل هذا الحذف لا يقع في شيء من الكلام؛ قاله النحاس.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ تقدّم في ﴿الأنبياء﴾[2]. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي أعرضوا ومن أعرض عن شيء ولم يقبله فهو تكذيب له. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وعيد لهم؛ أي فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا والذي آستهزءوا به.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نبه على عظمته وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذي يستحق أن يعبد؛ إذ هو القادر على كل شيء. والزوج هو اللون؛ قاله الفراء. و ﴿كريم﴾ حسن شريف، وأصل

---

(١) تقدّم البيت في ٧/ ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ١١/ ٢٦٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

الكرم في اللغة الشرف والفضل، فنخلة كريمة أي فاضلة كثيرة الثمر[١]، ورجل كريم شريف فاضل صفوح. ونبتت الأرض وأنبتت بمعنى. وقد تقدّم في سورة ﴿البقرة﴾. والله سبحانه المخرج والمنبت له. وروي عن الشعبي أنه قال: الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فهو لئيم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالته على أن الله قادر، لا يعجزه شيء. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين لما سبق من علمي فيهم. و ﴿كان﴾ هنا صلة في قول سيبويه؛ تقديره: وما أكثرهم مؤمنين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

[١٠] ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

[١١] ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ ﴿إذ﴾ في موضع نصب؛ المعنى: واتل عليهم ﴿إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ ويدل على هذا أنّ بعده ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ ذكره النحاس. وقيل: المعنى؛ واذكر إذ نادى كما صرح به في قوله: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ وقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾. وقيل: المعنى؛ ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ كان كذا وكذا. والنداء الدعاء بيا فلان، أي قال ربك يا موسى ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ثم أخبر من هم فقال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فـ ﴿قومَ﴾ بدل؛ ومعنى ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ألا يخافون عقاب الله؟ وقيل هذا من الإيماء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين، ودل قوله: ﴿يتقون﴾ على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى. وقيل: المعنى؛ قل لهم ﴿أَلَا تَتَّقُون﴾ وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب، ولو جاء بالتاء

(١) في نسخة: كثيرة التثمير.

لجاز. ومثله ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ بالتاء والياء. وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾. بتاءين أي قل لهم ﴿ألا تتقون﴾ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي قال موسى ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي في الرسالة والنبوة. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ لتكذيبهم إياي. وقراءة العامة ﴿وَيَضِيقُ﴾ ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ﴾ بالرفع على الاستئناف. وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة ﴿ويَضِيقَ - وَلَا يَنْطَلِقَ﴾ بالنصب فيهما ردّا على قوله: ﴿أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ قال الكسائي: القراءة بالرفع؛ يعني في ﴿يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسانِي﴾ يعني نسقا على ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾. قال الفراء: ويقرأ بالنصب. حكي ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى بن عمر وكلاهما له وجه. قال النحاس: الوجه الرفع؛ لأن النصب عطف على ﴿يُكَذِّبونِ﴾ وهذا بعيد يدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ فهذا يدل على أن هذه كذا. ومعنى ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ في المحاجة على ما أحب؛ وكان في لسانه عُقْدة على ما تقدّم في ﴿طه﴾[1]. ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَـٰرُونَ﴾ أرسل إليه جبريل بالوحي، واجعله رسولاً معي ليؤازرني ويظاهرني ويعاونني. ولم يذكر هنا ليعينني؛ لأن المعنى كان معلوماً، وقد صرح به في سورة ﴿طه﴾: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً﴾ وفي القصص: ﴿أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي﴾ وكأن موسى أُذن له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه، ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر، ويخاف من نفسه تقصيراً، أن يأخذ من يستعين به عليه، ولا يلحقه في ذلك لوم. ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ الذنب هنا قتل القبطي واسمه فاثور على ما يأتي في ﴿القصص﴾ بيانه، وقد مضى في ﴿طه﴾ ذكره. وخاف موسى أن يقتلوه به، ودل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو؛ إذ قد يسلط من شاء على من شاء. ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أى كلا لن يقتلوك. فهو ردع وزجر عن هذا الظن، وأمر بالثقة بالله تعالى؛ أي ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم؛ فإنهم لا يقدرون على قتلك،

---

(١) راجع ١١/١٩٢ طبعة أولى أو ثانية.

ولا يقوون عليه. ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي أنت وأخوك فقد جعلته رسولاً معك. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي ببراهيننا وبالمعجزات. وقيل: أي مع آياتنا. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يريد نفسه سبحانه وتعالى. ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ أي سامعون ما يقولون وما يجاوبون. وإنما أراد بذلك تقوية قلبيهما وأنه يعينهما ويحفظهما. والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يوصف الباري سبحانه بذلك. وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير. وقال في ﴿طه﴾: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ وقال: ﴿مَعَكُمْ﴾ فأجراهما مجرى الجمع؛ لأن الاثنين جماعة. ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلا إليه. ويجوز أن يكون لجميع بني إسرائيل.

[١٦] ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا؛ إنا ذوو رسالة رب العالمين. قال الهُذَليّ:

أَلِكْنِي إليها وخَيرُ الرَّسُو ... لِ أَعلَمُهُمْ بنَواحِي الخَبر

ألكني إليها معناه أرسلني. وقال آخر[1]:

لقد كَذَبَ الواشون ما بُحْتُ عندهم ... بِسِرٍّ ولا أَرسلتُهم برسولِ

---

(١) هو كثير. ويروى أيضاً في اللسان مادة «رسل»:

بليلي ولا أرسلتهم برسيل

آخر[1]:

أَلاَ أَبْلِـغْ بنـي عمـرو رسـولاً بـأنّـي عـن فُتَـاحَتِكـمْ غنـيُّ[1]

وقال العباس بن مرادس:

أَلاَ مَـن مُبلِـغٌ عنّـي خُفَـافـاً رسـولاً بيـتُ أهلِـك مُنْتَهـاهـا

يعني رسالة فلذلك أنثها. قال أبو عبيد: ويجوز أن يكون الرسول في معنى الاثنين والجمع؛ فتقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾. وقيل: معناه إن كل واحد منَّا رسول رب العالمين. ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم؛ وكان فرعون أستعبدهم أربعمائة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا. فأنطلقا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البوّاب على فرعون فقال: هاهنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين. فقال فرعون: آيذن له لعلنا نضحك منه؛ فدخلا عليه وأديا الرسالة. وروى وهب وغيره: أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعا من أسد ونمور وفهودٍ يتفرج عليها، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهٰرون، فأسرعوا إليها، وأسرعت السباع إلى موسى وهٰرون، فأقبلت تلحس أقدامهما، وتبصبص إليهما بأذنابها، وتلصق خدودها بفخذيهما، فعجب فرعون من ذلك فقال: ما أنتما؟ قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فعرف موسى لأنه نشأ في بيته؛ فـ ﴿قَالَ أَلَمْ نرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾ على جهة المنّ عليه والاحتقار. أي ربيناك صغيراً ولم نقتلك من جملة من قتلنا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه. ثم قرره بقتل القبطي بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فعلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ والفَعْلة بفتح الفاء المرة من الفعل. وقرأ الشعبي ﴿فعلتك﴾ بكسر الفاء والفتح أولى؛ لأنها المرة الواحدة، والكسر بمعنى الهيئة والحال، أي فعلتك التي تعرف فكيف تَدَّعِي مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك. وقال الشاعر:

كـأنّ مِشيتَهـا مِـن بيـت جـارتِهـا مرُّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

(١) هو الأسعر الجعفيّ. عن فتاحتكم: أي عن حكمكم.

ويقال: كان ذلك أيام الرِّدة والرُّدة. ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال الضحاك: أي في قتلك القبطي إذ هو نفس لا يحل قتله. وقيل: أي بنعمتي التي كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك؛ قاله ابن زيد. الحسن: ﴿مِن الكافِرين﴾ في أني إلهك. السدي: ﴿مِن الكافِرين﴾ بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذي تعيبه. وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه نبيا أحد عشر عاماً غير أشهر. فـ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً﴾ أي فعلت تلك الفعلة يريد قتل القبطي ﴿وَأَنَا﴾ إذ ذاك ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين؛ فنفى عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل. وكذا قال مجاهد ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من الجاهلين. ابن زيد: من الجاهلين بأن الوكزة تبلغ القتل. وفي مصحف عبد الله ﴿مِن الجاهِلِين﴾ ويقال لمن جهل شيئاً ضل عنه. وقيل: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من الناسين؛ قاله أبو عبيدة. وقيل: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن النبوّة ولم يأتني عن الله فيه شيء، فليس عليّ فيما فعلته في تلك الحالة توبيخ. وبيّن بهذا أن التربية فيهم لا تنافي النبوّة والحلم على الناس، وأن القتل خطأ أو في وقت لم يكن فيه شرع لا ينافي النبوّة.

قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي خرجت من بينكم إلى مَدْين كما في سورة ﴿القصص﴾: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ وذلك حين القتل. ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ يعني النبوّة؛ عن السدي وغيره. الزجاج: تعليم التوراة التي فيها حكم الله. وقيل علماً وفهماً. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اختلف الناس في معنى هذا الكلام؛ فقال السدي والطبري والفراء: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة؛ كأنه يقول: نعم! وتربيتك نعمة عليّ من حيث عبّدت غيري وتركتني، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي. وقيل: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار؛ أي أتمنّ عليّ بأن ربيتني وليدا وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟! أي ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي؛ فكيف تذكر إحسانك إليّ على

الخصوص ؟! قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فيه تقدير استفهام ؛ أي أَوَتِلْكَ نعمة ؟ قاله الأخفش والفراء أيضاً وأنكره النحاس وغيره. قال النحاس: وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام أم؛ كما قال الشاعر:

تَــــرُوحُ مِـــــنَ الحَــــيِّ أم تَبْتَكِـــــر

ولا أعلم بين النحويين ٱختلافاً في هذا إلا شيئاً قاله الفراء. قال: يجوز حذف ألف الاستفهام في أفعال الشك؛ وحكى تُرى زيداً منطلقاً؟ بمعنى أُترى. وكان علي بن سليمان يقول في هذا: إنما أخذه من ألفاظ العامة. قال الثعلبيّ: قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أَوَتِلْكَ نعمة؟ على طريق الاستفهام؛ كقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ ﴿فَهُمُ الخالِدُونَ﴾. قال الشاعر[1]:

رَفَوْنِي وقالوا يا خُوَيلدُ لا تُرَعْ　　　فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

وأنشد الغزنوي شاهداً على ترك الألف قولهم:

لـم أنـس يـوم الـرحيـل وقفتَهـا　　　وجفنهـا مـن دمـوعهـا شَـرِقُ

وقــولَهــا والــركــابُ واقفــةٌ　　　تَــركتنــي هكــذا وتَنطلــقُ

قلت: ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس. وقال الضحاك: إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون بٱستفهام وبغير ٱستفهام؛ والمعنى: لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي؛ فأي نعمة لك عليّ! فأنت تمنّ عليّ بما لا يجب أن تمنّ به. وقيل: معناه كيف تمنّ بالتربية وقد أهنت قومي؟ ومن أهين قومه ذلّ. و ﴿أَنْ عَبَّدْتَ﴾ في موضع رفع على البدل من ﴿نعمة﴾ ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى: لأن عبدت بني إسرائيل؛ أي ٱتخذتهم عبيداً. يقال: عبدته وأعبدته بمعنى؛ قاله الفراء وأنشد:

عَلاَمَ يُعْبِدُنِي قومي وقد كَثُرَت　　　فيهم أَباعِرُ ما شاءوا وعبدانُ

---

(١) هو أبو خراش الهذلي؛ وقد تقدّم شرح البيت في ٢٨٧/١١ طبعة أولى أو ثانية.

[٢٣] ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

[٢٤] ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

[٢٥] ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

[٢٦] ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

[٢٧] ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

[٢٨] ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

[٢٩] ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

[٣٠] ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

[٣١] ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

[٣٢] ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

[٣٣] ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

[٣٤] ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

[٣٥] ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

[٣٦] ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

[٣٧] ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

[٣٨] ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

[٣٩] ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

[٤٠] ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

[٤١] ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

[٤٢] ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

[٤٣] ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

[٤٤] ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

[٤٥] ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

[٤٦] ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

[٤٧] ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

[٤٨] ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

[٤٩] ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

[٥٠] ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

[٥١] ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على التربية وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله: رسول رب العالمين؛ فاستفهمه آستفهاما عن مجهول من الأشياء. قال مكيّ وغيره: كما يستفهم عن الأجناس فلذلك آستفهم بـ ﴿ما﴾. قال مكي: وقد ورد له آستفهام بـ ﴿من﴾ في موضع آخر ويشبه أنها مواطن؛ فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى؛ لأن الأجناس محدَثة، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها. فقال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك. فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغيِّر، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكوِّن. فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي ليس يجيبني عما أسأل؛ فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي ليس ملكه كملكك؛ لأنك إنما تملك بلداً واحداً لا يجوز أمرك في غيره، ويموت من لا تحب أن يموت، والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وقيل: علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم. ثم لما آنقطع فرعون لعنه الله في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثَمَّ إلها غيره. وفي توعده بالسجن ضعف. وكان فيما يروى

يفزع منه فزعاً شديداً حتى كان اللعين لا يمسك بوله. وروي أن سجنه كان أشد من القتل وكان إذا سجن أحداً لم يخرجه من سجنه حتى يموت، فكان مَخُوفا. ثم لما كان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعدُ فرعون ﴿قَالَ﴾ له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ فيتضح لك به صدقي، فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة ﴿فَقَالَ﴾ له ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ولم يحتج الشرط إلى جواب عند سيبويه؛ لأن ما تقدّم يكفي منه. ﴿فَأَلْقَى مُوسى عَصَاهُ﴾ من يده فكان ما أخبر الله من قصته. وقد تقدّم بيان ذلك وشرحه في ﴿الأعراف﴾[1] إلى آخر القصة. وقال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا؛ أي إنما عذابك ساعة فنصبر لها وقد لقينا الله مؤمنين. وهذا يدل على شدّة ٱستبصارهم وقوّة إيمانهم. قال مالك: دعا موسى عليه السلام فرعون أربعين سنة إلى الإسلام، وأن السحرة آمنوا به في يوم واحد. يقال: لا ضَيْر ولا ضَوْر ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ ولا ضارُورة بمعنى واحد؛ قاله الهرَوِيّ. وأنشد أبو عبيدة[2]:

فإنكَ لا يَضُوركَ بعدَ حَوْلٍ أظبيٌ كان أُمَّكَ أم حِمارُ

وقال الجوهري: ضَارَه يَضُوره ويَضِيره ضَيْرا وضَوْرا أي ضَرَّه. قال الكسائي: سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يَضُورني. والتّضور الصياح والتلوّي عند الضرب أو الجوع. والضُّورَة بالضم الرجل الحقير الصغير الشأن. ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ يريد ننقلب إلى رب كريم رحيم ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب أي لأن كنا. وأجاز الفراء كسرها على أن تكون مجازاة. ومعنى ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون. الفراء: أول مؤمني زماننا. وأنكره الزجاج وقال: قد روي أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفاً، وهم الشِّرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ روي ذلك عن ابن مسعود وغيره.

---

(١) راجع ٧/٢٥٦ وما بعدها طبعة أولى أوثانية.

(٢) البيت لخداش بن زهير، وٱستشهد به سيبويه في كتابه على جعل ٱسم كان نكرة وخبرها معرفة ضرورة. والمعنى: لا تبالي بعد قيامك بنفسك وٱستغنائك عن أبويك من ٱنتسبت إليه من شريف أو وضيع، وضرب المثل بالظبي أو الحمار.

[٥٢] ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .
[٥٣] ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .
[٥٤] ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .
[٥٥] ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .
[٥٦] ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .
[٥٧] ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ ﴾ .
[٥٨] ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ .
[٥٩] ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .
[٦٠] ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .
[٦١] ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .
[٦٢] ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ .
[٦٣] ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ .
[٦٤] ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .
[٦٥] ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .
[٦٦] ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .
[٦٧] ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .
[٦٨] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه ، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه ، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه ، أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلا وسماهم عباده ؛ لأنهم آمنوا بموسى . ومعنى ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم . وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم ؛ فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَرا ، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر ، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول : هكذا أمرت . فلما أصبح فرعون وعلم بسُرَى موسى ببني إسرائيل ، خرج في أثرهم ، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر ، فروي أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان . وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا . والله أعلم بصحته . وإنما اللازم من الآية الذي يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من

بني إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك. قال ابن عباس: كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل. والشِّرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشَّراذم. قال الجوهري: الشِّرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء. وثوب شراذم أي قطع. وأنشد الثعلبي قول الراجز:

جـاء الشتـاءُ وثِيَـابـي أَخْـلاقْ شَـرَاذِمٌ يَضحـكُ منهـا النَّـوَّاقْ

النَّوَّاق من الرجال الذي يروض الأمور ويصلحها[1]؛ قاله في الصحاح. واللام في قوله: ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ لام توكيد وكثيراً ما تدخل في خبر إن، إلا أن الكوفيين لا يجيزون إن زيداً لسوف يقوم. والدليل على أنه جائز قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف؛ قاله النحاس. ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ أي أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها على ما تقدم. وماتت أبكارهم تلك الليلة. وقد مضى هذا في ﴿الأعراف﴾ و ﴿طه﴾ مستوفى. يقال: غاظني كذا وأغاظني. والغيظ الغضب ومنه التغيظ والاغتياظ. أي غاظونا بخروجهم من غير إذن. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾ أي مجتمع أخذنا حِذرنا وأسلحتنا. وقرىء ﴿حَاذِرُونَ﴾ ومعناه معنى ﴿حَذِرُونَ﴾ أي فرقون خائفون. قال الجوهري: وقرىء ﴿وإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـاذِرُونَ﴾ و ﴿حَـذِرُونَ﴾ و ﴿حَـذُرُونَ﴾ بضـم الـذال حكـاه الأخفـش؛ ومعنـى ﴿حَاذِرُونَ﴾ متأهبون، ومعنى ﴿حَذِرُونَ﴾ خائفون. قال النحاس: ﴿حَذِرُونَ﴾ قراءة المدنيين وأبي عمرو، وقراءة أهل الكوفة ﴿حَاذِرُونَ﴾ وهي معروفة عن عبد الله بن مسعود وابن عباس؛ و ﴿حَادِرُونَ﴾ بالدال غير المعجمة قراءة أبي عباد وحكاها المهدوي عن ابن أبي عمار، والماوردي والثعلبي عن سُمَيْط بن عجلان. قال النحاس: أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى ﴿حَذِرُونَ﴾ و ﴿حَاذِرُونَ﴾ واحد. وهو قول سيبويه وأجاز: هو حذِرٌ زيداً؛ كما يقال: حاذر زيداً، وأنشد:

حَـذِرٌ أُمـوراً لا تَضِيـرُ وآمِـنٌ مـا ليـس مُنْجِيَـهُ مـن الأقـدارِ

(١) ويقال هو اسم ابنه. ويروى (التواق) بالتاء.

وزعم أبو عمر الجَرْميّ أنه يجوز هو حذرٌ زيداً على حذف مِن. فأما أكثر النحويين فيفرقون بين حذِر وحاذر؛ منهم الكسائي والفراء ومحمد بن يزيد؛ فيذهبون إلى أن معنى حذر في خلقته الحذر، أي متيقظ متنبه، فإذا كان هكذا لم يتعدّ، ومعنى حاذر مستعدّ وبهذا جاء التفسير عن المتقدّمين. قال عبد الله بن مسعود في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ قال: مُؤْدون في السلاح والكُراع مُقْوون، فهذا ذاك بعينه. وقوله مُؤْدون معهم أداة. وقد قيل: إن المعنى: معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال؛ فأما ﴿حادِرون﴾ بالدال المهملة فمشتق من قولهم عين حَدْرة أي ممتلئة؛ أي نحن ممتلؤون غيظاً عليهم؛ ومنه قول الشاعر[1]:

وعيـــنٌ لهـــا حَــدْرَةٌ بَــدْرَةٌ ... شُقَّــتْ مــآقيهمَــا مِــنْ أُخَــرْ

وحكى أهل اللغة أنه يقال: رجل حادِرٌ إذا كان ممتلىء اللحم؛ فيجوز أن يكون المعنى الامتلاء من السلاح. المهدوي: الحادر القويّ الشديد.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني من أرض مصر. وعن عبد الله بن عمرو قال: كانت الجنات بحافتي النيل في الشّقتين جميعاً من أسوان إلى رشيد، وبين الجنات زروع . والنيل سبعة خلجان: خليج الإسكندرية، وخليج سَخَا، وخليج دمياط، وخليج سَرْدُوس، وخليج مَنْف، وخليج الفيوم، وخليج المَنْهَى[2] متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزروع ما بين الخلجان كلها. وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً بما دبّروا وقدّروا من قناطرها وجسورها وخلجانها؛ ولذلك سمي النيل إذا غلق ستة عشر ذراعاً نيل السلطان؛ ويُخلَع على أبن أبي الردّاد[3]؛ وهذه الحال مستمرّة إلى الآن. وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذٍ يجب الخراج على الناس. وكانت أرض مصر جميعها تروى

(١) هو أمرؤ القيس. (٢) وهو بحر يوسف عليه السلام.

(٣) هو عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي الردّاد المؤذن؛ قدم مصر من البصرة وحدّث بها، وجعل على قياس النيل في ولاية يزيد بن عبد الله التركي ـ وكانت النصارى تتولى قياسه ـ وأجرى عليه سبعة دنانير في كل شهر، وأستقر قياسه في بنيه زماناً طويلاً. وتوفي أبو الردّاد سنة ٢٦٦هـ. عن خطط المقريزي ١/٥٨.

من إصبع واحدة من سبعة عشر ذراعاً، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعاً ونودي عليه إصبع واحد من ثمانية عشر ذراعاً، آزداد في خراجها ألف ألف دينار. فإذا خرج عن ذلك ونودي عليه إصبعاً واحداً من تسعة عشر ذراعاً نقص خراجها ألف ألف دينار. وسبب هذا ما كان ينصرف في المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارتها. فأما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادي إصبع من تسعة عشر ذراعاً بمقياس مصر. وأما أعمال الصعيد الأعلى، فإن بها ما لا يتكامل ريه إلا بعد دخول الماء في الذراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى.

قلت: أما أرض مصر فلا تروى جميعها الآن إلا من عشرين ذراعاً وأصابع؛ لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها. وهو من عجائب الدنيا؛ وذلك أنه يزيد إذا آنصبت المياه في جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصل إليها إلا بالمراكب والقياسات. وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلل الله له الأنهار؛ فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفَجَّر الله له عيوناً، فإذا آنتهى إلى ما أراد الله عز وجل، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره. وقال قيس بن الحجاج: لما افتتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بئونة من أشهر القبط فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، فقال لهم: وما ذاك؟ فقالوا: إذا كان لاثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكر بين أبويها؛ أرضينا أبويها، وحملنا عليها من الحليّ والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل؛ فقال لهم عمرو: هذا لا يكون في الإسلام؛ وإن الإسلام ليهدم ما قبله. فأقاموا أبيب ومسرى لا يجري قليل ولا كثير، وهموا بالجلاء. فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فأعلمه بالقصة، فكتب إليه عمر بن الخطاب: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإن الإسلام يهدم ما قبله ولا يكون هذا. وبعث إليه ببطاقة في داخل كتابه. وكتب إلى عمرو: إني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي، فألقها في النيل

إذا أتاك كتابي. فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر ـ أما بعد ـ فإن كنت إنما تجري من قِبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يُجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك. قال: فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها؛ لأنه لا تقوم مصلحتهم فيها إلا بالنيل. فلما ألقى البطاقة في النيل، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله في ليلة واحدة ستة عشر ذراعاً، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة. قال كعب الأحبار: أربعة أنهار من الجنة وضعها الله في الدنيا سَيْحان وجَيْحان والنيل والفرات، فسيحان نهر الماء في الجنة، وجيحان نهر اللبن في الجنة، والنيل نهر العسل في الجنة، والفرات نهر الخمر في الجنة. وقال ابن لهيعة: الدجلة نهر اللبن في الجنة.

قلت: الذي في «الصحيح» من هذا حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ كُلٌّ من أنهار الجنة» لفظ مسلم: وفي حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعة رجلٍ من قومه قال: «وحدّث نبيّ الله ﷺ أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت يا جبريل ما هذه الأنهار قال أما النهران الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات» لفظ مسلم. وقال البخاريّ من طريق شَريك عن أنس: «فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يَطَّرِدان[1] فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا هو الكوثر الذي خبأ لك ربُّك». وذكر الحديث. والجمهور على أن المراد بالعيون عيون الماء. وقال سعيد بن جبير: المراد عيون الذهب. وفي الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ﴾. قيل: إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أوّل مصر إلى آخرها. وليس في الدخان ﴿وكنوز﴾. ﴿وكنوز﴾ جمع كنز؛ وقد مضى هذا

---

(١) يطردان: أي يجريان، وهما يفتعلان من الطرد.

في سورة ﴿براءة﴾[١]. والمراد بها هاهنا الخزائن. وقيل: الدفائن. وقال الضحاك: الأنهار؛ وفيه نظر؛ لأن العيون تشملها. ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد: المقام الكريم المنابر؛ وكانت ألف مِنبر لألف جبّار يُعظّمون عليها فرعون ومُلكه. وقيل: مجالس الرؤساء والأمراء؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول. وقال سعيد بن جبير: المساكن الحسان. وقال ابن لهيعة: سمعت أن المقام الكريم الفيوم. وقيل: كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فسماها الله كريمة بهذا. وقيل: مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عُدّة وزينة؛ فصار مقامها أكرم منزل بهذا؛ ذكره الماوردي. والأظهر أنها المساكن الحسان كانت تكرم عليهم. والمقام في اللغة يكون الموضع ويكون مصدراً. قال النحاس: المقام في اللغة الموضع؛ من قولك قام يقوم، وكذا المقامات واحدها مقامة؛ كما قال[٢]:

وفيهم مَقَاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم ... وأنـديـةٌ ينتـابُهـا القـولُ والفعـلُ

والمقام أيضاً المصدر من قام يقوم. والمقام (بالضم) الموضع من أقام. والمصدر أيضاً من أقام يقيم.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بني إسرائيل. قال الحسن وغيره: رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه. وقيل: أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حليّ آل فرعون بأمر الله تعالى.

قلت: وكلا الأمرين حصل لهم. والحمد لله. ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي فتبع فرعون وقومه بني إسرائيل. قال السدي: حين أشرقت الشمس بالشعاع. وقال قتادة: حين أشرقت الأرض بالضياء. قال الزجاج: يقال شَرَقت الشمسُ إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. واختلف في تأخر فرعون وقومه عن موسى وبني إسرائيل على قولين: أحدهما ـ

---

(١) راجع ٨/ ١٢٣ طبعة أولى أو ثانية.
(٢) هو زهير بن أبي سلمى؛ وينتابها: أي يقال فيها الجميل ويفعل به.

لاشتغالهم بدفن أبكارهم في تلك الليلة؛ لأن الوباء في تلك الليلة وقع فيهم؛ فقوله: ﴿مشرِقين﴾ حال لقوم فرعون.

الثاني ـ إن سحابة أظلتهم وظُلْمة فقالوا: نحن بعد في الليل فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا. وقال أبو عبيدة: معنى ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ناحية المشرق. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون ﴿فَٱتَّبَعُوهُمْ مُشَرِّقِينَ﴾ بالتشديد وألف الوصل؛ أي نحو المشرق؛ مأخوذ من قولهم: شرق وغرب إذا سار نحو المشرق والمغرب. ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فٱتبع قوم فرعون بني إسرائيل مشرّقين فهلكوا، وورث بنو إسرائيل بلادهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي تقابلا[1] الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه، وهو تفاعل من الرؤية. ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي قرب منا العدوّ ولا طاقة لنا به. وقراءة الجماعة ﴿لَمُدْرَكُونَ﴾ بالتخفيف من أدرك. ومنه ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ﴾. وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهري ﴿لَمُدَّرِكُونَ﴾ بتشديد الدال[2] من ٱدّرك. قال الفراء: حفر وٱحتفر بمعنى واحد، وكذلك ﴿لَمُدْرَكُونَ﴾ و ﴿لَمُدَّرَكُونَ﴾ بمعنى واحد. النحاس: وليس كذلك يقول النحويون الحذّاق؛ إنما يقولون: مُدْرَكون ملحقون، ومدرّكون مجتهد في لحاقهم، كما يقال: كسبت بمعنى أصبت وظفرت، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيبويه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمعَ موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدوّ القويّ والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ فرد عليهم قولهم وزَجَرهم وذكّرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ﴿كَلَّا﴾ أي لم يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ أي بالنصر على العدوّ. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي سيدلني على طريق النجاة؛ فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه؛ وذلك أنه

---

(١) كذا في نسخ الأصل. (٢) وكسر الراء ـ كما في «البحر وروح المعاني والكشاف» ـ على وزن مفتعلون وهو لازم بمعنى الفناء والاضمحلال، من أدرك الشيء إذا تتابع ففني.

عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[1] قصة هذا البحر. ولما ٱنفلق صار فيه ٱثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالطود العظيم؛ أي الجبل العظيم. والطود الجبل؛ ومنه قول ٱمرىء القيس:

فبينا المرءُ في الأحياءِ طَوْدٌ   رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فَمالاَ

وقال الأسود بن يَعْفُر:

حَلُّوا بأَنْقِرةٍ يَسيلُ عليهمُ   ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أَطْوَادِ

جمع طود أي جبل. فصار لموسى وأصحابه طريقاً في البحر يَبَسا؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدّم في ﴿يونس﴾[2] انصب عليهم وغرق فرعونُ؛ فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعونُ؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه. وروى ابن القاسم عن مالك قال: خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قالا له بم أمرك الله؟ قال: أمرت أن أضرب البحر بعصاي هذه فينفلق؛ فقالا له: افعل ما أمرك الله فلن يخلفك؛ ثم ألقيا أنفسهما في البحر تصديقاً له؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه، ثم ارتد كما كان. وقد مضى هذا المعنى في سورة ﴿البقرة﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ أي قربناهم إلى البحر؛ يعني فرعون وقومه. قاله ابن عباس وغيره؛ قال الشاعر:

وكلُّ يوم مَضَى أو ليلةٍ سلَفَتْ   فيها النفوسُ إلى الآجال تَزْدَلِفُ

أبو عبيدة: ﴿أَزْلَفْنَا﴾ جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جَمْع. وقرأ أبو عبد الله بن الحرث وأبيّ بن كعب وابن عباس ﴿وَأَزْلَقْنَا﴾ بالقاف على معنى أهلكناهم؛ من قوله: أزلقت الناقةُ وأزلقت الفرسُ فهي مُزْلِقٌ إذا أزلقت ولدها. ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ يعني فرعون وقومه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي علامة على قدرة الله تعالى.

---

(١) راجع ١/٣٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) راجع ٨/٣٧٨ طبعة أولى أو ثانية.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأنه لن يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون وٱسمه حزقيل، وٱبنته آسية ٱمرأة فرعون، ومريم بنت ذا موسى العجوز التي دلت على قبر يوسف الصديق عليه السلام. وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. قال موسى: فأيكم يدري قبره؟ قال: ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل؛ فأرسل إليها؛ فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: حكمي أن أكون معك في الجنة؛ فثقل عليه، فقيل له: أعطها حكمها؛ فدلتهم عليه، فاحتفروه واستخرجوا عظامه، فلما أقلوها، فإذا الطريق مثل ضوء النهار. في رواية: فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل، فأتت بهم إلى بحيرة، فقالت لهم: أنضبوا هذا الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام؛ فتبينت لهم الطريق مثل ضوء النهار. وقد مضى في ﴿يوسف﴾[1]. وروى أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ نزل بأعرابي فأكرمه، فقال رسول الله ﷺ: «حاجتك» قال: ناقة أرحلها وأعنزاً أحلبها؛ فقال رسول الله ﷺ: «فلم عجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل» فقال أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل؟ فذكر لهم حال هذه العجوز التي احتكمت على موسى أن تكون معه في الجنة.

[٦٩] ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾.
[٧٠] ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.
[٧١] ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾.
[٧٢] ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾﴾.
[٧٣] ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾.
[٧٤] ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.
[٧٥] ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾﴾.
[٧٦] ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾.
[٧٧] ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

(١) راجع ٩/ ٢٧٠ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ نبه المشركين على فرط جهلهم إذ رغبوا عن ٱعتقاد إبراهيم ودينه وهو أبوهم. والنبأ الخبر؛ أي ٱقصص عليهم يا محمد خبره وحديثه وعيبه على قومه ما يعبدون. وإنما قال ذلك ملزماً لهم الحجة. والجمهور من القراء على تخفيف الهمزة الثانية وهو أحسن الوجوه؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو آدم. وإن شئت حقّقتهما فقلت: ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾. وإن شئت خفّفتهما فقلت: ﴿نبا ابراهيم﴾. وإن شئت خفّفت الأولى. وثَمَّ وجهٌ خامس إلا أنه بعيد في العربية وهو أن يدغم الهمزة في الهمزة كما يقال راّاس للذي يبيع الرؤوس. وإنما بعد لأنك تجمع بين همزتين كأنهما في كلمة واحدة، وحَسُن في فَعَّال لأنه لا يأتي إلا مدغماً. ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي أيّ شيء تعبدون ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً﴾ وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب. ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أي فنقيم على عبادتها. وليس المراد وقتاً معيناً بل هو إخبار عما هم فيه. وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، وكانوا في الليل يعبدون الكواكب. فيقال: ظل يفعل كذا إذا فعله نهاراً وبات يفعل كذا إذا فعله ليلاً. ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ قال الأخفش: فيه حذف؛ والمعنى: هل يسمعون منكم؟ أو هل يسمعون دعاءكم؛ قال الشاعر[1]:

القائد الخيلِ مَنْكُوباً دَوَابِرُها قد أُحْكِمَتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقَا

قال: والأَبَق الكَتَّان فحذف. والمعنى؛ وأحكمت حكماتِ الأَبَق. وفي «الصحاح»: والأَبَق بالتحريك القِنَّب. وروي عن قتادة أنه قرأ: ﴿هَلْ يُسْمِعُونَكُمْ﴾ بضم الياء؛ أي هل يسمعونكم أصواتهم ﴿إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم، أو تملك لكم خيراً أو ضراً إن عصيتم؟! وهذا ٱستفهام لتقرير الحجة؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضروا فما معنى عبادتكم لها. ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فنزعوا إلى التقليد

---

(١) هو زهير بن أبي سلمى. والبيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان. وأحكمت: جعلت لها حكمات من القد. والحكمات جمع حكمة وهي ما تكون على أنف الدابة. ودوابرها: مؤخر حوافرها. ومنكوب: أي أصابت الحجارة دوابرها وأدمتها.

من غير حجة ولا دليل. وقد مضى القول فيه. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من هذه الأصنام ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ﴾ الأوّلون ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ واحد يؤدّي عن جماعة، وكذلك يقال للمرأة هي عدوّ الله وعدوّة الله؛ حكاهما الفراء. قال علي بن سليمان: من قال عدوّة الله وأثبت الهاء قال هي بمعنى معادية، ومن قال عدوّ للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب. ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدوّ لي إن عبدتهم يوم القيامة؛ كما قال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾. وقال الفراء: هو من المقلوب؛ مجازه: فإني عدوّ لهم لأن من عاديته عاداك. ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الكلبيّ: أي إلا من عبد رب العالمين؛ إلا عابد ربّ العالمين؛ فحذف المضاف. قال أبو إسحاق الزجاج: قال النحويون هو ٱستثناء ليس من الأوّل؛ وأجاز أبو إسحاق أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله. وتأوّله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده: فإنهم لو عبدتُهم عدوّ لي يوم القيامة؛ على ما ذكرنا. وقال الجرجاني: تقديره: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لي. وإلا بمعنى دون وسوى؛ كقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾ أي دون الموتة الأولى.

[٧٨] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾﴾.

[٧٩] ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

[٨٠] ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

[٨١] ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾﴾.

[٨٢] ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي يرشدني إلى الدين. ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يرزقني. ودخول ﴿هو﴾ تنبيه على أن غيره لا يُطعم ولا يَسقي؛ كما تقول: زيد هو الذي فعل كذا؛ أي لم يفعله غيره. ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال: ﴿مرضت﴾ رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعاً. ونظيره قول

فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾. ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب؛ فبين أن الله هو الذي يميت ويحيي. وكله بغير ياء: ﴿يهدين﴾ ﴿يشفين﴾ لأن الحذف في رؤوس الآي حسن لتتفق كلها. وقرأ ٱبن أبي إسحاق على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياء؛ لأن الياء ٱسم وإنما دخلت النون لعلة. فإن قيل: فهذه صفة تجمع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلاً على هدايته ولم يهتد بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها ٱحتجاجاً على وجوب الطاعة؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها؛ وهذا إلزام صحيح.

قلت: وتجوّز بعض أهل الإشارات في غوامض المعاني فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم. فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يطعمني لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول. ولهم في قوله: ﴿وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وجهان: أحدهما ـ إذا مرضت بمخالفته شفاني برحمته. الثاني ـ إذا مرضت بمقاساة الخلق، شفاني بمشاهدة الحق. وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة. وتأولوا قوله: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ على ثلاثة أوجه: فالذي يميتني بالمعاصي يحييني بالطاعات. الثاني: يميتني بالخوف يحييني بالرجاء. الثالث: يميتني بالطمع ويحييني بالقناعة. وقول رابع: يميتني بالعدل ويحييني بالفضل. وقول خامس: يميتني بالفراق ويحييني بالتلاق. وقول سادس: يميتني بالجهل ويحييني بالعقل؛ إلى غير ذلك مما ليس يشيء منه مراد من الآية؛ فإن هذه التأويلات الغامضة، والأمور الباطنة، إنما تكون لمن حذق وعرف الحق، وأما من كان في عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة، وتترك الأمور الظاهرة؟ هذا محال. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿أَطْمَعُ﴾ أي أرجو. وقيل: هو بمعنى اليقين في حقه، وبمعنى الرجاء في حق المؤمنين سواه. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ﴿خَطَايَايَ﴾ وقال: ليست خطيئة واحدة. قال النحاس: خطيئة بمعنى

خطايا معروف في كلام العرب، وقد أجمعوا على التوحيد في قوله عز وجل ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ ومعناه بذنوبهم. وكذا ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ معناه الصلوات، وكذا ﴿خَطِيئَتِي﴾ إن كانت خطايا. والله أعلم. قال مجاهد: يعني بخطيئته قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: إن سارة أخته. زاد الحسن وقوله للكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ وقد مضى بيان هذا مستوفى. وقال الزجاج: الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة؛ نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها. ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم. وهذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له. وفي «صحيح مسلم» عن عائشة؛ قلت يا رسول الله: ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه إنه لم يقل يوما ﴿رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾».

[٨٣] ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾.
[٨٤] ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾.
[٨٥] ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾.
[٨٦] ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾.
[٨٧] ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾.
[٨٨] ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.
[٨٩] ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿حُكْماً﴾ معرفة بك وبحدودك وأحكامك؛ قاله ابن عباس. وقال مقاتل: فهما وعلماً؛ وهو راجع إلى الأوّل. وقال الكلبي: نبوّة ورسالة إلى الخلق. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي بالنبيين من قبلي في الدرجة. وقال ابن عباس: بأهل الجنة؛ وهو تأكيد قوله: ﴿هَبْ لِي حُكْماً﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه. وقال مجاهد: هو الثناء الحسن. قال ابن عطية: هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين؛ وكذلك أجاب الله دعوته، وكل أمة تتمسك به وتعظمه، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد ﷺ. وقال مكي: وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان

من يقوم بالحق؛ فأجيبت الدعوة في محمد ﷺ. قال ابن عطية: وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ. وقال القشيري: أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة في حق كل أحد.

قلت: وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبيّ ﷺ إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات. والصلاة دعاء بالرحمة. والمراد باللسان القول، وأصله جارحة الكلام. قال القتبي: وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة، وقد تكني العرب بها عن الكلمة. قال الأعشى:

إنّـي أَتَتْنِـي لسـانٌ لا أُسَـرّ بِهَـا ... مِن عَلْوُ لا عَجبٌ منها ولا سَخَرُ

قال الجوهري: يروى مِن عَلو بضم الواو وفتحها وكسرها. أي أتاني خبر من أعلى، والتأنيث للكلمة. وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر. روى أشهب عن مالك قال قال الله عز وجل: ﴿وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحاً ويرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجه الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي حباً في قلوب عباده وثناء حسناً، فنبه تعالى بقوله: ﴿وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِين﴾ على ٱستحباب ٱكتساب ما يورث الذكر الجميل. الليث بن سليمان: إذ هي الحياة الثانية. قيل:

قـد مـات قـوم وهـم فـي النـاس أحيـاء

قال ٱبن العربي: قال المحققون من شيوخ الزهد في هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن، قال النبيّ ﷺ: «إذا مات ٱبن آدم ٱنقطع عمله إلا من ثلاث» [الحديث] وفي رواية إنه كذلك في الغرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطاً يكتب له عمله إلى يوم القيامة. وقد بيناه في آخر ﴿آل عمران﴾[1] والحمد لله.

(١) راجع ٤/٣٢٣ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ دعاء بالجنة وبمن يرثها، وهو يرد قول بعضهم: لا أسأل جنة ولا ناراً.

قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ﴾ كان أبوه وعده في الظاهر أن يؤمن به فاستغفر له لهذا، فلما بان أنه لا يفي بما قال تبرأ منه. وقد تقدّم هذا المعنى. ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّالِينَ﴾ أي المشركين. ﴿وكان﴾ زائدة ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا تفضحني على رءوس الأشهاد، أو لا تعذبني يوم القيامة. وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة» والغبرة هي القترة. وعنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه فيقول يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين» ٱنفرد بهما البخاري رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿يوم﴾ بدل من ﴿يوم﴾ الأوّل. أي يوم لا ينفع مال ولا بنون أحداً. والمراد بقوله: ﴿ولاَ بنون﴾ الأعوان؛ لأن الابن إذا لم ينفع فغيره متى ينفع؟ وقيل: ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم، أي لم ينفعه إبراهيم. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ هو ٱستثناء من الكافرين؛ أي لا ينفعه ماله ولا بنوه. وقيل: هو ٱستثناء من غير الجنس، أي لكن ﴿من أتى الله بِقلبٍ سلِيم﴾ ينفعه لسلامة قلبه. وخص القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح. وقد تقدّم في أوّل ﴿البقرة﴾[1]. وٱختلف في القلب السليم فقيل: من الشك والشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد؛ قاله قتادة وٱبن زيد وأكثر المفسرين. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض؛ قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وقال أبو عثمان السيّاري: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة. وقال الحسن: سليم من آفة المال والبنين. وقال الجنيد: السليم في اللغة اللديغ؛ فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله. وقال الضحاك: السليم الخالص.

---

(١) راجع ١/١٨٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

قلت: وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة؛ والله أعلم. وقد روي عن عروة أنه قال: يا بنيّ لا تكونوا لعّانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قط، قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. وقال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «يدخل الجنةَ أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير» يريد ـ والله أعلم ـ أنها مثلها في أنها خالية من كل ذنب، سليمة من كل عيب، لا خبرة لهم بأمور الدنيا؛ كما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «أكثر أهل الجنة البُلْه» وهو حديث صحيح. أي البُلْه عن معاصي الله. قال الأزهري: الأبله هنا هو الذي طبع على الخير وهو غافل عن الشر لا يعرفه. وقال القتبي: البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس.

[٩٠] ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠)﴾.
[٩١] ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١)﴾.
[٩٢] ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢)﴾.
[٩٣] ﴿مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣)﴾.
[٩٤] ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤)﴾.
[٩٥] ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥)﴾.
[٩٦] ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦)﴾.
[٩٧] ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧)﴾.
[٩٨] ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)﴾.
[٩٩] ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩)﴾.
[١٠٠] ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠)﴾.
[١٠١] ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾.
[١٠٢] ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢)﴾.
[١٠٣] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾.
[١٠٤] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قربت وأدنيت ليدخلوها. وقال الزجاج: قرب دخولهم إياها. ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي أظهرت ﴿الْجَحِيمُ﴾ يعني جهنم. ﴿لِلْغَاوِينَ﴾

أي الكافرين الذين ضلوا عن الهدى. أي تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿هَلْ يَنْصُرونكُمْ﴾ من عذاب الله ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم. وهذا كله توبيخ. ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي قلبوا على رؤوسهم. وقيل: دهوروا وألقى بعضهم على بعض. وقيل: جمعوا. مأخوذ من الكَبْكبة وهي الجماعة؛ قاله الهرويّ. وقال النحاس: هو مشتق من كَوْكَبِ الشيءِ أي مُعظَمه. والجماعة من الخيل كَوْكَب وكَبْكَبة. وقال ابن عباس: جمعوا فطرحوا في النار. وقال مجاهد؛ دهوروا. وقال مقاتل: قذفوا. والمعنى واحد. تقول: دهورت الشيء إذا جمعته ثم قذفته في مَهْواة. يقال: هو يدهور اللقم إذا كبرها. ويقال: في الدعاء كب الله عدو المسلمين ولا يقال أكبه. وكبكبه، أي كبه وقلبه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ والأصل كُبِّبُوا فأبدل من الباء الوسطى كاف ٱستثقالا لاجتماع الباءات. قال السدي: الضمير في ﴿كُبْكِبُوا﴾ لمشركي العرب ﴿وَالغَاوُونَ﴾ الآلهة. ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من كان من ذريته. وقيل: كل من دعاه إلى عبادة الأصنام فٱتبعه. وقال قتادة والكلبي ومقاتل: ﴿الْغَاوُونَ﴾ هم الشياطين. وقيل: إنما تلقى الأصنام في النار وهي حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين ٱختصموا حينئذ. ﴿تَاللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي في خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا ٱتخذنا مع الله آلهة فعبدناها كما يعبد؛ وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي في العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم. ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام. وقيل: أسلافنا الذين قلدناهم. قال أبو العالية وعكرمة: ﴿المجرمون﴾ إبليس وٱبن آدم القاتل هما أوّل من سنّ الكفر والقتل وأنواع المعاصي. ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ أي شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي صديق مشفق؛ وكان عليّ رضي الله عنه يقول: عليكم بالإخوان فإنهم عدّة الدنيا وعدّة الآخرة؛

ألا تسمع إلى قول أهل النار ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. الزمخشري: وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووحد الصديق لقلته؛ ألا ترى أن الرجل إذا آمتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته؛ رحمة له وحسبة وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة؛ وأما الصديق فهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما يهمك فأعز من بيض الأنوق؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: آسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق الجمع. والحميم القريب والخاص؛ ومنه حامّة الرجل أي أقرباؤه. وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار؛ ومنه الحَمَّام والحُمَّى؛ فحامّة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه؛ يقال: هم حُزَانته أي يحزنهم ما يحزنه. ويقال: حَمّ الشيءُ وأَحمَّ إذا قرب، ومنه الحُمَّى؛ لأنها تقرّب من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سمي القريب حميماً؛ لأنه يَحْمَى لغضب صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحميّة. وقال قتادة: يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودّة الصديق ورقة الحميم. ويجوز «وَلاَ صَدِيقٌ حَمِيمٌ» بالرفع على موضع ﴿مِنْ شَافِعِينَ﴾؛ لأن ﴿مِن شَافِعِينَ﴾ في موضع رفع. وجمع صديق أصدِقاء وصُدقاء وصِداق. ولا يقال صُدُق للفرق بين النعت وغيره. وحكى الكوفيون: أنه يقال في جمعه صُدْقان. النحاس: وهذا بعيد؛ لأن هذا جمع ما ليس بنعت نحو رغِيف ورُغْفان. وحكوا أيضاً صديق وأصادِق. وأفاعل إنما هو جمع أَفْعَل إذا لم يكن نعتاً نحو أشجع وأشاجع. ويقال: صديق للواحد والجماعة وللمرأة؛ قال الشاعر[1]:

نَصبْنَ الهوَى ثم آرتمين قلوبَنا ... بـأعيـنِ أعـداءٍ وهُـنَّ صَـدِيـقُ

ويقال: فلان صُدَيقي أي أخص أصدقائي، وإنما يصغر على جهة المدح؛ كقول حُبَاب بن المنذر؛ (أنا جُذَيْلُهَا[2] المحكَّك، وعُذَيْقُها المرجَّب) ذكره الجوهري. النحاس: وجمع حميم أَحِمَّاء وأَحِمَّة وكرهوا أفعِلاء للتضعيف. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ ﴿أنّ﴾ في موضع رفع، المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنّا حتى يكون لنا شفعاء. تمنوا حين لا ينفعهم التمني.

---

(١) هو جرير. (٢) عنى بجذيلها المحكك الأصل من الشجرة ـ أو عود ينصب ـ تحتك به الإبل فتشتفى به؛ أي قد جربتني الأمور ولي علم ورأي يشتفى بهما كما تشتفي هذه الإبل الجربى بهذا الجذيل. والترجيب هنا إرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط؛ أي إن لي عشيرة تعضدني وتمنعني. والعذيق تصغير عذق (بالفتح) وهي النخلة بحملها.

وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون. قال جابر بن عبد الله قال النبيّ ﷺ: «إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل فلان وصديقه في الجحيم فلا يزال يشفع له حتى يُشفِّعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون ﴿مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾». وقال الحسن: ما ٱجتمع ملأ على ذكر الله، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفَّعون. وقال كعب: إن الرجلين كانا صديقين في الدنيا، فيمرّ أحدهما بصاحبه وهو يجر إلى النار، فيقول له أخوه: والله ما بقي لي إلا حسنة واحدة أنجو بها، خذها أنت يا أخي فتنجو بها مما أرى، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف. قال: فيأمر الله بهما جميعاً فيدخلان الجنة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدّم والحمد لله.

[١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.
[١٠٦] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.
[١٠٧] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.
[١٠٨] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.
[١٠٩] ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.
[١١٠] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾.
[١١١] ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.
[١١٢] ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾.
[١١٣] ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.
[١١٤] ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾.
[١١٥] ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾.
[١١٦] ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾.
[١١٧] ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾.
[١١٨] ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.
[١١٩] ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾.
[١٢٠] ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.
[١٢١] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.
[١٢٢] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال ﴿كَذَّبَتْ﴾ والقوم مذكر؛ لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح، وقال ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل. وقيل: كذبوا نوحاً في النبوّة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده. وقيل: ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام. وقد مضى هذا في ﴿الفرقان﴾[1] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي ٱبن أبيهم وهي أخوة نسب لا أخوة دين. وقيل: هي أخوة المجانسة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ وقد مضى هذا في ﴿الأعراف﴾[2]. وقيل: هو من قول العرب يا أخا بني تميم. يريدون يا واحداً منهم. الزمخشري: ومنه بيت الحماسة:

لا يَسألون أخاهمْ حينَ يَندُبهمْ ... في النَّائباتِ على ما قال بُرْهَانَا

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تتقون الله في عبادة الأصنام ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى. وقيل: ﴿أمينٌ﴾ فيما بينكم؛ فإنهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل؛ كمحمد ﷺ في قريش. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي فٱستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من الإيمان. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا طمع لي في مالكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما جزائي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرر تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أي نصدق قولك. ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ الواو للحال وفيه إضمار قد، أي وقد ٱتبعك. ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ جمع الأرذل، المكسر الأراذل والأنثى الرُّذْلى والجمع الرُّذَل. قال النحاس: ولا يجوز حذف الألف واللام في شيء من هذا عند أحد من النحويين علمناه. وقرأ ٱبن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمي وغيرهم،

---

(١) راجع ص ٣١ من هذا الجزء.

(٢) راجع ٧/ ٢٣٥ طبعة أولى أو ثانية.

﴿وَأَتْبَاعُكَ الأَرْذَلُونَ﴾. النحاس: وهي قراءة حسنة؛ وهذه الواو أكثرها تتبعها الأسماء والأفعال بقد. وأتباع جمع تبع وتبيع يكون للواحد والجمع. قال الشاعر:

لـه تَبـعٌ قـد يعلـمُ النـاسُ أنـه على من يُدانِي صَيِّفٌ ورَبيعُ

آرتفاع ﴿أَتْبَاعُكَ﴾ يجوز أن يكون بالابتداء و ﴿الأَرْذَلُونَ﴾ الخبر؛ التقدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأرذلون. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ والتقدير: أنؤمن لك نحن وأتباعك الأرذلون فنعدّ منهم؛ وحسن ذلك الفصل بقوله: ﴿لك﴾ وقد مضى القول في الأراذل في سورة ﴿هود﴾[1] مستوفى. ونزيده هنا بياناً وهي المسألة:

الثانية ـ فقيل: إن الذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكَنَّاته وبنو بنيه. وآختلف هل كان معهم غيرهم أم لا. وعلى أي الوجهين كان فالكل صالحون؛ وقد قال نوح: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾ والذين معه هم الذي آتبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذمّ، بل الأرذلون هم المكذبون لهم. قال السهيلي: وقد أغرى كثير من العوام بمقالة رويت في تفسير هذه الآية: هم الحاكَة والحجّامون. ولو كانوا حاكةً كما زعموا لكان إيمانهم بنبيّ الله وآتباعهم له مشرِّفاً كما تَشرَّف بِلال وسلمان بسبقهما للإسلام؛ فهما من وجوه أصحاب النبيّ ﷺ ومن أكابرهم، فلا ذرية نوح كانوا حاكة ولا حجامين، ولا قول الكفرة في الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتنا ذمّا ولا نقصاً؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقالتهم أصلاً؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة في الدين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿كان﴾ زائدة؛ والمعنى: وما علمي بما يعملون؛ أي لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع؛ وكأنهمُ قالوا: إنما آتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال. فقال: إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم. وقيل: المعنى إني

(١) راجع ٩/ ٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويرشدهم ويغويكم ويوفقهم ويخذلكم. ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي في أعمالهم وإيمانهم ﴿إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ أي لو شعرتم أن حسابهم على ربهم لما عبتموهم بصنائعهم. وقراءة العامّة ﴿تَشْعُرونَ﴾ بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر. وقرأ ابن أبي عَبْلة ومحمد بن السَّمَيْقَع ﴿لَوْ يَشْعُرُونَ﴾ بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم؛ نحو قوله: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِم﴾. وروي أن رجلاً سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهي مسلمة هل يقطع لها بالنار؟ فقال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾. ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ المُؤْمِنِينَ﴾ أي لخساسة أحوالهم وأشغالهم. وكأنهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش. ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: إن الله ما أرسلني أخص ذوي الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به، فمن أطاعني فذلك السعيد عند الله وإن كان فقيراً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾ أي عن سبّ آلهتنا وعيب ديننا ﴿لَتكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ﴾ أي بالحجارة؛ قاله قتادة. وقال ابن عباس ومقاتل: من المقتولين. قال الثُّمَالِيّ: كل مرجومين في القرآن فهو القتل إلا في ﴿مريم﴾: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لأسبنك. وقيل: ﴿مِنَ المَرْجُومِينَ﴾ من المشتومين؛ قاله السدي. ومنه قول أبي دؤاد[1]. ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ذلك لما يئس من إيمانهم، والفتح الحكم وقد تقدم. ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يريد السفينة وقد مضى ذكرها. والمشحون المملوء، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم. ولم يؤنث الفلك هاهنا؛ لأن الفلك هاهنا واحد لا جمع. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ البَاقِينَ﴾ أي بعد إنجائنا نوحاً ومن آمن. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

---

(١) كذا في جميع نسخ الأصل، وهنا سقط لعله بيت من الشعر أورده المؤلف شاهداً على أن الرجم معناه الشتم؛ كما أورد بيت الجعدي شاهداً على ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾. راجع ٩/ ٩١.

[١٢٣] ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

[١٢٤] ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

[١٢٥] ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

[١٢٦] ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

[١٢٧] ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

[١٢٨] ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

[١٢٩] ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

[١٣٠] ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

[١٣١] ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾.

[١٣٢] ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

[١٣٣] ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

[١٣٤] ﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

[١٣٥] ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

[١٣٦] ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

[١٣٧] ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

[١٣٨] ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

[١٣٩] ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

[١٤٠] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة. وتكذيبهم المرسلين كما تقدّم. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بيّن المعنى وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ الرّيع ما ٱرتفع من الأرض في قول ٱبن عباس وغيره، جمع رِيعة. وكم ريع أرضك أي كم ٱرتفاعها. وقال قتادة: الرّيع الطريق. وهو قول الضحاك والكلبي ومقاتل والسدي. وقاله ٱبن عباس أيضاً. ومنه قول المسيّب بن عَلَس:

فـي الآلِ يَخفِضُهـا ويَـرفعُهـا ... رِيـعٌ يَلـوحُ كـأنـه سَحْـل

شبّه الطريق بثوب أبيض. النحاس: ومعروف في اللغة أن يقال لما ٱرتفع من الأرض ريع وللطريق ريع. قال الشاعر[1]:

طِراقُ الخَوافِي مشرق فوقَ رِيعةٍ ... نَـدَى ليلِـهِ فـي ريشـه يَتـرقـرقُ

وقال عمارة: الريع الجبل الواحد رِيعة والجمع رِياع. وقال مجاهد: هو الفج بين الجبلين. وعنه: الثنيّة الصغيرة. وعنه: المنظرة. وقال عكرمة ومقاتل: كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالاً طوالاً ليهتدوا بها؛ يدل عليه قوله: ﴿آيَةً﴾ أي علامة. وعن مجاهد: الريع بنيان الحَمَام دليله ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي تلعبون؛ أي تبنون بكل مكان مرتفع آية علماً تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها. وقيل: تعبثون بمن يمر في الطريق. أي تبنون بكل موضع مرتفع لتشرفوا على السابلة فتسخروا منهم. وقال الكلبي: إنه عبث العشّارين بأموال من يمر بهم؛ ذكره الماوردي. وقال ٱبن الأعرابي: الريع الصومعة، والرّيع البرج من الحمام يكون في الصحراء. والرّيع التل العالي. وفي الرّيع لغتان: كسر الراء وفتحها وجمعها أرياع؛ ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي منازل؛ قاله الكلبي. وقيل: حصوناً مشيدة؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد. ومنه قول الشاعر:

تَـركْنَـا ديـارَهـمْ مِنهـمْ قِفَـاراً ... وهَـدَّمنـا المصـانـعَ والبُـروجَـا

وقيل: قصوراً مشيدة؛ وقاله مجاهد أيضاً. وعنه: بروج الحمام؛ وقاله السدي.

قلت: وفيه بعد عن مجاهد؛ لأنه تقدّم عنه في الريع أنه بنيان الحمام فيكون تكراراً في الكلام. وقال قتادة: مآجِل للماء تحت الأرض. وكذا قال الزجاج: إنها مصانع الماء، واحدتها مَصْنعَة ومَصْنَع. ومنه قول لَبِيد:

بَلِينا وما تَبلَى النجومُ الطوالع ... وتَبقى الجبالُ بَعدَنا والمصانعُ

(١) هو ذو الرمة يصف بازياً. وفي ديوانه ـ طبع أوروبا ـ «واقع» بدل «مشرق».

الجوهري: المصنَعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنُعة بضم النون. والمصانع الحصون. وقال أبو عبيدة: يقال لكل بناء مصنعة. حكاه المهدوي. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي كي تخلدوا. وقيل: لعل ٱستفهام بمعنى التوبيخ أي فهل ﴿تَخْلُدُونَ﴾ كقولك: لعلك تشتمني أي هل تشتمني. روي معناه عن ٱبن زيد. وقال الفراء: كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت. وقال ابن عباس وقتادة: كأنكم خالدون باقون فيها. وفي بعض القراءات ﴿كَأَنَّكُمْ تُخَلَّدون﴾[1] ذكره النحاس. وحكى قتادة: أنها كانت في بعض القراءات ﴿كأنكم خالِدون﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطش السطوة والأخذ بالعنف. وقد بَطَش به يبطُش ويبطِش بطشاً. وباطشه مباطشة. وقال ٱبن عباس ومجاهد: البطش العسف قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط. ومعنى ذلك فعلتم ذلك ظلماً. وقال مجاهد أيضاً: هو ضرب بالسياط؛ ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ٱبن عمر فيما ذكر ٱبن العربي. وقيل: هو القتل بالسيف في غير حق. حكاه يحيى بن سَلّام. وقال الكلبي والحسن: هو القتل على الغضب من غير تثبت. وكله يرجع إلى قول ٱبن عباس. وقيل: إنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء. قال ٱبن العربي: ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام لم يسلّ عليه سيفاً ولا طعنه برمح، وإنما وكزه وكانت منيّته في وكزته. والبطش يكون باليد وأقله الوكز والدفع، ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد، والكل مذموم إلا بحق. والآية نزلت خبراً عمن تقدّم من الأمم؛ ووعظاً من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به وأنكره عليهم.

قلت: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية[2]؛ فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق. وقد أخبر ﷺ

---

(١) مبني للمفعول مخففاً ومشدّداً.

(٢) البحرية: هم من المماليك الأتراك الذين ٱستخدمهم الملك الصالح الأيوبي، وأسكنهم جزيرة الروضة. وأول ملوكهم عز الدين أيبك. وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ.

أن ذلك يكون. كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «صِنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سِياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسياتٌ عارياتٌ مميلاتٌ مائلات رؤوسهن كأسنمة البُخْت المائلة لا يدخلن الجنة ولايجدن ريحَها وإنّ ريحها ليُوجد من مسيرة كذا وكذا». وخرج أبو داود من حديث ٱبن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعِينَة[1] وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاّ لا ينزِعه حتى ترجعوا إلى دينكم». ﴿جَبَّارِينَ﴾ قتالين. والجبار القتال في غير حق. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ﴾ قاله الهروي. وقيل: الجبار المتسلّط العاتي؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي بمسلَّط. وقال الشاعر:

سَلَبْنا من الجبّار بالسيف مُلْكَهُ عَشِيًّا وأطرافُ الرِّماح شَوَارِعُ

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تقدّم. ﴿وَٱتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي من الخيرات؛ ثم فسرها بقوله: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي سخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم، فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن كفرتم به وأصررتم على ذلك. ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نلوي على ما تقوله. وروى العباس عن أبي عمرو وبشر عن الكسائي: «أَوَعَظتَّ» مدغمة الظاء في التاء وهو بعيد؛ لأن الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جداً وكان مثله ومخرجه. ﴿إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ أي دينهم؛ عن ٱبن عباس وغيره. وقال الفرّاء: عادة الأوّلين. وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿ خَلْقُ الأَوَّلِينَ ﴾. الباقون ﴿ خُلُقُ ﴾. قال الهروي: وقوله عز وجل: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خَلْقُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي ٱختلاقهم وكذبهم، ومن قرأ ﴿ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ فمعناه عادتهم، والعرب تقول: حدّثنا فلان بأحاديث الْخَلق أي بالخرافات والأحاديث المفتعلة. وقال ٱبن الأعرابي:

---

(١) العينة أن تبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم تشتريها منه بأقل من الثمن الذي بعتها به.

الخُلق الدين والخُلق الطبع والخُلق المروءة. قال النحاس: ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ عند الفراء يعني عادة الأولين. وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال: ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ مذهبهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر: والقولان متقاربان، ومنه الحديث عن النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً» أي أحسنهم مذهباً وعادة وما يجري عليه الأمر في طاعة الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجراً فاضلاً، ولا أن يكون أكمل إيماناً من السيء الخلق الذي ليس بفاجر. قال أبو جعفر: حكي لنا عن محمد بن يزيد أن معنى ﴿خَلْقُ الأَوَّلِينَ﴾ تكذيبهم وتخرصهم غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى؛ لأن فيها مدح آبائهم، وأكثر ما جاء القرآن في صفتهم مدحهم لآبائهم، وقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾. وعن أبي قِلابة: أنه قرأ ﴿خُلْقُ﴾ بضم الخاء وإسكان اللام تخفيف ﴿خُلُقُ﴾. ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع. وقد قيل: إن معنى ﴿خَلْقُ الأَوَّلِينَ﴾ دين الأوّلين ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ﴾ أي دين اللّهِ. و«خُلُقُ الأوّلين» عادة الأولين: حياة ثم موت ولا بعث. وقيل: ما هذا الذي أنكرت علينا من البنيان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقتدي بهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نفعل. وقيل: المعنى خلق أجسام الأوّلين؛ أي ما خلقنا إلا كخلق الأوّلين الذين خلقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيء مما تحذرنا به من العذاب. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي بريح صرصر عاتية على ما يأتي في ﴿الحاقة﴾. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال بعضهم: أسلم معه ثلثمائة ألف ومؤون وهلك باقيهم. ﴿وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمَ﴾.

[١٤١] ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

[١٤٢] ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

[١٤٣] ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

[١٤٤] ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

[١٤٥] ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

[١٤٦] ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

[١٤٧] ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

[١٤٨] ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

[١٤٩] ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

[١٥٠] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾.

[١٥١] ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

[١٥٢] ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

[١٥٣] ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

[١٥٤] ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

[١٥٥] ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾.

[١٥٦] ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾.

[١٥٧] ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

[١٥٨] ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾.

[١٥٩] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود؛ وكانوا يسكنون الحِجر كما تقدّم في ﴿الحجر﴾[1] وهي ذوات نخل وزروع ومياه. ﴿أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هاهُنَا آمِنِينَ﴾ يعني في الدنيا آمنين من الموت والعذاب. قال ابن عباس: كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم. ودل على هذا قوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ فقرّعهم صالح ووبخهم وقال: أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. الزمخشري: فإن قلت لم قال: ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ والجنات تتناول النخل أوّل شيء كما يتناول النَّعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل؛ كما يذكرون النَّعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير:

كَأَنَّ عَينَيَّ فِي غَرْبَى مُقَتَّلَةٍ ... من النواضِح تَسْقِي جَنَّةً سُحُقَا

يعني النخل؛ والنخلة السَّحُوق البعيدة الطول.

قلت: فيه وجهان؛ أحدهما ـ أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عنها. والثاني ـ أن يريد بالجنات غيرها من الشجر؛ لأن اللفظ

(١) راجع ١٠/ ٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل. والطلعة هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف؛ في جوفه شماريخ القِنوِ، والقِنو ٱسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه. و ﴿هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس: لطيف ما دام في كُفُرّاه. والهضيم اللطيف الدقيق، ومنه قول ٱمرىء القيس:

عَلَيَّ هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا الْمُخَلْخَلِ[1]

الجوهري: ويقال للطلع هضيم ما لم يخرج من كُفُرّاه؛ لدخول بعضه في بعض. والهضيم من النساء اللطيفة الكشحين. ونحوه حكى الهروي؛ قال: هو المنضم في وعائه قبل أن يظهر؛ ومنه رجل هضيم الجنبين أي منضمهما؛ هذا قول أهل اللغة. وحكى الماوردي وغيره في ذلك ٱثني عشر قولاً: **أحدها** ـ أنه الرطب اللين؛ قاله عكرمة. **الثاني** ـ هو المذنِّب من الرطب؛ قاله سعيد بن جبير. قال النحاس: وروى أبو إسحاق عن يزيد ـ هو ٱبن أبي زياد كوفي ويزيد بن أبي مريم شامي ـ ﴿وَنَخْلٌ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: منه ما قد أرطب ومنه مذنِّب. **الثالث** ـ أنه الذي ليس فيه نوى؛ قاله الحسن. **الرابع** ـ أنه المتهشم المتفتت إذا مس تفتت؛ قاله مجاهد. وقال أبو العالية: يتهشم في الفم. **الخامس** ـ هو الذي قد ضمر بركوب بعضه بعضاً؛ قاله الضحاك ومقاتل. **السادس** ـ أنه المتلاصق بعضه ببعض؛ قاله أبو صخر. **السابع** ـ أنه الطلع حين يتفرق ويخضر؛ قاله الضحاك أيضاً. **الثامن** ـ أنه اليانع النضيج؛ قاله ٱبن عباس. **التاسع** ـ أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر؛ حكاه ٱبن شجرة؛ قال:

كـأنّ حَمـولـةً تُجْلَـى عليـهِ ... هَضيـمٌ مـا يُحـسُّ لـه شُقـوقُ

العاشر ـ أنه الرخو؛ قاله الحسن. **الحادي عشر** ـ أنه الرخص اللطيف أوّل ما يخرج وهو الطلع النضيد؛ قاله الهروي. **الثاني عشر** ـ أنه البَرْني[2]؛ قاله ٱبن الأعرابي؛ فعيل بمعنى فاعل أي هنيء مريء من ٱنهضام الطعام. والطلع ٱسم مشتق من الطلوع وهو الظهور؛ ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات.

---

(١) صدر البيت:

هصـرت بفـودي رأسهـا فتمـايلـت

(٢) البرني: ضرب من التمر وهو أجوده؛ واحدته برنية.

قوله تعالى: ﴿وتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ النَّحت النَّجر والبَرْي؛ نحته ينحِته (بالكسر) نحتاً إذا براه والنُّحاتة البُرَاية. والمِنْحَت ما ينحت به. وفي ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾. وكانوا ينحتونها من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدّم بناؤهم من المدر وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو ونافع ﴿فَرِهِينَ﴾ بغير ألف. الباقون: ﴿فَارِهِينَ﴾ بألف وهما بمعنى واحد في قول أبي عبيدة وغيره؛ مثل ﴿عِظاماً نَخِرة﴾ و ﴿ناخِرة﴾. وحكاه قطرب. وحكى فَرُه يَفرُه فهو فاره وفَرِه يَفرَه فهو فرِهٌ وفاره إذا كان نشيطاً. وهو نصب على الحال. وفرق بينهما قوم فقالوا: ﴿فارهين﴾ حاذقين بنحتها؛ قاله أبو عبيدة؛ وروي عن ٱبن عباس وأبي صالح وغيرهما. وقال عبد الله بن شداد: ﴿فارِهين﴾ متجبرين. وروي عن ٱبن عباس أيضاً أن معنى ﴿فرِهين﴾ بغير ألف أشرين بطرين؛ وقاله مجاهد. وروي عنه شرهين. الضحاك: كيِّسين. قتادة: معجَبين؛ قاله الكلبي؛ وعنه: ناعمين. وعنه أيضاً آمنين؛ وهو قول الحسن. وقيل: متخيرين؛ قاله الكلبي والسدي. ومنه قول الشاعر:

إلـى فَـرِهٍ يمـاجِـد كـلَّ أمـرٍ قصـدتُ لـه لأختبـر الطِّبـاعَـا

وقيل: متعجبين؛ قاله خُصيف. وقال ٱبن زيد: أقوياء. وقيل: فرهين فرحين؛ قاله الأخفش. والعرب تعاقب بين الهاء والحاء؛ تقول. مدهته ومدحته؛ فالفرِه الأشِر الفرِح ثم الفرَح بمعنى المَرح مذموم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: المراد الذين عقروا الناقة. وقيل: التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. قال السدي وغيره: أوحى الله تعالى إلى صالح: إن قومك سيعقرون ناقتك؛ فقال لهم ذلك، فقالوا: ما كنا لنفعل. فقال لهم صالح: إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه؛ فقالوا: لا يولد في هذا الشهر ذكر إلا قتلناه. فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ٱبنه وكان لم يولد له قبل ذلك. وكان ٱبن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتاً سريعاً، وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا.

وغضب التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله. قالوا: نخرج إلى سفر فترى الناس سفرنا فنكون في غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون؛ فيصدقوننا ويعلمون أنا قد خرجنا إلى سفر. وكان صالح لا ينام معهم في [القرية وكان يأوي إلى][1] مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم، فرأى ذلك ناس ممن كان قد اطلع على ذلك، فصاحوا في القرية: يا عباد الله! أما رضي صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم؛ فأجمع أهل القرية على قتل الناقة. وقال ابن إسحاق: إنما اجتمع التسعة على سبّ صالح بعد عقرهم الناقة وإنذارهم بالعذاب على ما يأتي بيانه في سورة ﴿النمل﴾[2] إن شاء الله تعالى. ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ هو من السحر في قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوي. أي أصبت بالسحر فبطل عقلك؛ لأنك بشر مثلنا فلِم تدّع الرسالة دوننا. وقيل: من المعلَّلين بالطعام والشراب؛ قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضاً فيما ذكر الثعلبي. وهو على هذا القول من السَّحر وهو الرئة أي بشر لك سَحْر أي رئة تأكل وتشرب مثلنا كما قال [لبيد][3]:

فإن تسألينا فِيمَ نحن فإنّنا ... عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

وقال [امرؤ القيس]:

وَنُسْحَرُ بالطَّعام وبالشَّرابِ[4]

﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قولك. ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ قال ابن عباس: قالوا إن كنت صادقاً فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء[5] فتضع ونحن ننظر، وترد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبناً. فدعا الله

---

(١) الزيادة من «قصص الأنبياء» للثعلبي. (٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط﴾.

(٣) في نسخ الأصل: امرؤ القيس؛ والتصويب من ديوان لبيد. (٤) صدر البيت:

أرانا موضعين لأمر غيب

موضعين: مسرعين. وأمر غيب يريد الموت وأنه قد غيب منا وقته ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب

(٥) ناقة عشراء: مضى لحملها عشرة أشهر.

وفعل الله ذلك فـ ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ أي حظ [من الماء][١]؛ أي لكم شرب يوم ولها شرب يوم؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أوّل النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً. قال الفراء: الشِّرب الحظ من الماء. قال النحاس: فأما المصدر فيقال فيه شِرب شَرْباً وشُربا وشِربا وأكثرها المضمومة؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشتركان مع شيء آخر فيكون الشِّرب الحظ من الماء، ويكون الشَّرْب جمع شارب كما قال[٢]:

فقلــتُ للشَّــرْب فـي دُرْنَـا وقـد ثَمِلُـوا

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشَّرب بالفتح في المصدر، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبيّ ﷺ قال: «إنها أيام أكل وشَرْب». ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا؛ لأنهما حرفان متحركان من جنس واحد. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهي، ولا يجوز حذف الفاء منه، والجزم كما جاء في الأمر إلا شيئاً روي عن الكسائي أنه يجيزه. ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ أي على عقرها لمَّا أيقنوا بالعذاب. وذلك أنه أنظرهم ثلاثا فظهرت عليهم العلامة في كل يوم، وندموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب. وقيل: لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لما أيقنوا بالعذاب. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها. وهو بعيد. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إلى آخره تقدّم. ويقال: إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانمائة رجل وامرأة. وقيل: كانوا أربعة آلاف. وقال كعب: كان قوم صالح اثني عشر ألف قبيل كل قبيل نحو اثني عشر ألفاً من سوى النساء والذرية، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات.

---

(١) زيادة يقتضيها المعنى.

(٢) هو الأعشى وتمامه:

شيمــوا فكيــف يشيــم الشــارب الثمــل

ودرنا (بضم الدال والفتح) موضع زعموا أنه بناحية اليمامة. اللسان.

[١٦٠] ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.
[١٦١] ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾.
[١٦٢] ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ ﴾.
[١٦٣] ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ﴾.
[١٦٤] ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.
[١٦٥] ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ ﴾.
[١٦٦] ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.
[١٦٧] ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ ﴾.
[١٦٨] ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.
[١٦٩] ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.
[١٧٠] ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.
[١٧١] ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾.
[١٧٢] ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾.
[١٧٣] ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.
[١٧٤] ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ ﴾.
[١٧٥] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ مضى معناه وقصته في ﴿الأعراف﴾[1] و ﴿هود﴾ مستوفى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كانوا ينكحونهم في أدبارهم وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدّم ﴿في الأعراف﴾. ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يعني فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح. قال إبراهيم بن مهاجر: قال لي مجاهد كيف يقرأ عبد الله ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ قلت: ﴿وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم﴾ قال: الفرج؛ كما قال: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي متجاوزون لحدود الله. ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن قولك هذا. ﴿لَتَكُونَنَّ

(١) راجع ٧/ ٢٤٣ وما بعدها و ٩/ ٧٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي من بلدنا وقريتنا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ﴾ يعني اللواط ﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي المبغضين والقلى البغض؛ قليته أقليه قِلًى وقَلاء. قال[١]:

فلستُ بمقلِيِّ الخِلالِ ولا قَالِي

وقال آخر[٢]:

عليكِ السلامُ لا مُلِلت قريبةً ... ومَالَكِ عندي إن نأيتِ قَلَاءُ

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي من عذاب عملهم. دعا الله لما أيس من إيمانهم ألا يصيبه من عذابهم.

قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ولم يكن إلا ٱبنتاه على ما تقدّم في ﴿هود﴾. ﴿إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ﴾ روى سعيد عن قتادة قال: غبرت في عذاب الله عز وجل أي بقيت. وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقين في الهَرَم أي بقيت حتى هَرِمت. قال النحاس: يقال للذاهب غابر والباقي غابر كما قال[٣]:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأَغْبَارِهَا ... إنّكَ لا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ

وكما قال[٢]:

فما وَنَى محمدٌ مذ أنْ غَفَرْ ... له الإلهُ ما مَضَى وما غَبَرْ

أي ما بقي. والأغبار بقيات الألبان. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ أي أهلكناهم بالخسف والحصب؛ قال مقاتل: خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجاً من القرية. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾ يعني الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾. وقيل: إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها الله بالحجارة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وٱبنتاه.

---

(١) هو ٱمرؤ القيس؛ وصدر البيت:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى

(٢) هو الحرث بن حلزة؛ وكسع الناقة بغبرها ترك في ضرعها بقية من اللبن. وبعده:

وٱحلب لأضيافك ألبانها ... فإن شر اللبن الوالج

يقول: لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوّة نسلها، وٱحلبها لأضيافك، فلعل عدوّا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك. (٣) هو العجاج.

[١٧٦] ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ .

[١٧٧] ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ .

[١٧٨] ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ .

[١٧٩] ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ ﴾ .

[١٨٠] ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ .

[١٨١] ﴿ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ .

[١٨٢] ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ .

[١٨٣] ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ .

[١٨٤] ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ .

[١٨٥] ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ .

[١٨٦] ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ .

[١٨٧] ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ .

[١٨٨] ﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ .

[١٨٩] ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ .

[١٩٠] ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ .

[١٩١] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة أيكة. ومن قرأ ﴿أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ فهي الغيضة. ومن قرأ ﴿لَيْكَةَ﴾ فهو ٱسم القرية. ويقال: هما مثل بكة ومكة؛ قاله الجوهري. وقال النحاس: وقرأ أبو جعفر ونافع ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وكذا قرأ في ﴿صٓ﴾. وأجمع القراء على الخفض في التي في سورة ﴿الحجر﴾ والتي في سورة ﴿قٓ﴾ فيجب أن يرد ما ٱختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذ كان المعنى واحداً. وأما ما حكاه أبو عبيد من أن ﴿ليكة﴾ هي ٱسم القرية التي كانوا فيها وأن ﴿الأيكة﴾ ٱسم البلد فشيء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه، ولو عرف من قاله لكان فيه نظر؛ لأن أهل العلم جميعاً من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه.

وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن خازم عن قتادة قال: أرسل شعيبٌ عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه من أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة؛ قال: والأيكة غيضة من شجر ملتف. وروى سعيد عن قتادة قال: كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت عامّة شجرهم الدوم وهو شجر المُقل. وروى ٱبن جبير عن الضحاك قال: خرج أصحاب الأيكة ـ يعني حين أصابهم الحرّ ـ فٱنضموا إلى الغيضة والشجر، فأرسل الله عليهم سحابة فاستظلُّوا تحتها، فلما تكاملوا تحتها أُحرقوا. ولو لم يكن في هذا إلا ما روي عن ٱبن عباس قال: و ﴿الأيكة﴾ الشجر. ولا نعلم بين أهل اللغة ٱختلافاً أن الأيكة الشجر الملتف، فأما ٱحتجاج بعض من ٱحتج بقراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السواد ﴿ليكة﴾ فلا حجة له؛ والقول فيه: إن أصله الأيكة ثم خففت الهمزة فألقيت حركتها على اللام فسقطت وٱستغنت عن ألف الوصل؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الخفض؛ كما تقول بالأحمر تحقق الهمزة ثم تخففها فتقول بِلحْمرِ؛ فإن شئت كتبته في الخط على ما كتبته أوّلا، وإن شئت كتبته بالحذف؛ ولم يجز إلا الخفض، قال سيبويه: وٱعلم أن ما لا ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف ٱنصرف؛ ولا نعلم أحداً خالف سيبويه في هذا. وقال الخليل: ﴿الأيكة﴾ غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب؛ لأنه لم يكن أخا لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال: ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾؛ لأنه كان منهم . وقد مضى في ﴿ الأعراف ﴾[1] القول في نسبه. قال ٱبن زيد: أرسل الله شعيباً رسولاً إلى قومه أهل مدين ، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة ؛ وقاله قتادة . وقد ذكرناه. ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ تخافون الله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَٱتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ الآية. وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحداً على صيغة واحدة؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى ، والطاعة والإخلاص في العبادة ، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة. ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ الناقصين للكيل

(١) راجع ٧/ ٢٤٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

والوزن. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي أعطوا الحق. وقد مضى في ﴿سُبْحَانَ﴾ وغيرها. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تقدّم في ﴿هود﴾ وغيرها. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ قال مجاهد: الجِبلة هي الخليقة. وجُبِل فلان على كذا أي خُلق؛ فالخُلق جِبِلّة وجُبُلَّة وجِبْلَة وجُبْلَة وجَبْلَة ذكره النحاس في «معاني القرآن». ﴿والجِبِلّةَ﴾ عطف على الكاف والميم. قال الهروي: الجِبِلَّة والجُبُلّة والجِبِلُّ والجُبُلُّ والجَبْلُ لغات؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس؛ ومنه قوله تعالى: ﴿جِبِلاً كَثِيراً﴾. قال النحاس في كتاب «إعراب القرآن» له: ويقال جُبُلَّةٌ والجمع فيهما جَبَّالٌ، وتحذف الضمة والكسرة من الباء، وكذلك التشديد من اللام؛ فيقال: جُبْلَةٌ وجُبَلٌ، ويقال: جِبْلَةٌ وجِبَالٌ؛ وتحذف الهاء من هذا كله. وقرأ الحسن باختلاف عنه ﴿والْجُبُلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ بضم الجيم والباء؛ وروي عن شيبة والأعرج. الباقون بالكسر. قال:

والموتُ أعظمُ حادثٍ فيما يمرُّ على الجِبِلَّة

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدّم. ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي ما نظنك إلا من الكاذبين في أنك رسول الله تعالى. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفاً[1] مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي جانباً من السماء وقطعة منه، فننظر إليه؛ كما قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾. وقيل: أرادوا أنزل علينا العذاب. وهو مبالغة في التكذيب. قال أبو عبيدة: الكِسْف جمع كِسْفةٍ مثل سِدْرٍ وسِدْرةٍ. وقرأ السُّلمي وحفص ﴿كِسَفاً﴾ جمع كِسْفَة أيضاً وهي القطعة والجانب تقديره كِسْرة وكِسَر. قال الجوهري: الكِسْفة القِطعة من الشيء؛ يقال أعطني كِسْفة من ثوبك والجمع كِسَفٌ وكِسْفٌ. ويقال: الكِسْف والكِسْفَة واحد. وقال الأخفش: من قرأ ﴿كِسْفاً﴾ جعله واحداً ومن قرأ ﴿كِسَفاً﴾ جعله جمعاً. وقد مضى هذا في سورة ﴿سبحان﴾[2]. وقال الهروي: ومن قرأ ﴿كِسْفاً﴾ على التوحيد فجمعه أكساف وكسوف؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقاً واحداً،

---

(١) ﴿كسفا﴾ بإسكان السين قراءة نافع. (٢) راجع ١٠/ ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية.

وهو من كسفت الشيء كسفا إذا غطيته. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد؛ أي إنما عليّ التبليغ وليس العذاب الذي سألتم إليّ وهو يجازيكم. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ قال ٱبن عباس: أصابهم حر شديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا. وقيل: أقامها الله فوق رؤوسهم، وألهبها حراً حتى ماتوا من الرَّمْدِ. وكان من أعظم يوم في الدنيا عذاباً. وقيل: بعث الله عليهم سَمُوماً فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرمها الله عليهم ناراً فٱحترقوا. وعن ابن عباس أيضاً وغيره: إن الله تعالى فتح عليهم باباً من أبواب جهنم، وأرسل عليهم هَدَّة وحراً شديداً فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فأنضجهم الحر، فخرجوا هرباً إلى البرية، فبعث الله عز وجل سحابة فأظلتهم فوجدوا لها برداً وروحاً وريحاً طيبة، فنادى بعضهم بعضاً، فلما ٱجتمعوا تحت السحابة أهبَّها الله تعالى عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض، فٱحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى، فصاروا رماداً؛ فذلك قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وقيل: إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام، وسلط عليهم الحرّ حتى أخذ بأنفاسهم، ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب؛ ليتبردوا فيها فيجدوها أشدّ حرّا من الظاهر، فهربوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة وهي الظلّة، فوجدوا لها برداً ونسيماً، فأمطرت عليهم ناراً فٱحترقوا. وقال يزيد الجُرَيْرِيّ: سلط الله عليهم الحرّ سبعة أيام ولياليهن ثم رفع لهم جبل من بعيد، فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون وشجر وماء بارد، فٱجتمعوا كلهم تحته، فوقع عليهم الجبل وهو الظُّلَّة. وقال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أمتين: أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلّة، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قيل: آمن بشعيب من الفئتين تسعمائة نفر.

[١٩٢] ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾.
[١٩٣] ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣﴾.
[١٩٤] ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤﴾.
[١٩٥] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾.
[١٩٦] ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عاد إلى ما تقدّم بيانه في أوّل السورة من إعراض المشركين عن القرآن. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ ﴿نَزَلَ﴾ مخفَّفا قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو. الباقون ﴿نَزَّلَ﴾ مشدّدا ﴿بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ﴾ نصباً وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد لقوله؛ ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ﴾ وهو مصدر نزّل. والحجة لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدّر؛ لأن المعنى وإن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لجبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي يتلوه عليك فيعيه قلبك. وقيل: ليثبت قلبك. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول. ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ أي وإن ذكر نزوله لفي كتب الأوّلين يعني الأنبياء. وقيل: أي إن ذكر محمد عليه السلام في كتب الأوّلين؛ كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإنجيلِ﴾ والزُّبُر الكتب الواحد زَبُور كرسول ورسل؛ وقد تقدّم.

[١٩٧] ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾.
[١٩٨] ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ١٩٨﴾.
[١٩٩] ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١٩٩﴾.
[٢٠٠] ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ٢٠٠﴾.
[٢٠١] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٢٠١﴾.
[٢٠٢] ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٢٠٢﴾.
[٢٠٣] ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مجاهد: يعني عبد الله بن سَلَام وسلمان وغيرهما ممن أسلم. وقال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة

يسألونهم عن محمد عليه السلام؛ فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته. فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هذا القول. وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدِّين إلى أهل الكتاب؛ لأنهم مظنون بهم علمٌ. وقرأ ابن عامر ﴿أَوَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾. الباقون ﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾ بالنصب على الخبر واسم يكن ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ والتقدير أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة. وعلى القراءة الأولى اسم كان ﴿آيَةٌ﴾ والخبر ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وقرأ عاصم الجحدري ﴿أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾ أي على رجل ليس بعربيّ اللسان ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ بغير لغة العرب لما آمنوا ولقالوا لا نفقه. نظيره ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا﴾. الآية. وقيل: معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفةً وكبراً. يقال: رجل أعجم وأعجميّ إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً، ورجل عجميّ وإن كان فصيحاً ينسب إلى أصله؛ إلا أن الفراء أجاز أن يقال رجل عجميّ بمعنى أعجمي. وقرأ الحسن ﴿عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِيِّينَ﴾ مشدّدة بياءين جعله نسبة. ومن قرأ ﴿الأَعْجَمِينَ﴾ فقيل: إنه جمع أعجم. وفيه بعد؛ لأن ما كان من الصفات الذي مؤنثه فعلاء لا يجمع بالواو والنون، ولا بالألف والتاء؛ لا يقال أحمرون ولا حمراوات. وقيل: إن أصله الأعجمين كقراءة الجحدري ثم حذفت ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون دليلاً عليها قاله أبو الفتح عثمان بن جنّي. وهو مذهب سيبويه.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ يعني القرآن أي الكفر به ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وقيل: سلكنا التكذيب في قلوبهم؛ فذلك الذي منعهم من الإيمان قاله يحيى بن سلاّم. وقال عكرمة: القسوة. والمعنى متقارب وقد مضى في ﴿ الحجر ﴾[1]. وأجاز الفراء الجزم في ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة. وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كي لا في مثل هذا ربما جزمت ما بعدها وربما رفعت؛ فتقول: ربطت

(١) ١٠/٧ طبعة أولى أو ثانية.

الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم؛ لأنّ معناه إن لم أربطه ينفلت، والرفع بمعنى كيلا ينفلت وأنشد لبعض بني عُقَيل:

وحتى رأينا أحسنَ الفعلُ بيننا مُسَاكَنَةً لا يَقرِفُ الشَّر قارِفُ

بالرفع لما حذف كي. ومن الجزم قول الآخر:

لَطَالَما حَلأتُمَاها لا تَرِدْ فخلِّياها والسِّجالَ تَبْتَرِدِ[1]

قال النحاس: وهذا كله في ﴿يؤمنون﴾ خطأ عند البصريين؛ ولا يجوز الجزم بلا جازم، ولا يكون شيء يعمل عملاً فإذا حذف عمل عملا أقوى من عمله وهو موجود؛ فهذا ٱحتجاج بيِّن، ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ. فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي العذاب. وقرأ الحسن ﴿فتَأْتِيَهُمْ﴾ بالتاء؛ والمعنى: فتأتيهم الساعة بغتةً فأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها، ولكثرة ما في القرآن من ذكرها. وقال رجل للحسن وقد قرأ ﴿فتَأْتِيَهُمْ﴾: يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغتة. فانتهره وقال: إنما هي الساعة تأتيهم بغتة أي فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها. ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ أي مؤخَّرون وممهَلون. يطلبون الرجعة هنالك فلا يجابون إليها. قال القشيري: وقوله: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾ ليس عطفا على قوله: ﴿حَتَّى يَرَوُا﴾ بل هو جواب قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلما كان جواباً للنفي انتصب، وكذلك قوله: ﴿فَيَقُولُوا﴾.

[٢٠٤] ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤)﴾.
[٢٠٥] ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥)﴾.
[٢٠٦] ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦)﴾.
[٢٠٧] ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾.
[٢٠٨] ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨)﴾.
[٢٠٩] ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال مقاتل: قال المشركون للنبي ﷺ يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به! فنزلت ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾. ﴿أَفَرَأَيْتَ

---

(١) حلأها: منعها من ورود الماء. والسجال: (جمع سجل) وهي الدلو الضخمة المملوءة ماء. وتبترد: تشرب الماء لتبرد به كبدها. والبيت قاله بعض النسوة لبعض لما زرن ٱمرأة قد تزوجت من رجل كان عاشقاً لها.

انْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ يعني في الدنيا والمراد أهل مكة في قول الضحاك وغيره. ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب والهلاك ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾. ﴿مَا﴾ الأولى ٱستفهام معناه التقرير، وهو في موضع نصب بـ ﴿أغنى﴾ و ﴿ما﴾ الثانية في موضع رفع، ويجوز أن تكون الثانية نفياً لا موضع لها. وقيل: ﴿ما﴾ الأولى حرف نفي، و ﴿ما﴾ الثانية في موضع رفع بـ ﴿أغنى﴾ والهاء العائدة محذوفة. والتقدير: ما أغنى عنهم الزمان الذي كانوا يمتعونه. وعن الزهري: إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ ثم يبكي ويقول:

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلُك نومٌ والرَّدَى لك لازمُ

فلا أنتَ في الأَيقاظ يقظانُ حازمٌ ... ولا أنتَ في النُّوَّام ناجٍ فسالمُ

تُسَرُّ بما يَفْنَى وتفرحُ بالمنى ... كما سُرّ باللذات في النوم حالمُ

وتَسعى إلى ما سوف تكره غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تَعيشُ البهائمُ

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ صلة؛ المعنى: وما أهلكنا قرية. ﴿إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ أي رسل. ﴿ذِكْرَى﴾. قال الكسائي: ﴿ذِكْرَى﴾ في موضع نصب على الحال. النحاس: وهذا لا يحصل، والقول فيه قول الفراء وأبي إسحاق أنها في موضع نصب على المصدر؛ قال الفراء: أي يذكّرون ذكرى؛ وهذا قول صحيح، لأن معنى ﴿إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ إلا لها مذكّرون. و ﴿ذِكْرَى﴾ لا يتبين فيه الإعراب؛ لأن فيها ألفاً مقصورة. ويجوز ﴿ذِكْرًى﴾ بالتنوين، ويجوز أن يكون ﴿ذِكرى﴾ في موضع رفع على إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي إنذارنا ذكرى. وقال الفراء: أي ذلك ذكرى، وتلك ذكرى. وقال ٱبن الأنباري قال بعض المفسرين: ليس في ﴿الشعراء﴾ وقف تام إلا قوله: ﴿إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ وهذا عندنا وقف حسن؛ ثم يبتدىء ﴿ذِكرى﴾ على معنى هي ذكرى أي يذكرهم ذكرى، والوقف على ﴿ذِكرى﴾ أجود. ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم.

[٢١٠] ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠﴾.

[٢١١] ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾.

[٢١٢] ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾.

[٢١٣] ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ يعني القرآن بل ينزل به الروح الأمين. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي برمي الشهب كما مضى في سورة ﴿الحِجرِ﴾[١] بيانه. وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمَيْقَع ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ﴾ قال المهدي: وهو غير جائز في العربية ومخالف للخط. وقال النحاس: وهذا غلط عند جميع النحويين؛ وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: هذا غلط عند العلماء، إنما يكون بدخول شبهة؛ لما رأى الحسن في آخره ياء ونوناً وهو في موضع رفع ٱشتبه عليه بالجمع المسلّم فغلط، وفي الحديث: «ٱحذروا زلّة العالم» وقد قرأ هو مع الناس ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ ولو كان هذا بالواو في موضع رفع لوجب حذف النون للإضافة. وقال الثعلبي قال الفراء: غلط الشيخ ـ يعني الحسن ـ فقيل ذلك للنضر بن شُمَيل فقال: إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج وذويهما جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه مع أنا نعلم أنهما لم يقرأا بذلك إلا وقد سمعا في ذلك شيئاً؛ وقال المؤرِّج: إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه. وقال يونس بن حبيب: سمعت أعرابياً يقول دخلنا بساتين من ورائها بساتون؛ فقلت: ما أشبه هذا بقراءة الحسن.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ قيل: المعنى قل لمن كفر هذا. وقيل: هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا؛ لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره. ودل على هذا قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ أي لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم.

---

(١) راجع ١٠/ ١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

[٢١٤] ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

[٢١٥] ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

[٢١٦] ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

[٢١٧] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾.

[٢١٨] ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾.

[٢١٩] ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾.

[٢٢٠] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ خصّ عشيرته الأقربين بالإنذار؛ لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشِّرك. وعشيرته الأقربون قريش. وقيل: بنو عبد مناف. ووقع في «صحيح مسلم»: «وأنذِر عشِيرتك الأقربِين ورهطك مِنهم المخلَصِين». وظاهر هذا أنه كان قرآناً يتلى وأنه نسخ؛ إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر. ويلزم على ثبوته إشكال؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألا ينذر إلا من آمن من عشيرته؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حب النبي ﷺ لا المشركون؛ لأنهم ليسوا على شيء من ذلك، والنبي ﷺ دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم ﷺ؛ فلم يثبت ذلك نقلاً ولا معنى. وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمّ وخصّ فقال: «يا بني كعب بن لؤيّ أنقذوا أنفسكم من النار يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رَحِماً سَأَبُلُّها بِبلالها»[1].

(١) «سأبلها ببلالها»: أي أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئاً.

الثانية - في هذا الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته؛ لقوله: «إن لكم رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبِلالها» وقوله عز وجل: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الآية، على ما يأتي بيانه هناك.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدّم في سورة ﴿الحِجرِ﴾ و ﴿سبحان﴾ يقال: خفض جناحه إذا لاَنَ. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي خالفوا أمرك. ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي بريء من معصيتكم إياي؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل؛ لأنه عليه السلام لا يأمر إلا بما يرضاه، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذي لا يغالب، الرحيم الذي لا يخذل أولياءه. وقرأ العامة ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بالواو وكذلك هو في مصاحفهم.

وقرأ نافع وٱبن عامر ﴿فتوَكّل﴾ بالفاء وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام. ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي حين تقوم إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين: ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: يعني حين تقوم حيثما كنت. ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: في المصلِّين. وقال ٱبن عباس: أي في أصلاب الآباء آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبيّاً. وقال عكرمة: يراك قائماً وراكعاً وساجداً؛ وقاله ٱبن عباس أيضاً. وقيل: المعنى؛ إنك ترى بقلبك في صلاتك مَن خلفك كما ترى بعينيك مَن قدامك. وروي عن مجاهد؛ ذكره الماورديّ والثعلبيّ. وكان عليه السلام يرى مَن خلفه كما يرى من بين يديه، وذلك ثابت في الصحيح وفي تأويل الآية بعيد. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تقدم.

[٢٢١] ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ ﴾.

[٢٢٢] ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

[٢٢٣] ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إنما قال: ﴿تَنَزَّلُ﴾ لأنها أكثر ما تكون في الهواء، وأنها تمر من الريح. ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ تقدم في ﴿الحجر﴾. فـ ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ صفة الشياطين ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ يرجع إلى الكهنة. وقيل: إلى الشياطين.

[٢٢٤] ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

[٢٢٥] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾.

[٢٢٦] ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

[٢٢٧] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء؛ قال ٱبن عباس: هم الكفار ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ ضلاّل الجن والإنس. وقيل: ﴿الْغَاوُونَ﴾ الزائلون عن الحق، ودل بهذا أن الشعراء أيضاً غاوون؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك. وقد قدّمنا في سورة ﴿النور﴾[1] أن من الشعر ما يجوز إنشاده، ويكره، ويحرم. روى مسلم من حديث عمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: ردِفت رسول الله ﷺ [يوماً][2] فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصَّلْت شيء» قلت: نعم. قال: «هِيه» فأنشدته بيتاً. فقال: «هِيه» ثم أنشدته بيتاً. فقال: «هِيه» حتى أنشدته مائة بيت. هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته. وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم: عن عمرو بن الشَّريد عن الشَّريد أبيه؛ وهو وَهَم؛ لأن الشَّريد هو الذي أردفه رسول الله ﷺ. وٱسم أبي الشَّريد سُوَيْد. وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحِكَم والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً، وإنما ٱستكثر النبي ﷺ من شعر أمية؛ لأنه

(١) راجع ١٢/ ٢٧١ طبعة أولى أو ثانية.
(٢) الزيادة من «صحيح مسلم».

كان حكيماً؛ ألا ترى قوله عليه السلام: «وكاد أمية بن أبي الصَّلت أن يسلم» فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه؛ كقول القائل:

الحمـــد لله العلـــيّ المنّـــان ... صار الثريد في رؤوس العيدان[١]

أو ذكر رسول الله ﷺ أو مدحه كقول العباس:

مِن قبلها طِبْتَ في الظِّلال وفي مُسْـ ... ـتودعٍ حيث يُخصَفُ الورقُ
ثـم هبطـت البـلاد لا بشـرٌ أنـ ... ـتَ ولا مُضْغـةٌ ولا عَلَـقُ
بل نطفة تركب السَّفِينَ وقد أَلْـ ... ـجَمَ نَسْـراً وأهلَـه الغَـرَقُ
تنقـلُ مِـن صَـالـبٍ إلـى رَحِـمٍ ... إذَا مَضَـى عـالَـمٌ بَـدَا طَبَـقُ[٢]

فقال له النبي ﷺ: «لا يَفْضُضِ الله فاك». أو الذبّ عنه كقول حسان:

هجـوتَ محمـداً فـأجبـتُ عنـه ... وعنـد اللَّـهِ فـي ذاك الجـزاءُ

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه وهي في السير أتم. أو الصلاة عليه؛ كما روى زيد بن أسلم؛ خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت، وإذا عجوز تنفش صوفاً وتقول:

علـى محمـدٍ صـلاةُ الأبـرارْ ... صلـى عليـه الطيِّبـون الأخيـارْ
قـد كنـتَ قـوّامـاً بُكـاً بـالأسحـارْ ... يـا ليـتَ شِعْـري والمنـايـا أطـوارْ
هـــل يَجمعنِّـــي وحبيبـــي الـــدارْ

يعني النبي ﷺ؛ فجلس عمر يبكي. وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضي الله عنهم؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال:

إنِّي رضيتُ عليًا للهُدَى عَلَماً ... كما رضيتُ عَتيقاً صاحبَ الغارِ
وقـد رضيـتُ أبـا حفـصٍ وشيعتَـهُ ... وما رضيتُ بقتل الشيخِ في الدارِ
كلُّ الصحابة عندي قُدوةٌ عَلَمٌ ... فهـل علـيّ بهـذا القـول مـن عـارِ
إن كنـتَ تعلـم أنِّـي لا أحبُّهُـم ... إلا من أجلك فاعتقني من النار

---

(١) كذا في «الأصول». (٢) طبق: قرن. أراد إذا مضى قرن ظهر قرن آخر.

وقال آخر فأحسن:

حُبُّ النبيِّ رسول الله مُفترَضٌ ... وحُبُّ أصحابِه نورٌ ببرهانِ
من كان يعلم أن الله خالقه ... لا يَرمينَّ أبا بكرٍ ببهتانِ
ولا أبا حفصٍ الفاروقَ صاحبَه ... ولا الخليفةَ عثمان بن عفانِ
أمّا عليٌّ فمشهورٌ فضائلُه ... والبيت لا يَستوِي إلا بأركانِ

قال آبن العربي: أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن آستغرقت الحد وتجاوزت المعتاد: فبذلك يضرِب الملك الموكَّل بالرؤيا المَثَل، وقد أنشد كعب بن زهير النبي ﷺ:

بانت سعادُ فقلبي اليومَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لم يُفْدَ مَكْبُولُ
وما سُعادُ غداة البَيْن إذ رَحَلُوا ... إلا أَغَنُّ غَضيضُ الطَّرْفِ مَكحولُ
تَجلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إذا آبتسمتْ ... كأنَّه مُنْهَلٌ بالرَّاح مَعْلولُ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع، والنبي ﷺ يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح. وأنشد أبو بكر رضي الله عنه[1]:

فَقَدْنا الوحيَ إذ ولَّيتَ عنّا ... ووَدَّعَنا من الله الكلامُ
سوى ما قد تركتَ لنا رهيناً ... تَوارثه القَرَاطيسُ الكرامُ
فقد أورثتنا ميراثَ صدقٍ ... عليك به التحيةُ والسلامُ

فإذا كان رسول الله ﷺ يسمعه وأبو بكر ينشده، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا. قال أبو عمر: ولا ينكر الحسنَ من الشعر أحدٌ من أهل العلم ولا من أولي النُّهى، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحاً، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله؛ وروى أبو هريرة قال

---

(١) قال ذلك في رثاء النبي ﷺ.

سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «أصدق كلمة ـ أو أشعر كلمة ـ قالتها العرب قول لبِيد:

أَلَا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللَّه باطلُ»

أخرجه مسلم وزاد «وكاد أمية بن أبي الصَّلْت أن يُسلِم» وروي عن ابن سيرين أنه أنشد شعراً فقال له بعض جلسائه: مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر. فقال: ويلك يا لُكَع! وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي، فحسنه حسن وقبيحه قبيح! قال: وقد كانوا يتذاكرون الشعر. قال: وسمعت ابن عمر ينشد:

يُحِبُّ الخمرَ من مال النَّدامَى ويَكرهُ أن يفارقَهُ الفَلُوسُ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعراً مجيداً مقدَّماً فيه. وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب، وكانت له زوجة حسنة تسمى عَثْمة فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها، وله فيها أشعار كثيرة؛ منها قوله:

تَغلغلَ حُبُّ عَثْمةَ في فؤادي فباديه مع الخافي يسيرُ
تَغلغلَ حيث لم يبلغ شَرابٌ ولا حزنٌ ولم يبلغ سرورُ
أكاد إذا ذكرتُ العهدَ منها أطير لو أن إنساناً يَطيرُ

وقال ابن شهاب: قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلك! فقال: إن المصدور إذا نفث برأ.

الثانية ـ وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحّهم على حاتم، وأن يبهتوا البريء ويفسقوا التقيّ، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبة في تسلية النفس وتحسين القول؛ كما روي عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فبِتْنَ بجانبيَّ مُصَرَّعاتٍ[1] وبِتُّ أُفُضُّ أغلاقَ الخِتامِ

(١) مصرعات: سكارى.

فقال: قد وجب عليك الحد. فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. وروي أن النعمان بن عِديّ بن نَضْلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

مَنْ مُبْلِغُ الحسناءِ أنّ حليلَها ... بمَيْسانَ يُسقَى في زُجاجٍ وحَنْتَمِ
إذا شئتُ غنتني دَهاقينُ قريةٍ ... ورقّاصةٌ تَجْذو[1] على كلّ مَنْسِمِ
فإن كنتَ نَدْماني فبالأكبر اسقِني ... ولا تَسقِني بالأصغر المتثلِّم
لَعلَّ أميرَ المؤمنين يَسوءُه ... تَنادُمُنا بالْجَوْسَقِ[2] المتهدِّم

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقُدوم عليه. وقال: إي والله إني ليسوءني ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئاً مما قلت؛ وإنما كانت فضلة من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فقال له عمر: أما عذرك فقد درأ عنك الحد؛ ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلتَ ما قلتَ. وذكر الزبير بن بكار قال: حدّثني مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم يكن له همٌّ إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة: إني قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث فإذا أتاك كتابي هذا فاشدد عليهما واحملهما إليّ. فلما أتاه الكتاب حملهما إليه، فأقبل على عمر؛ فقال: هيه!.

فلم أرَ كالتَّجميرِ منظَرَ ناظر ... ولا كليالي الحج أَفْلَتْن ذا هَوَى
وكم مالىءٍ عينيه من شيءِ غيرِه ... إذا راح نحو الجمرةِ البيضُ كالدُّمَى

أما والله لو اهتممت بحجك لم تنظر إلى شيء غيرك؛ فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون! ثم أمر بنفيه. فقال: يا أمير المؤمنين! أو خير من ذلك؟ فقال: ما هو؟ قال: أعاهد الله أني لا أعود إلى مثل هذا الشعر، ولا أذكر النساء في شعر أبداً، وأجدّد توبة؛ فقال: أو تفعل؟ قال: نعم؛ فعاهد الله على توبته وخلاه؛ ثم دعا بالأحوص، فقال هيه!

الله بيني وبينَ قيِّمها ... يَفِرُّ منِّي بها وأَتْبَعُ

---

(١) تجذو: تقوم على أطراف الأصابع. (٢) الجوسق: القصر؛ فارسي معرب.

بل الله بين قيمها وبينك! ثم أمر بنفيه؛ فكلمه فيه رجال من الأنصار فأبى، وقال: والله لا أردّه ما كان لي سلطان، فإنه فاسق مجاهر. فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه، فلا يحل سماعه ولا إنشاده في مسجد وفي غيره، كمنثور الكلام القبيح ونحوه. وروى إسماعيل بن عَيَّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «حَسنُ الشعر كحسَن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام» رواه إسماعيل عن عبد الله الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره. وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ: «الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام».

الثالثة - روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ يمتلىءَ جوفُ أحدكم قيحاً حتى يَرِيَه خيرٌ من أن يمتلىء شعراً» وفي «الصحيح» أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ عرض شاعر يُنشد فقال رسول الله ﷺ: «خذوا الشيطان ـ أو أمسكوا الشيطان ـ لأَنْ يمتلىءَ جوفُ رجلٍ قيحاً خيرٌ له من أن يمتلىءَ شعراً» قال علماؤنا: وإنما فعل النبي ﷺ هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله؛ فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقاً للتكسب، فيفرط في المدح إذا أُعطي، وفي الهجو والذم إذا مُنع، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم. ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام. وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه، ولا يحل الإصغاء إليه؛ بل يجب الإنكار عليه؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعاً تعين عليه أن يداريه بما استطاع، ويدافعه بما أمكن، ولا يحل له أن يعطي شيئاً ابتداء، لأن ذلك عون على المعصية؛ فإن لم يجد من ذلك بدًّا أعطاه بنية وقاية العِرض؛ فما وَقَى به المرءُ عرضه كُتب له به صدقة. قوله: «لأَنْ يمتلىءَ جوفُ أحدكم قيحاً حتى يَرِيَه» القيح المِدّة يخالطها دم. يقال منه: قاح الجُرح يَقِيح وتَقيّح وقَيّح. و«يَرِيه» قال الأصمعي: هو من الوَرْي على

مثال الرمي وهوأن يَدْوَى جوفه، يقال منه: رجل مَوْرِيْ مشدّد غير مهموز. وفي «الصحاح»: وَرَى القيحُ جوفَه يَرِيه ورياً إذا أكله. وأنشد اليزيدي:

قــالــت لــه وَرْيــاً إذا تَنحنحَــا

وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله: إنه الذي قد غلب عليه الشعر، وأمتلأ صدره منه دون علم سواه ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثر من اللغط والهَذَر والغيبة وقبيح القول. ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية، لحكم العادة الأدبية. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في «صحيحه» لما بوّب على هذا الحديث «باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر». وقد قيل في تأويله: إن المراد بذلك الشعر الذي هُجيَ به النبيّ ﷺ أو غيره. وهذا ليس بشيء؛ لأن القليل من هجو النبيّ ﷺ وكثيره سواء في أنه كفر ومذموم، وكذلك هجو غير النبيّ ﷺ من المسلمين محرّم قليله وكثيره، وحينئذ لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى.

الرابعة ـ قال الشافعي: الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمّناته، وقد كان عند العرب عظيم الموقع. قال الأُوَل منهم:

وجُــرح اللســانِ كجُــرْح اليــد

وقال النبيّ ﷺ في الشعر الذي يردّ به حسان على المشركين: «إنه لأسرع فيهم من رَشْق النَّبْل» أخرجه مسلم. وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ دخل مكة في عُمرة القضاء وعبد الله بن رَوَاحة يمشي بين يديه ويقول:

خَلُّوا بني الكفَّار عن سبيله ... اليومَ نَضربْكُمْ على تنزيله
ضرباً يزيلُ الهامَ عن مَقِيلِه ... ويُذهِلُ الخليلَ عن خليله

فقال عمر: يابن رَواحة! في حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ «خَلِّ عنه يا عمر فلهو أسرعُ فيهم من نَضح النَّبْل».

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ لم يختلف القراء في رفع ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ فيما علمت. ويجوز النصب على إضمار فعل يفسره ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ وبه قرأ عيسى بن عمر؛ قال أبو عبيد: كان الغالب عليه حب النصب؛ قرأ ﴿وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ﴾ و ﴿حَمَّالَةَ الحَطَب﴾ و ﴿سُورَةً أَنْزَلْنَاهَا﴾. وقرأ نافع وشيبة والحسن والسّلَميّ ﴿يَتْبَعهُمْ﴾ مخففاً. الباقون ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ وقال الضحاك: تهاجى رجلان أحدهما أنصاريّ والآخر مهاجريّ على عهد رسول الله ﷺ مع كل واحد غواةُ قومه وهم السفهاء فنزلت؛ وقاله ٱبن عباس. وعنه هم الرواة للشعر. وروى عنه عليّ بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضُلَّال الجن والإنس؛ وقد ذكرناه. وروى غُضَيْف[1] عن النبيّ ﷺ: «من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه» وعن ٱبن عباس أن النبيّ ﷺ لما ٱفتتح مكة رَنّ[2] إبليس رنة وجمع إليه ذريته؛ فقال ٱيئسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا؛ ولكن أفشوا فيهما ـ يعني مكة والمدينة ـ الشِّعر.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ﴾ يقول: في كل لغو يخوضون، ولا يتبعون سَنَنَ الحق؛ لأن من ٱتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تثبت، ولم يكن هاهنا يذهب على وجهه لا يبالي ما قال. نزلت في عبد الله بن الزِّبَعْرِيّ ومُسافِع بن عبد مناف وأمية بن أبي الصلت. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ يقول: أكثرهم يكذبون؛ أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه. وقيل: إنها نزلت في أبي عزة الجُمَحيّ حيث قال:

أَلاَ أبلغا عنّي النبيَّ محمداً ... بأنَّكَ حَقٌّ والمليكُ حميدُ
وَلكنْ إذَا ذُكِّرتُ بَدْراً وأهلَهُ ... تَأَوَّهَ منّي أعظمٌ وجلودُ

ثم ٱستثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق؛ فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ في كلامهم ﴿وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق،

(١) في نسخة: خصيف.
(٢) رن: صاح صيحة حزينة.

ومما حدّه الله عز وجل، فإن تجاوز ذلك فقد ٱنتصر بالباطل. وقال أبو الحسن المبرّد: لما نزلت ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ جاء حسان وكعب بن مالك وابن رَوَاحة يبكون إلى النبي ﷺ؛ فقالوا: يا نبي الله! أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلم أنا شعراء؟ فقال: «ٱقرءوا ما بعدها ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ـ الآية ـ أنتم ﴿وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أنتم» أي بالرد على المشركين. قال النبي ﷺ: «انتصِروا ولا تقولوا إلا حقاً ولاتذكروا الآباء والأمهات» فقال حسان لأبي سفيان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعندَ الله في ذاك الجزاءُ
وإنّ أبي ووالدتي وعِرْضي ... لعِرضِ محمدٍ منكم وِقاءُ
أتشتمه ولستَ له بكفءٍ ... فشركما لخيركما الفِداءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيهِ ... وبحري لا تُكدِّره الدِّلاءُ

وقال كعب يا رسول الله! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه؟ فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نَضْح النَّبل». وقال كعب:

جاءت سَخِينةُ[1] كي تُغَالبَ ربَّها ... ولَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ

فقال النبيّ ﷺ: «لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا». وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ منسوخ بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. قال المهدوي: وفي «الصحيح» عن ٱبن عباس أنه ٱستثناء. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ في هذا تهديد لمن ٱنتصر بظلم [أي][2] سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل؛ فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصرة. وقرأ ٱبن عباس ﴿أَيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ﴾ بالفاء والتاء ومعناهما واحد. الثعلبي: ومعنى ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون؛ لأن مصيرهم إلى

(١) السخينة: طعام حار يتخذ من دقيق وسمن ـ وقيل من دقيق وتمر ـ أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة، وكانت قريش تكثر من أكلها فعيرت بها حتى سموا سخينة.
(٢) زيادة يقتضيها السياق.

النار، وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع. والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضدّ ما هو فيه، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع منقلباً، وليس كل منقلب مرجعاً؛ والله أعلم؛ ذكره الماوردي. و ﴿أَيَّ﴾ منصوب بـ ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ ﴿سَيَعْلَمُ﴾ لأن أياً وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكر النحويون؛ قال النحاس: وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض.

سورة النمل

مكية كلها في قول الجميع، وهي ثلاث وتسعون آية وقيل: أربع وتسعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿ طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾.

[٢] ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

[٣] ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

[٤] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

[٥] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

[٦] ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ مضى الكلام في الحروف المقطعة في ﴿البقرة﴾ وغيرها. و ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى هذه؛ أي هذه السورة آيات القرآن وآيات كتاب مبين. وذكر القرآن بلفظ المعرفة، وقال: ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ بلفظ النكرة وهما في معنى المعرفة؛ كما تقول: فلان رجل عاقل وفلان الرجل العاقل. والكتاب هو القرآن، فجمع له بين الصفتين: بأنه قرآن وأنه كتاب؛ لأنه ما يظهر بالكتاب، ويظهر بالقراءة. وقد مضى

آشتقاقهما في ﴿البقرة﴾. وقال في سورة ﴿الحجر﴾: ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة؛ وذلك لأن القرآن والكتاب آسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة، وأن يجعل صفة. ووصفه بالمبين لأنه بين فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده؛ وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿هُدًى﴾ في موضع نصب على الحال من الكتاب؛ أي تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة. ويجوز فيه الرفع على الابتداء؛ أي هو هدى. وإن شئت على حذف حرف الصفة؛ أي فيه هدى. ويجوز أن يكون الخبر ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وقد مضى في أوّل ﴿البقرة﴾ بيان هذا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي لا يصدّقون بالبعث. ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ قيل: أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة. وقيل: زينا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها. وقال الزجاج: جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يترددون في أعمالهم الخبيثة، وفي ضلالتهم. عن ابن عباس. أبو العالية: يتمادون. قتادة: يلعبون. الحسن: يتحيرون؛ قال الراجز:

ومَهْمَـهٍ أطـرافُـه فـي مَهْمَـهِ أَعْمَى الهُدَى بالحائرين العُمَّه[1]

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِين لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو جهنم ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ تبيين وليس بمتعلق بالأخسرين فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ أي يلقى عليك فتلقاه وتعلمه وتأخذه. ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿لَدُنْ﴾ بمعنى عند إلا أنها مبنية غير معربة؛ لأنها لا تتمكن، وفيها لغات ذكرت في ﴿الكهف﴾[2]. وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

---

(١) البيت لرؤبة، ويروى: بالجاهلين العمه.

(٢) راجع ١٠/ ٣٥٢ طبعة أولى أو ثانية.

[٧] ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

[٨] ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾.

[٩] ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

[١٠] ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

[١١] ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ ﴿إِذْ﴾ منصوب بمضمر وهو أذكر؛ كأنه قال على أثر قوله ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ خذ يا محمد من آثار حكمته وعلمه قصة موسى إذ قال لأهله. ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ أي أبصرتها من بعد. قال الحرث بن حِلِّزَة:

آنســـتْ نَبْـــأَةً وأفـــزعَهَـــا القنَّـ ـــاصُ عصـراً وقـدْ دنَـا الإمسـاءُ[١]

﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿بِشهابٍ قبسٍ﴾ بتنوين ﴿شهاب﴾. والباقون بغير تنوين على الإضافة؛ أي بشعلة نار؛ وأختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وزعم الفرّاء في ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم: ولدار الآخرة، ومسجد الجامع، وصلاة الأولى؛ يضاف الشيء إلى نفسه إذا أختلفت أسماؤه. قال النحاس: إضافة الشيء إلى نفسه محال عند البصريين، لأن معنى الإضافة في اللغة ضم شيء إلى شيء

---

(١) آنست: أحست. والنبأة: الصوت الخفي.

فمحال أن يضم الشيء إلى نفسه، وإنما يضاف الشيء إلى الشيء ليتبين به معنى الملك أو النوع، فمحال أن يتبين أنه مالك نفسه أو من نوعها. و ﴿شِهابِ قبسٍ﴾ إضافة النوع والجنس، كما تقول: هذا ثوبُ خزٍّ، وخاتمُ حديدٍ وشبهه. والشهاب كل ذي نُور؛ نحو الكوكب والعُود الموقَد. والقَبس ٱسم لما يقتبس من جمر وما أشبهه؛ فالمعنى بشهاب من قبس. يقال: أقبست قبساً؛ والاسم قبس. كما تقول: قبضت قبضاً. والاسم القبض. ومن قرأ ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ جعله بدلاً منه. المهدوي: أو صفة له؛ لأن القبس يجوز أن يكون ٱسماً غير صفة، ويجوز أن يكون صفة؛ فأما كونه غير صفة فلأنهم قالوا قبسته أقبسه قبساً والقبس المقبوس؛ وإذا كان صفة فالأحسن أن يكون نعتاً. والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن. وهي إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه. ولو قرىء بنصب قبس على البيان أو الحال كان أحسن. ويجوز في غير القرآن بشهابٍ قبساً على أنه مصدر أو بيان أو حال. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أصل الطاء تاء فأبدل منها هنا طاء؛ لأن الطاء مطبقة والصاد مطبقة فكان الجمع بينهما حسناً، ومعناه يستدفئون من البرد. يقال: ٱصطلى يصطلي إذا ٱستدفأ. قال الشاعر:

النارُ فاكهةُ الشتاءِ فمن يُردْ أكلَ الفواكهِ شاتياً فليصطلِ

الزَّجاج: كل أبيض ذي نُور فهو شهاب. أبو عبيدة: الشهاب النار. قال أبو النّجم:

كأنما كان شهاباً واقدَا أضاء ضوءاً ثم صار خامدَا

أحمد بن يحيى: أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه؛ وقول النحاس فيه حسن: والشهاب الشعاع المضيء ومنه الكوكب الذي يمد ضوءه في السماء. وقال الشاعر:

في كفّه صَعْدَةٌ[1] مثقَّفةٌ فيها سِنانٌ كشُعْلةِ القَبَسِ

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي فلما جاء موسى الذي ظن أنه نار وهي نور؛ قاله وهب بن منبه. فلما رأى موسى النار وقف قريباً منها، فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العُلَّيق، لا تزداد النار إلا عظماً وتضرّماً، ولا تزداد الشجرة

---

(١) الصعدة: القناة التي تنبت مستقيمة.

إلا خضرة وحسناً؛ فعجب منها وأهوى إليها بضِغث في يده ليقتبس منها؛ فمالت إليه؛ فخافها فتأخر عنها؛ ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن وضح أمرها على أنها مأمورة لا يدري من أمرها، إلى أن ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. وقد مضى هذا المعنى في ﴿طه﴾ ﴿نُودِيَ﴾ أي ناداه الله؛ كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾. ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ قال الزجاج: ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب؛ أي بأنه. قال: ويجوز أن تكون في موضع رفع جعلها ٱسم ما لم يسم فاعله. وحكى أبو حاتم أن في قراءة أبيّ وٱبن عباس ومجاهد ﴿أن بوركت النار ومن حولها﴾. قال النحاس: ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح، ولو صح لكان على التفسير، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى. وحكى الكسائي عن العرب: باركك الله، وبارك فيك. الثعلبي: العرب تقول باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، أربع لغات. قال الشاعر:

فبوركتَ مولوداً وبوركتَ ناشِئاً وبوركتَ عند الشَّيبِ إذ أنتَ أشيبُ

الطبريّ: قال ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ ولم يقل بورك [في من في][1] النار على لغة من يقول باركك الله. ويقال باركه الله، وبارك له، وبارك عليه، وبارك فيه بمعنًى؛ أي بورك على من في النار وهو موسى، أو على من في قرب النار؛ لا أنه كان في وسطها. وقال السدي: كان في النار ملائكة فالتبريك عائد إلى موسى والملائكة؛ أي بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين هم حولها. وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له، كما حيّا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه؛ قال: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾. وقول ثالث قاله ٱبن عباس والحسن وسعيد بن جبير: قدَّس مَن في النار وهو الله سبحانه وتعالى، عنى به نفسه تقدّس وتعالى. قال ٱبن عباس ومحمد بن كعب: النار نور الله عز وجل؛ نادى الله موسى وهو في النور؛ وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نوراً عظيماً فظنه ناراً؛ وهذا لأن الله تعالى ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار لا أنه يتحيز في جهة ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾

(١) الزيادة من تفسير الطبري.

لا أنه يتحيز فيهما، ولكن يظهر في كل فعل فيعلَم به وجود الفاعل. وقيل على هذا: أي بورك من في النار سلطانه وقدرته. وقيل: أي بورك ما في النار من أمر الله تعالى الذي جعله علامة.

قلت: ومما يدل على صحة قول ٱبن عباس ما خرّجه مسلم في «صحيحه»، وٱبن ماجه في «سننه» واللفظ له عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض[1] القِسط ويرفعه حجابه النور لو كشفها لأحرقت سُبُحات وجهه كل شيء أدركه بصره» ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أخرجه البيهقي أيضاً. ولفظ مسلم عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات؛ فقال: «إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يُرفَع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار وعملُ النهار قبل عمل الليل حجابه النور ـ وفي رواية أبي بكر النار ـ لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما ٱنتهى إليه بصرُه من خلقه» قال أبو عبيد: يقال السُّبُحات إنها جلال وجهه، ومنها قيل: سبحان الله إنما هو تعظيم له وتنزيه. وقوله: «لو كشفها» يعني لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم يثبّتهم لرؤيته لاحترقوا وما ٱستطاعوا لها. قال ٱبن جُريج: النار حجاب من الحجب وهي سبعة حجب؛ حجاب العزّة، وحجاب الملك، وحجاب السلطان، وحجاب النار، وحجاب النّور، وحجاب الغمام، وحجاب الماء. وبالحقيقة فالمخلوق المحجوب والله لا يحجبه شيء؛ فكانت النار نوراً وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه ناراً، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر. وقال سعيد بن جبير: كانت النار بعينها فأسمعه تعالى كلامه من ناحيتها، وأظهر له ربوبيته من جهتها، وهو كما روي أنه مكتوب في التوراة: «جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير وٱستعلى من جبال فاران». فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها، وإشرافه من ساعير بعثه المسيح منها، وٱستعلاؤه من فاران بعثه محمداً ﷺ، وفاران مكة. وسيأتي في ﴿القصص﴾ بإسماعه سبحانه كلامه من الشجرة زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

---

(١) لعل تأنيث الضمير بتأويل النور بالأنوار. (هامش ٱبن ماجه).

قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تنزيهاً وتقديساً لله رب العالمين. وقد تقدّم في غير موضع، والمعنى: أي ويقول من حولها ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ فحذف. وقيل: إن موسى عليه السلام قاله حين فرغ من سماع النداء؛ ٱستعانة بالله تعالى وتنزيهاً له؛ قاله السدي. وقيل: هو من قول الله تعالى. ومعناه: وبورك فيمن سبح الله تعالى رب العالمين؛ حكاه ٱبن شجرة.

قوله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الهاء عماد وليست بكناية في قول الكوفيين. والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن. ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي ليس كمثله شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وفعله. وقيل: قال موسى يا رب من الذي نادى؟ فقال له: ﴿إِنَّهُ﴾ أي إني أنا المنادي لك ﴿أَنَا اللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ قال وهب بن منبه: ظن موسى أن الله أمره أن يرفضها فرفضها. وقيل: إنما قال له ذلك ليعلم موسى أن المكلِّم له هو الله، وأن موسى رسوله؛ وكل نبيّ لا بدّ له من آية في نفسه يعلم بها نبوّته. وفي الآية حذف: أي وألق عصاك فألقاها من يده فصارت حية تهتز كأنها جانّ، وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم. وقال الكلبي: لا صغيرة ولا كبيرة. وقيل: إنها قلبت له أوّلاً حية صغيرة فلما أنس منها قلبت حية كبيرة. وقيل: ٱنقلبت مرة حية صغيرة، ومرة حية تسعى وهي الأنثى، ومرة ثعباناً وهو الذكر الكبير من الحيات. وقيل: المعنى ٱنقلبت ثعباناً تهتز كأنها جانّ لها عظم الثعبان وخفة الجانّ وٱهتزازه وهي حية تسعى. وجمع الجانّ جِنّان؛ ومنه الحديث «نهى عن قتل الجِنّان التي في البيوت». ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ خائفاً على عادة البشر ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: لم يلتفت. ﴿يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ﴾ أي من الحية وضررها. ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ وتم الكلام ثم ٱستثنى ٱستثناء منقطعاً فقال: ﴿إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ﴾. وقيل: إنه ٱستثناء من محذوف؛ والمعنى: إني لا يخاف لديّ المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ فإنه لا يخاف؛ قاله الفرّاء.

قال النحاس: آستثناء من محذوف محال؛ لأنه آستثناء من شيء لم يذكر ولو جاز هذا لجاز إني لأضرب القوم إلا زيداً بمعنى إني لا أضرب القوم وإنما أضرب غيرهم إلا زيداً؛ وهذا ضدّ البيان، والمجيء بما لا يعرف معناه. وزعم الفراء أيضاً: أن بعض النحويين يجعل إلا بمعنى الواو أي ولا من ظلم؛ قال:

وكــلُّ أخٍ مفــارقُــه أخــوهُ لَعَمْـرُ أبيـكَ إلا الفَـرْقَـدانِ

قال النحاس: وكون ﴿إلاَّ﴾ بمعنى الواو لا وجه له ولا يجوز في شيء من الكلام، ومعنى ﴿إلاّ﴾ خلاف الواو؛ لأنك إذا قلت: جاءني إخوتك إلا زيداً أخرجت زيداً مما دخل فيه الإخوة فلا نسبة بينهما ولا تقارب. وفي الآية قول آخر: وهو أن يكون الاستثناء متصلاً؛ والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحداً، سوى ما روي عن يحيي بن زكريا عليه السلام، وما ذكره الله تعالى في نبينا عليه السلام في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ذكره المهدوي وآختاره النحاس؛ قال: علِم الله من عصى منهم [يُسرّ الخيفة][1] فآستثناه فقال: ﴿إلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ فإنه يخاف وإن كنت قد غفرت له. الضحاك: يعني آدم وداود عليهما السلام. الزمخشري: كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف، ومن موسى عليه السلام بوكزه القبطي. فإن قال قائل: فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة؟ قيل له: هذه سبيل العلماء بالله عز وجل أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين، وهم أيضاً لا يأمنون أن يكون قد بقى من أشراط التوبة شيء لم يأتوا به، فهم يخافون من المطالبة به. وقال الحسن وآبن جريج: قال الله لموسى إني أخفتك لقتلك النفس. قال الحسن: وكانت الأنبياء تذنب فتعاقَب. قال الثعلبي والقشيري والماوردي وغيرهم: فالاستثناء على هذا صحيح؛ أي إلا من ظلم نفسه من النبيين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة. وكان موسى خاف من قتل القبطي وتاب منه. وقد قيل: إنهم بعد النبوّة معصومون من الصغائر والكبائر. وقد مضى هذا في ﴿البقرة﴾[2].

---

(١) الزيادة من «إعراب القرآن» للنحاس. (٢) راجع ٣٠٨/١ وما بعدها طبعة ثانية وثالثة.

قلت: والأوّل أصح لتنصلهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة، وإذا أحدث المقرَّب حدثاً فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة، والمتهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدّر عليه صفاء الثقة. وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث في ذلك الفرعوني، ثم ٱستغفر وأقر بالظلم على نفسه، ثم غفر له، ثم قال بعد المغفرة ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ثم ٱبتلي من الغد بالفرعوني الآخر وأراد أن يبطش به، فصار حدثاً آخر بهذه الإرادة. وإنما ٱبتلي من الغد لقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ وتلك كلمة ٱقتدار من قوله لن أفعل، فعوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل، فسلط عليه الإسرائيلي حتى أفشى سره؛ لأن الإسرائيلي لما رآه تشمر للبطش ظن أنه يريده، فأفشى عليه فـ ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ﴾ فهرب الفرعوني وأخبر فرعون بما أفشى الإسرائيلي على موسى، وكان القتيل بالأمس مكتوماً أمره، لا يدري من قتله، فلما علم فرعون بذلك، وجه في طلب موسى ليقتله، وٱشتد الطلب وأخذوا مجامع الطرق؛ جاء رجل يسعى فـ ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الآية. فخرج كما أخبر الله. فخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث؛ فهو وإن قرّبه ربه وأكرمه وٱصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولّت به ولم يعقب.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تقدّم في ﴿طه﴾[1] القول فيه. ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن المعنى: هذه الآية داخلة في تسع آيات. المهدوي: المعنى ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ فهما آيتان من تسع آيات. وقال القشيري معناه: كما تقول خرجت في عشرة نفر وأنت أحدهم. أي خرجت عاشر عشرة. فـ ﴿فِي﴾ بمعنى ﴿مِن﴾ لقربها منها كما تقول خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان أي منها. وقال الأصمعي في قول ٱمرىء القيس:

وهل يَنْعَمَنْ[2] من كان آخرُ عهدِه ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوالِ

(١) راجع ١١/ ١٩١ طبعة أولى أو ثانية. (٢) وفي رواية: «وهل يعمن».

في بمعنى من. وقيل: في بمعنى مع؛ فالآيات عشرة منها اليد، والتسع: الفلق والعصا والجراد والقُمَّل والطوفان والدم والضفادع والسنين والطَّمْس[1]. وقد تقدّم بيان جميعه. ﴿إِلَى فِرْعَونَ وَقَوْمِهِ﴾ قال الفراء: في الكلام إضمار لدلالة الكلام عليه، أي إنك مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه. ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله؛ وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي واضحة بينة. قال الأخفش: ويجوز مَبْصَرة وهو مصدر كما يقال الولد مَجْبَنَة. ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ جروا على عادتهم في التكذيب فلهذا قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ أي تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحراً، ولكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى. وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين. و ﴿ظُلْماً﴾ و ﴿عُلُوًّا﴾ منصوبان على نعت مصدر محذوف، أي وجحدوا بها جحوداً ظلماً وعلواً. والباء زائدة أي وجحدوها؛ قاله أبو عبيدة. ﴿ فَانْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي آخر أمر الكافرين الطاغين، انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه. الخطاب له والمراد غيره.

[١٥] ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

[١٦] ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ﴾ أي فهما؛ قاله قتادة. وقيل: علماً بالدين والحكم وغيرهما كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكم ﴾. وقيل: صنعة الكيمياء. وهو شاذ. وإنما الذي آتاهما الله النبوّة والخلافة في الأرض والزبور. ﴿وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) الطمس: طمس الشيء إذهابه عن صورته. وقد صير الله أموالهم ودراهمهم حجارة. راجع ٨/ ٣٧٤ طبعة أولى أو ثانية.

الذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محلّه وتقدّم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النِّعم وأجزل القِسَم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباد الله المؤمنين. ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، وقد تقدّم هذا في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال الكلبي: كان لداود ﷺ تسعة عشر ولداً فورث سليمان من بينهم نبوّته وملكه، ولو كان وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء؛ وقاله ابن العربي؛ قال: فلو كانت وراثة مال لانقسمت على العدد؛ فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوّة، وزاده من فضله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. قال ابن عطية: داود من بني إسرائيل وكان ملكاً وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوة، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمي ميراثاً تجوزاً؛ وهذا نحو قوله: «العلماء ورثة الأنبياء» ويحتمل قوله عليه السلام: «إنا معشر الأنبياء لا نورث» أن يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكرياء على أشهر الأقوال فيه؛ وهذا كما تقول: إنا معشر المسلمين إنما شغلتنا العبادة، والمراد أن ذلك فعل الأكثر. ومنه ما حكى سيبويه: إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف.

قلت: قد تقدّم هذا المعنى في ﴿ مريم ﴾[1] وأن الصحيح القول الأوّل لقوله عليه السلام: « إنا معشر الأنبياء لا نُورَث » فهو عام ولا يخرج منه شيء إلا بدليل. قال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأقضى منه، وكان داود أشد تعبداً من سليمان. قال غيره: ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه؛ فإن الله سبحانه وتعالى سخر له الإنس والجن والطير والوحش، وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين، وورث أباه في الملك والنبوة، وقام بعده بشريعته، وكل نبي جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فإنما كان بشريعة موسى، إلى أن بعث المسيح عليه السلام فنسخها. وبينه وبين الهجرة نحو من ألف وثمانمائة سنة. واليهود تقول ألف

(١) راجع ١١/ ٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

وثلاثمائة واثنتان وستون سنة . وقيل : إن بين موته وبين مولد النبيّ ﷺ نحواً من ألف وسبعمائة ، واليهود تنقص منها ثلثمائة سنة، وعاش نيفاً وخمسين سنة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي قال سليمان لبني إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض في أن فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها. قال مقاتل في الآية: كان سليمان جالساً ذات يوم إذ مر به طائر يطوف، فقال لجلسائه: أتدرون ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لي: السلام عليك أيها الملك المسلَّط والنبي لبني إسرائيل! أعطاك الله الكرامة، وأظهرك على عدوّك، إني منطلق إلى أفراخي ثم أمرّ بك الثانية؛ وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع؛ فقال إنه يقول: السلام عليك أيها الملك المسلَّط، إن شئت أن تأذن لي كيما أكتسب على أفراخي حتى يشبُّوا ثم آتيك فافعل بي ما شئت. فأخبرهم سليمان بما قال؛ وأذن له فانطلق. وقال فَرْقَد السَّبَخيّ: مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرّك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا لا يا نبي الله. قال إنه يقول: أكلتُ نصف ثمرة فعلى الدنيا العَفَاء. ومر بهدهد فوق شجرة وقد نصب له صبيّ فخا فقال له سليمان: احذر يا هدهد! فقال: يا نبي الله! هذا صبي لا عقل له فأنا أسخر به. ثم رجع سليمان فوجده قد وقع في حِبالة الصبيّ وهو في يده، فقال: هدهد ما هذا؟ قال: ما رأيتها حتى وقعت فيها يا نبي الله. قال : ويحك ! فأنت ترى الماء تحت الأرض أما ترى الفخ! قال: يا نبي الله إذا نزل القضاء عَمِيَ البصر . وقال كعب : صاح وَرَشان عند سليمان بن داود، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : لِدوا للموت وابنوا للخراب. وصاحت فاختة، فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال إنها تقول: ليت هذا الخلق لم يُخلَقوا وليتهم إذ خُلقوا علموا لماذا خُلقوا. وصاح عنده طاوس ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : كما تدين تدان . وصاح عنده هدهد ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا . قال فإنه يقول: من لا يَرحم لا يُرحم. وصاح صُرَد عنده، فقال: أتدرون ما يقول؟

قالوا: لا. قال إنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين؛ فمن ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتله. وقيل: إن الصُّرَد هو الذي دل آدم على مكان البيت. وهو أوّل من صام؛ ولذلك يقال للصُّرَد الصوّام؛ روي عن أبي هريرة. وصاحت عنده طِيطَوى فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال إنها تقول: كل حي ميت وكل جديد بال. وصاحت خُطَّافة عنده، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال إنها تقول: قدّموا خيراً تجدوه؛ فمن ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتلها. وقيل: إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة، فآنسه الله تعالى بالخُطَّاف وألزمها البيوت، فهي لا تفارق بني آدم أنساً لهم. قال: ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ﴾ إلى آخرها وتمدّ صوتها بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وهدرت حمامة عند سليمان فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال إنها تقول: سبحان ربي الأعلى عدد ما في سمواته وأرضه. وصاح قُمْرى عند سليمان، فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال إنه يقول: سبحان ربي العظيم المهيمن. وقال كعب: وحدثهم سليمان، فقال الغراب يقول: اللهم ٱلعن العَشَّار؛ والحِدَأة تقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾. والقطاة تقول: من سكت سلِم. والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه. والضفدع يقول: سبحان ربي القدّوس. والبازي يقول: سبحان ربي وبحمده. والسَّرَطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان في كل مكان.

وقال مكحول: صاح دُرَّاج عند سليمان، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال إنه يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ ٱسْتَوَى﴾. وقال الحسن قال النبي ﷺ: «الديك إذا صاح قال ٱذكروا الله يا غافلين». وقال الحسن بن علي بن أبي طالب قال النبي ﷺ: «النّسر إذا صاح قال يابن آدم عِش ما شئت فآخرك الموت وإذا صاح العُقَاب قال في البعد من الناس الراحة وإذا صاح القُنْبر قال إلهي العن مبغضي آل محمد وإذا صاح الخطّاف قرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخرها فيقول: ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ ويمد بها صوته كما يمد القارىء». قال قَتَادة والشَّعْبِي: إنما هذا الأمر في الطير خاصة، لقوله: ﴿عُلِّمْنَا

مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ والنملة طائر إذ قد يوجد له أجنحة. قال الشعبي: وكذلك كانت هذه النملة ذات جناحين. وقالت فرقة: بل كان في جميع الحيوان، وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جند سليمان يحتاجه في التظليل عن الشمس وفي البعث في الأمور فخص بالذكر لكثرة مداخلته؛ ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردد ترداد أمر الطير. وقال أبو جعفر النحاس: والمنطق قد يقع لما يفهم بغير كلام، والله جل وعز أعلم بما أراد. قال ابن العربي: من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم، وقد ٱتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات، فكان كل نبت يقول له: أنا شجر كذا؛ أنفع من كذا وأضر من كذا؛ فما ظنك بالحيوان.

[١٧] ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ﴾ ﴿حشر﴾ جُمعَ والحشر الجمع ومنه قوله عز وجل: ﴿وحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام؛ فيقال: كان معسكره مائة فرسخ في مائة: خمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سَرِيّة. ٱبن عطية: وٱختلف في معسكره ومقدار جنده ٱختلافاً شديداً غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيماً ملأ الأرض، وٱنقادت له المعمورة كلها. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ معناه يُردّ أولهم إلى آخرهم ويُكفّون. قال قتادة: كان لكل صنف وَزَعة في رتبتهم ومواضعهم من الكرسيّ ومن الأرض إذا مشوا فيها. يقال: وزِعته أوزعه وَزعاً أي كففته. والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم. روى محمد بن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى ـ تعني

يوم الفتح ـ قال أبو قحافة وقد كُفَّ بصرُه يومئذ لابنته: اُظهري بي على أبي قُبَيْس. قالت: فأشرفت به عليه فقال: ما ترين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً. قال تلك الخيل. قالت وأرى رجلاً من السواد مقبلاً ومدبراً. قال: ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر. وذكر تمام الخبر. ومن هذا قوله عليه السلام: «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزُّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر» قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «أما أنه رأى جبريل يزع الملائكة» خرّجه الموطأ. ومن هذا المعنى قول النابغة:

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبَا وقلتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيبُ وازِعُ

آخر:

ولما تَلاقَينا جَرتْ من جُفوننا دموعٌ وَزَعْنا غَرْبَها بالأصابعِ

آخر:

ولا يَزَعُ النفسَ اللَّجوجَ عن الهوى من الناس إلا وافرُ العقل كامله

وقيل: هو من التوزيع بمعنى التفريق. والقوم أوزاع أي طوائف. وفي القصة: إن الشياطين نسجت له بساطاً فرسخاً في فرسخ ذهباً في إبريسم، وكان يوضع له كرسيّ من ذهب وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة.

الثانية ـ في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وَزَعة يكفّون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم. وقال ابن عون: سمعت الحسن يقول وهو في مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس قال: والله ما يصلح هؤلاء الناس إلا وَزَعةٌ. وقال الحسن أيضاً: لا بدّ للناس من وازع؛ أي من سلطان يكفهم. وذكر ابن القاسم قال حدّثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول: ما يَزَعُ الإمام أكثر مما يزَعُ القرآن؛ أي من الناس. قال ابن القاسم: قلت لمالك ما يزع؟ قال: يكف. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع

الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن وهذا جهل بالله وحكمته. قال: فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامّة كافة قائمة لِقوام الخلق، لا زيادة عليها، ولا نقصان معها، ولا يصلح سواها، ولكن الظلمة خاسوا بها، وقصروا عنها، وأتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصدوا وجه الله في القضاء بها، فلم يرتدع الخلق بها، ولو حكموا بالعدل، وأخلصوا النية، لاستقامت الأمور، وصلح الجمهور.

[١٨] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾.

[١٩] ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنه واد بأرض الشام. وقال كعب: هو بالطائف. ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ قال الشعبي: كان للنملة جناحان فصارت من الطير، فلذلك علم منطقها ولولا ذلك لما علمه. وقد مضى هذا ويأتي. وقرأ سليمان التيمي بمكة ﴿نَمُلَةٌ﴾ و ﴿النَّمُلُ﴾ بفتح النون وضم الميم. وعنه أيضاً ضمهما جميعاً. وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة حركتها وقلة قرارها. قال كعب: مر سليمان عليه السلام بوادي السَّدير من أودية الطائف، فأتى على وادي النمل، فقامت نملة تمشي وهي عرجاء تتكاوس مثل الذئب في العظم؛ فنادت ﴿يا أيها النمل﴾ الآية. الزمخشري: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال، وكانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس؛ وقيل: كان ٱسمها طاخية. وقال السهيلي: ذكروا ٱسم النملة المكلِّمة لسليمان عليه السلام، وقالوا ٱسمها حرميا، ولا أدري كيف يتصوّر للنملة ٱسم عَلَم والنمل لا يسمي بعضهم بعضاً، ولا الآدميون يمكنهم تسمية

واحدة منهم باسم عَلَم، لأنه لا يتميز للآدميين بعضهم من بعض، ولا هم أيضاً واقعون تحت ملكة بني آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإن العلمية فيما كان كذلك موجودة عند العرب. فإن قلت: إن العلمية موجودة في الأجناس كثُعَالَة وأُسَامة وَجَعَارِ وقَثَامِ في الضّبع ونحو هذا كثير؛ فليس أسم النملة من هذا؛ لأنهم زعموا أنه اسم عَلَم لنملة واحدة معينة من بين سائر النمل، وثعالة ونحوه لا يختص بواحد من الجنس، بل كل واحد رأيته من ذلك الجنس فهو ثُعالة، وكذلك أُسامة وأبن آوى وأبن عرس وما أشبه ذلك. فإن صح ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه النملة الناطقة قد سميت بهذا الاسم في التوراة أو في الزبور أو في بعض الصحف سماها الله تعالى بهذا الاسم، وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم. وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها فهذا وجه. ومعنى قولنا بإيمانها أنها قالت للنمل: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقولها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ التفاتة مؤمن. أي من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا. وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكد التبسم بقوله: ﴿ضاحِكا﴾ إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسّم المستهزئين. وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، ولا يُسرّ نبيّ بأمر دنيا؛ وإنما سُرّ بما كان من أمر الآخرة والدّين. وقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى الدّين والعدل والرأفة. ونظير قول النملة في جند سليمان ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قول الله تعالى في جند محمد ﷺ ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ التفاتاً إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. إلا أن المُثني على جند سليمان هي النملة بإذن الله تعالى، والمُثني على جند محمد ﷺ هو الله عز وجل بنفسه؛ لما لجنود محمد ﷺ من الفضل على جند غيره من الأنبياء؛ كما لمحمد ﷺ فضل على جميع النبيين صلّى الله عليهم وسلم أجمعين. وقرأ شهر بن حوشب ﴿مَسْكَنَكُمْ﴾ بسكون السين على الإفراد. وفي مصحف أبيّ ﴿مَسَاكِنَكُنَّ لَا يَحْطِمَنْكُمْ﴾. وقرأ سليمان التّيمي ﴿مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنْكُنَّ﴾ ذكره النحاس؛ أي لا يكسرنكم بوطئهم عليكم وهم لا يعلمون بكم.

قال المهدوي: وأفهم الله تعالى النملة هذا لتكون معجزة لسليمان. وقال وهب: أمر الله تعالى الريح ألا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته في سمع سليمان؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيده. وقد قيل: إن هذا الوادي كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد؛ قاله الكلبي. وقال نَوْف الشامي وشَقيق بن سَلَمة: كان نمل ذلك الوادي كهيئة الذئاب في العظم. وقال بُرَيْدة الأسلمي: كهيئة النعاج. قال محمد بن علي الترمذي: فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت، وإنما أفتقد صوت النمل لصغر خلقها، وإلا فالأصوات في الطيور والبهائم كائنة، وذلك منطقهم، وفي تلك المناطق معاني التسبيح وغير ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

قلت: وقوله: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ يدل على صحة قول الكلبي؛ إذ لو كانت كهيئة الذئاب والنعاج لما حطمت بالوطء؛ والله أعلم. وقال: ﴿ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ فجاء على خطاب الآدميين لأن النمل هاهنا أجري مجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون. قال أبو إسحق الثعلبي: ورأيت في بعض الكتب أن سليمان قال لها لِم حذّرتِ النمل؟ أخفت ظلمي؟ أما علمت أني نبيّ عدل؟ فلم قلت: ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ فقالت النملة: أما سمعت قولي: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مع أني لم أرد حطم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت، أو يفتتن بالدنيا، ويشتغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر. فقال لها سليمان: عظيني. فقالت النملة: أما علمت لم سُمِّي أبوك داود؟ قال: لا. قالت: لأنه داوى جراحة فؤاده؛ هل علمت لم سميت سليمان؟ قال: لا. قالت: لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك، وإن لك أن تلحق بأبيك[1]. ثم قالت: أتدري لم سخر الله لك الريح؟ قال: لا. قالت: أخبرك أن الدنيا كلها ريح. ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾ متعجباً ثم مضت مسرعة إلى قومها، فقالت: هل عندكم من شيء نهديه إلى

---

(١) العبارة في «قصص الأنبياء» للثعلبي: «قالت لأنك سليم ركنت إلى ما أوتيت بسلامة صدرك، وحق لك أن تلحق بأبيك داود».

نبيّ الله؟ قالوا: وما قدر ما نهدي له! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة. قالت: حسنة؛ ٱيتوني بها. فأتوها بها فحملتها بفيها فٱنطلقت تجرها، فأمر الله الريح فحملتها، وأقبلت تشق الإنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط، حتى وقعت بين يديه، ثم وضعت تلك النبقة من فيها في كفّه، وأنشأت تقول:

ألم تَرنا نُهدِي إلى الله مَا لَهُ ... وإن كان عنه ذا غنى فهو قابلُهْ
ولـو كـان يُهـدَى للجليـل بقـدره ... لقصّر عنه البحرُ يوما وساحلُهْ
ولكننـا نُهـدي إلـى مـن نُحبُّـه ... فيـرضـى بـه عنـا ويشكـر فـاعلُـهْ
ومـا ذاك إلا مـن كـريـمٍ فعـالُـه ... وإلا فمـا فـي ملكنـا مـا يشـاكلُـهْ

فقال لها: بارك الله فيكم؛ فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله. وقال ٱبن عباس: نهى النبيّ ﷺ عن قتل أربع من الدواب: الهدهد والصُّرَد والنّملة والنحلة؛ خرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق وروي من حديث أبي هريرة. وقد مضى في ﴿الأعراف﴾[1]. فالنملة أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم، فنفت عنهم الجور؛ ولذلك نهى عن قتلها، وعن قتل الهدهد؛ لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس. وقال عكرمة: إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان باراً بوالديه. والصُّرَد يقال له الصوّام. وروي عن أبي هريرة قال: أوّل من صام الصُّرَد ولما خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم في بناء البيت كانت السكينة[2] معه والصُّرَد، فكان الصّرد دليله على الموضع والسكينة مقداره، فلما صار إلى البقعة وقعت السكينة على موضع البيت ونادت وقالت: ٱبن يا إبراهيم على مقدار ظلّي. وقد تقدّم في ﴿الأعراف﴾ سبب النهي عن قتل الضّفدع وفي ﴿النحل﴾[3] النهي عن قتل النّحل. والحمد لله.

---

(١) راجع ٧/ ٢٧٠ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) السكينة: سحابة كما في القصة، وفي حديث علي رضي الله عنه إن السكينة ريح سريعة الممر. وليس بواضح.

(٣) راجع ١٠/ ١٣٤ طبعة أولى أو ثانية.

الثانية ـ قرأ الحسن ﴿لا يَحَطِّمَنَّكُمْ﴾ وعنه أيضاً ﴿لاَ يَحِطِّمَنَّكُمْ﴾ وعنه أيضاً وعن أبي رجاء ﴿لاَ يُحَطِّمَنَّكُمْ﴾ والحَطْم الكسر. حطمته حَطْماً أي كسرته وتَحطَّم؛ والتّحطيم التكسير. ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ يجوز أن يكون حالا من سليمان وجنوده، والعامل في الحال ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾. أو حالا من النملة والعامل ﴿قالت﴾. أي قالت ذلك في حال غفلة الجنود؛ كقولك: قمت والناس غافلون. أو حالا من النمل أيضاً والعامل ﴿قَالَتْ﴾ على أن المعنى: والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها. وفيه بعد وسيأتي.

الثالثة ـ روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ « أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبّح » وفي طريق آخر : « فهلا نملة واحدة ». قال علماؤنا: يقال إن هذا النبيّ هو موسى عليه السلام ، وإنه قال: يا رب تعذب أهل قرية بمعاصيهم وفيهم الطائع . فكأنه أحب أن يريه ذلك من عنده ، فسلط عليه الحرّ حتى ٱلتجأ إلى شجرة مستروحا إلى ظلّها، وعندها قرية النمل ، فغلبه النوم ، فلما وجد لذة النوم لدغته النملة فأضجرته، فدلكهنّ بقدمه فأهلكهنّ ، وأحرق تلك الشجرة التي عندها مساكنهم ، فأراه الله العبرة في ذلك آية: لما لدغتك نملة فكيف أصبت الباقين بعقوبتها ! يريد أن ينبهه أن العقوبة من الله تعالى تعم فتصير رحمة على المطيع وطهارة وبركة ، وشرا ونقمة على العاصي ، وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهةٍ ولا حظرٍ في قتل النمل ؛ فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك ، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن ، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار ، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها ، فإذا آذاك أبيح لك قتله . وروي عن إبراهيم : ما آذاك من النمل فاقتله . وقوله : « ألا نملة واحدة » دليل على أن الذي يؤذِي يؤذَى ويقتل ، وكلما كان القتل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء . وأطلق له نملة ولم يخص تلك النملة التي لدغت من غيرها ؛ لأنه ليس المراد القصاص ؛ لأنه لو أراده لقال ألا نملتك التي لدغتك ، ولكن قال : ألا نملة مكان نملة ؛ فعم البريء

والجاني بذلك، ليعلم أنه أراد أن ينبهه لمسألته ربه في عذاب أهل قرية وفيهم المطيع والعاصي. وقد قيل: إن هذا النبيّ كانت العقوبة للحيوان بالتحريق جائزة في شرعه؛ فلذلك إنما عاتبه الله تعالى في إحراق الكثير من النمل لا في أصل الإحراق. ألا ترى قوله: «فهلا نملة واحدة» أي هلا حرقت نملة واحدة. وهذا بخلاف شرعنا، فإن النبيّ ﷺ قد نهى عن التعذيب بالنار. وقال: «لا يعذِّب بالنار إلا الله» وكذلك أيضاً كان قتل النمل مباحاً في شريعة ذلك النبيّ؛ فإن الله لم يعتبه على أصل قتل النمل. وأما شرعنا فقد جاء من حديث ٱبن عباس وأبي هريرة النهي عن ذلك. وقد كره مالك قتل النمل إلا أن يضر ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل. وقد قيل: إن هذا النبيّ إنما عاتبه الله حيث ٱنتقم لنفسه بإهلاك جمع آذاه واحد، وكان الأولى الصبر والصفح؛ لكن وقع للنبيّ أن هذا النوع مؤذٍ لبني آدم، وحرمة بني آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان غير الناطق. فلو ٱنفرد له هذا النظر ولم ينضم إليه التشفي الطبعي لم يعاتب. والله أعلم. لكن لما ٱنضاف إليه التشفي الذي دل عليه سياق الحديث عوتب عليه.

الرابعة - قوله: « أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبّح » مقتضى هذا أنه تسبيح بمقال ونطق، كما أخبر الله عن النمل أن لها منطقاً وفهِمه سليمان عليه السلام - وهذا معجزة له - وتبسم من قولها. وهذا يدل دلالة واضحة أن للنمل نطقاً وقولاً، لكن لا يسمعه كل أحد، بل من شاء الله تعالى ممن خرق له العادة من نبيّ أو وليّ. ولا ننكر هذا من حيث أنا لا نسمع ذلك؛ فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المدرك في نفسه. ثم إن الإنسان يجد في نفسه قولاً وكلاماً ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه. وقد خرق الله العادة لنبينا محمد ﷺ فأسمعه كلام النفس من قوم تحدّثوا مع أنفسهم وأخبرهم بما في نفوسهم، كما قد نقل منه الكثير من أئمتنا في كتب معجزات النبيّ ﷺ؛ وكذلك وقع لكثير ممن أكرمه الله تعالى من الأولياء مثل ذلك في غير ما قضية. وإياه عنى النبيّ ﷺ بقوله: «إنّ في أمتي محدّثين وإن عمر منهم». وقد مضى هذا المعنى

في [تسبيح][١] الجماد في ﴿سبحان﴾[٢] وأنه تسبيح لسان ومقال لا تسبيح دلالة حال. والحمد لله.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾ وقرأ ابن السَّمَيْقع ﴿ضحكا﴾ بغير ألف، وهو منصوب على المصدر بفعل محذوف يدل عليه تبسّم، كأنه قال ضحك ضحكاً، هذا مذهب سيبويه. وهو عند غير سيبويه منصوب بنفس ﴿تَبَسَّمَ﴾ لأنّه في معنى ضحك. ومن قرأ ﴿ضَاحِكاً﴾ فهو منصوب على الحال من الضمير في ﴿تَبَسَّمَ﴾. والمعنى تبسم مقدار الضحك؛ لأن الضحك يستغرق التبسم، والتبسم دون الضحك وهو أوّله. يقال: بَسَم (بالفتح) يَبْسِم بَسْماً فهو باسم وابتسم وتبسم، والمَبْسِم الثغر مثل المجلس من جلس يجلس ورجل مِبسام وبسّام كثير التبسم، فالتبسم ابتداء الضحك، والضحك عبارة عن الابتداء والانتهاء، إلا أن الضحك يقتضي مزيداً على التبسم، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قيل قهقه. والتبسم ضحك الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم. وفي الصحيح عن جابر بن سَمُرة وقيل له: أكنت تجالس النبيّ ﷺ؛ قال: نعم كثيراً؛ كان لا يقوم من مصلاّه الذي يصلي فيه الصبح ـ أو الغَدَاة ـ حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدّثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم. وفيه عن سعد قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين[٣]، فقال له النبيّ ﷺ: «ارمِ فداك أبي وأميّ» قال فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى نظرت إلى نواجذه. فكان عليه السلام في أكثر أحواله يتبسم. وكان أيضاً يضحك في أحوال أُخرَ ضحكا أعلى من التبسم وأقل من الاستغراق الذي تبدو فيه اللَّهَوات. وكان في النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى بدت نواجذه. وقد كره العلماء منه الكثرة؛ كما قال لقمان لابنه: يا بنيّ إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب. وقد روي مرفوعاً من

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) راجع ١٠/٢٦٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٣) «أحرق المسلمين» أي أثخن فيهم، وعمل فيهم نحو عمل النار. «هامش مسلم».

حديث أبي ذرّ وغيره. وضحك النبيّ ﷺ حتى بدت نواجذه حين رمى سعداً الرجل فأصابه، إنما كان سروراً بإصابته لا بانكشاف عورته؛ فإنه المنزَّه عن ذلك ﷺ.

السادسة ـ لا ٱختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول. وقد قال الشافعي: الحمام أعقل الطير. قال ٱبن عطية: والنمل حيوان فطن قوي شمام جداً يدخر ويتخذ القرى ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع؛ لأنها تنبت إذا قسمت شقّين، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائره عدّة. قال ٱبن العربي: وهذه خواص العلوم عندنا، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها؛ قال الأستاذ أبو المظفر شاهنور الإسفرايني: ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات؛ ووحدانية الإله، ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا، أما أنا نطلبها وهي تفرمنا فبحكم الجنسية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ فـ ﴿أن﴾ مصدرية. و ﴿أَوْزِعْنِي﴾ أي ألهمني ذلك. وأصله من وزع فكأنه قال: كفّني عما يسخط. وقال محمد بن إسحق: يزعم أهل الكتاب أن أم سليمان هي ٱمرأة أوريا التي ٱمتحن الله بها داود، أو أنه بعد موت زوجها تزوّجها داود فولدت له سليمان عليه السلام. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة ﴿ص﴾[1] إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي مع عبادك، عن ٱبن زيد. وقيل: المعنى في جملة عبادك الصالحين.

[٢٠] ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

(١) في تفسير قوله تعالى: «وظن داود أنما فتناه» آية ٢٤ من السورة المذكورة.

[٢٣] ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

فيه ثمان عشرة مسألة:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ ذكر شيئاً آخر مما جرى له في مسيره الذي كان فيه من النمل ما تقدّم. والتفقد تطلّب ما غاب عنك من شيء. والطير اسم جامع والواحد طائر، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها، وكانت تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها. وٱختلف الناس في معنى تفقده للطير؛ فقالت فرقة: ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك، والتَّهمُّم بكل جزء منها؛ وهذا ظاهر الآية. وقالت فرقة: بل تفقد الطير لأن الشمس دخلت من موضع الهدهد حين غاب؛ فكان ذلك سبب تفقد الطير؛ ليتبين من أين دخلت الشمس. وقال عبد الله بن سَلاَم: إنما طلب الهدهد لأنه ٱحتاج إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض؛ لأنه كان نزل في مفازة عُدِم فيها الماء، وأن الهدهد كان يرى باطن الأرض وظاهرها؛ فكان يخبر سليمان بموضع الماء، ثم كانت الجنّ تخرجه في ساعة يسيرة؛ تسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ الشاة؛ قاله ٱبن عباس فيما روي عن ٱبن سَلاَم. قال أبو مِجْلَز قال ٱبن عباس لعبد الله بن سَلاَم: أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل. قال: أتسألني وأنت تقرأ القرآن؟ قال: نعم ثلاث مرات. قال: لم تفقد سليمان الهدهد دون

سائر الطير؟ قال: ٱحتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه ـ أو قال مسافته ـ وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير فتفقده. وقال في كتاب النقاش: كان الهدهد مهندساً. وروي أن نافع بن الأزرق سمع ٱبن عباس يذكر شأن الهدهد فقال له: قف يا وقّاف كيف يرى الهدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفخّ حين يقع فيه؟! فقال له ٱبن عباس: إذا جاء القدر عَمِيَ البصر. وقال مجاهد: قيل لابن عباس كيف تفقد الهدهد من الطير؟ فقال: نزل منزلاً ولم يدر ما بعد الماء، وكان الهدهد مهتديا إليه، فأراد أن يسأله. قال مجاهد: فقلت كيف يهتدي والصبي يضع له الحِبَالة فيصيده؟! فقال: إذا جاء القدر عَمِيَ البصر. قال ٱبن العربي: ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم القرآن.

قلت: هذا الجواب قد قاله الهدهد لسليمان كما تقدّم. وأنشدوا:

إذا أراد الله أمـــراً بـــٱمـــرىءٍ ... وكـــان ذا عقـــلٍ ورأيٍ ونَظَـــرْ

وحيلـــةٍ يعملهـــا فـــي دفـــع مـــا ... يـأتـي بِـه مكـروهُ أسبـابِ القَـدَرْ

غَطَّـــى عليـــه سمعَـــه وعقلَـــه ... وسَلَّـــه مـــن ذهنـــه سـلَّ الشّعْـــر

حتـــى إذا أنفـــذ فيـــه حكمـــه ... ردّ عليـــه عقلَـــه ليعتبـــرْ

قال الكلبي: لم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد. والله أعلم.

الثانية ـ في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم. فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله، فكيف بعظام المُلْك. ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته؛ قال: لو أن سخلة على شاطىء الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر. فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان. وفي الصحيح عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرَغ[1] لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام. الحديث؛ قال علماؤنا: كان هذا الخروج من عمر بعدما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة على ما ذكره خليفة بن خياط.

---

(١) سرغ (بسكون الراء وفتحها): قرية بوادي تبوك من طريق الشام.

وكان يتفقد أحوال رعيته وأحوال أمرائه بنفسه، فقد دل القرآن والسنة وبيّنا ما يجب على الإمام من تفقد أحوال رعيته، ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال. ورحم الله ٱبن المبارك حيث يقول:

وهل أفسدَ الدينَ إلّا الملوكُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها[1]

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ أي ما للهدهد لا أراه؛ فهو من القلب الذي لا يعرف معناه. وهو كقولك: مالي أراك كئيباً. أي مالك. والهدهد طير معروف وهدهدته صوته. قال ٱبن عطية: إنما مقصد الكلام الهدهد غاب لكنه أخذ اللازم عن مغيبه وهو أن لا يراه، فاستفهم على جهة التوقيف على اللازم وهذا ضرب من الإيجاز. والاستفهام الذي في قوله: ﴿مَالِيَ﴾ ناب مناب الألف التي تحتاجها أم. وقيل: إنما قال: ﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾؛ لأنه ٱعتبر حال نفسه، إذ علم أنه أوتي الملك العظيم، وسخر له الخلق، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل، فلما فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصّر في حق الشكر، فلأجله سُلِبَهَا فجعل يتفقد نفسه؛ فقال: ﴿مَالِيَ﴾. قال ٱبن العربي: وهذا يفعله شيوخ الصوفية إذا فقدوا مالهم[2]، تفقدوا أعمالهم هذا في الآداب، فكيف بنا اليوم ونحن نقصّر في الفرائض!. وقرأ ٱبن كثير وٱبن محيصن وعاصم والكسائي وهشام وأيوب ﴿مَالِيَ﴾ بفتح الياء وكذلك في ﴿يسٓ﴾ ﴿وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾. وأسكنها حمزة ويعقوب. وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو بفتح التي في ﴿يسٓ﴾ وإسكان هذه. قال أبو عمرو: لأن هذه التي في ﴿النمل﴾ ٱستفهام، والأخرى ٱنتفاء. واختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان ﴿فَقَالَ مَالي﴾. وقال أبو جعفر النحاس: زعم قوم أنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان مبتدأ، وبين ما كان معطوفاً على ما قبله، وهذا ليس بشيء؛ وإنما هي ياء النفس من العرب من يفتحها ومنهم من يسكنها، فقرءوا باللغتين؛ واللغة الفصيحة في ياء النفس أن تكون مفتوحة؛ لأنها ٱسم وهي على حرف واحد، وكان الاختيار ألا تسكن فيجحف بالاسم. ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ بمعنى بل.

---

(١) في بعض النسخ: «ورهبانا».

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي: «إذا فقدوا آمالهم... الخ».

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ دليل على أن الحدّ على قدر الذّنب لا على قدر الجسد، أما أنه يرفق بالمحدود في الزمان والصفة. روي عن ٱبن عباس ومجاهد وٱبن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن ينتف ريشه. قال ٱبن جريج: ريشه أجمع. وقال يزيد بن رومان: جناحاه. فعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظاً على العاصين، وعقاباً على إخلاله بنوبه ورتبته؛ وكأن الله أباح له ذلك، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع. والله أعلم. وفي «نوادر الأصول» قال: حدثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي، قال حدّثنا عون بن عمارة، عن الحسين الجَعْفيّ، عن الزبير بن الخِرِّيت، عن عكرمة، قال: إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان بارا بوالديه. وسيأتي. وقيل: تعذيبه أن يجعل مع أضداده. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد. وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه. وقيل: إيداعه القفص. وقيل: بأن يجعله للشمس بعد نتفه. وقيل: بتبعيده عن خدمتي، والملوك يؤدّبون بالهجران الجسدَ بتفريق إلفه. وهو مؤكد بالنون الثقيلة، وهي لازمة هي أو الخفيفة. قال أبو حاتم: ولو قرئت «لَأُعَذِّبَنْهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنْهُ» جاز. ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة بينة. وليست اللام في ﴿لَيَأْتِيَنِّي﴾ لام القسم لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد، ولكن لما جاء في أثر قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ﴾ وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه. وقرأ ابن كثير وحده ﴿لَيَأْتِيَنَّنِي﴾ بنونين.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي الهدهد. والجمهور من القراء على ضم الكاف، وقرأ عاصم وحده بفتحها. ومعناه في القراءتين أقام. قال سيبويه: مَكَث يمكُث مُكُوثاً كما قالوا قعد يقعد قعوداً. قال: ومَكُث مثل ظَرُف. قال غيره: والفتح أحسن لقوله تعالى: ﴿مَاكِثِينَ﴾ إذ هو من مَكَث؛ يقال: مَكَث يَمكُث فهو ماكثٌ؛ ومَكُث يمكُث مثل عَظُم يعظُم فهو مَكِيثٌ؛ مثل عظيم. ومَكُث يمكُث فهو ماكثٌ؛ مثل حَمُض يَحمُض فهو حامض. والضمير في ﴿مَكَثَ﴾ يحتمل أن يكون لسليمان؛ والمعنى: بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل. ويحتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر. فجاء ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ وهي:

السادسة ـ أي علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان في هذا ردّ على من قال: إن الأنبياء تعلم الغيب. وحكى الفراء «أَحَطُّ» يدغم التاء في الطاء. وحكى «أَحَتُّ» بقلب الطاء تاء وتدغم.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أعلم سليمان ما لم يكن يعلمه، ودفع عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح. وقرأ الجمهور ﴿سَبَإٍ﴾ بالصرف. وابن كثير وأبو عمرو ﴿سَبَأَ﴾ بفتح الهمزة وترك الصرف؛ فالأوّل على أنه ٱسم رجل نسب إليه قوم، وعليه قول الشاعر:

الـواردون وتيـم فـي ذُرَى سبـإٍ قد عَضَّ أعناقَهمْ جلدُ الجواميسِ

وأنكر الزجاج أن يكون ٱسم رجل، وقال: ﴿سبأ﴾ ٱسم مدينة تعرف بمأرب باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام؛ وأنشد للنابغة الجَعْدي:

من سَبَأَ الحاضِرِين مَأْرِبَ إذْ يَبْنُـون مـن دون سَيْلِـهِ العَـرِمَـا

قال: فمن لم يصرف قال إنه ٱسم مدينة، ومن صرف وهو الأكثر فلأنه ٱسم البلد فيكون مذكراً سمي به مذكر. وقيل: ٱسم ٱمرأة سميت بها المدينة. والصحيح أنه ٱسم رجل، كذلك في كتاب الترمذي من حديث فروة بن مُسَيْكٍ المرادي عن النبيّ ﷺ. وسيأتي إن شاء الله تعالى. قال ٱبن عطية: وخفي هذا الحديث على الزجاج فخبط عشواء. وزعم الفرّاء أن الرُّؤاسيّ سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبإ فقال: ما أدري ما هو. قال النحّاس: وتأوّل الفرّاء على أبي عمرو أنه منعه من الصرف لأنه مجهول، وأنه إذا لم يعرف الشيء لم ينصرف. وقال النحاس: وأبو عمرو أجلُّ من أن يقول مثل هذا، وليس في حكاية الرُّؤاسي عنه دليل أنه إنما منعه من الصرف لأنه لم يعرفه، وإنما قال لا أعرفه، ولو سئل نحويّ عن ٱسم فقال لا أعرفه لم يكن في هذا دليل على أنه يمنعه من الصرف، بل الحق على غير هذا؛ والواجب إذا لم يعرفه أن يصرفه؛ لأن أصل الأسماء الصرف؛ وإنما يمنع الشيء من الصرف لعلة داخلة عليه؛ فالأصل ثابت بيقين فلا يزول بما لا يعرف. وذكر كلاماً كثيراً

عن النحاة وقال في آخره: والقول في ﴿سبإ﴾ ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسم رجل، فإن صرفته فلأنه قد صار اسماً للحيّ، وإن لم تصرفه جعلته اسماً للقبيلة مثل ثمود إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف وحجته في ذلك قاطعة؛ لأن هذا الاسم لما كان يقع له التذكير والتأنيث كان التذكير أولى؛ لأنه الأصل والأخف.

الثامنة ـ وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم عندي ما ليس عندك إذا تحقّق ذلك وتيقنه. هذا عمر بن الخطاب مع جلالته رضي الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان. وكان علم التيمّم عند عمّار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا: لا يتيمم الجنب. وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت. وكان غسل رأس المحرم معلوماً عند ابن عباس وخفي عن المِسْوَر بن مَخْرَمة. ومثله كثير فلا يطوّل به.

التاسعة ـ قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ لما قال الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ قال سليمان: وما ذلك الخبر؟ قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل تملك أهل سبإ. ويقال: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطِّهِ وبين بلدها قريبة، وهي من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف. ويروى أن أحد أبويها كان من الجن. قال ابن العربي: وهذا أمر تنكره الملحِدة، ويقولون: الجن لا يأكلون ولا يلدون؛ كذبوا لعنهم الله أجمعين؛ ذلك صحيح ونكاحهم جائز عقلاً فإن صح نقلاً فبها ونعمت.

قلت: خرج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال: قدم وفد من الجن على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أنْهَ أمتك أن يستنجوا بعَظْم أو رَوْثة أو جمجمة فإن الله جاعِل لنا فيها رزقاً. وفي «صحيح مسلم» فقال: «لكم كل عَظْم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً وكل بعرة علف لدوابكم» فقال رسول الله ﷺ:

«فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن» وفي «البخاري» من حديث أبي هريرة قال فقلت: ما بال العَظْم والرّوثة؟ فقال: «هما من طعام الجن وإنه أتاني وفدُ جِنِّ نَصِيبين وَنِعْمَ الجِنُّ فسألوني الزاد فدعوت الله تعالى ألا يمروا بعظم ولا رَوْثة إلا وجدوا عليها طعاماً» وهذا كله نص في أنهم يطعمون. وأما نكاحهم فقد تقدّمت الإشارة إليه في ﴿سبحان﴾[1] عند قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾. وروى وهيب بن جرير بن حازم عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر قال: كانت أم بلقيس من الجنّ يقال لها بلعمة بنت شيصان. وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

العاشرة ـ روى البخاريّ من حديث ٱبن عباس أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: «لن يُفلح قوم وَلَّوا أمرَهم ٱمرأة» قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه؛ ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تَقضي فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق؛ ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدّمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك التحكم والاستنابة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وٱبن جرير. وقد روي عن عمر أنه قدّم ٱمرأة على حِسبة السوق. ولم يصح فلا تلتفتوا إليه، فإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث. وقد تناظر في هذه المسألة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طَرَار شيخ الشافعية، فقال أبو الفرج: الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضي لها، وسماع البينة عليها، والفصل بين الخصوم فيها، وذلك ممكن من المرأة كإمكانه من الرجل. فٱعترض عليه القاضي أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى؛ فإن الغرض منه حفظ الثغور، وتدبير الأمور وحماية البَيْضة، وقبض الخراج ورده على مستحقه، وذلك لا يتأتى من المرأة كتأتيه من الرجل. قال ٱبن العربي: وليس

(١) راجع ١٠/٢٨٩ طبعة أولى أو ثانية.

كلام الشيخين في هذه المسألة بشيء؛ فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير؛ لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت بَرْزَة[1] لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم؛ ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من ٱعتقده.

الحادية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبالغة؛ أي مما تحتاجه المملكة. وقيل: المعنى أوتيت من كل شيء في زمانها شيئاً فحذف المفعول؛ لأن الكلام دل عليه. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي سرير؛ ووصفه بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان. قيل: كان من ذهب تجلس عليه. وقيل: العرش هنا الملك؛ والأوّل أصح؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾. الزمخشري: فإن قلت كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظيم؟ قلت: بين الوصفين بون عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عرش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض. قال ٱبن عباس: كان طول عرشها ثمانين ذراعاً، وعرضه أربعين ذراعاً، وٱرتفاعه في السماء ثلاثين ذراعاً، مكلل بالدر والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر. قتادة: وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مُستَّراً بالديباج والحرير، عليه سبعة مغاليق. مقاتل: كان ثمانين ذراعاً، وٱرتفاعه من الأرض ثمانون ذراعاً، وهو مكلل بالجواهر. ٱبن إسحاق: وكان يخدمها النساء، وكان لخدمتها ستمائة ٱمرأة. قال ابن عطية: واللازم من الآية أنها ٱمرأة ملكت على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار.

الثانية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قيل: كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى. وقيل: كانوا مجوساً يعبدون الأنوار. وروي عن نافع أن الوقف على ﴿عرش﴾. قال المهدوي:

(١) البرزة هنا: الكهلة التي لا تحتجب ٱحتجاب الشواب؛ وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم.

فعظيم على هذا متعلق بما بعده، وكان ينبغي على هذا أن يكون عظيم أن وجدتها؛ أي وجودي إياها كافرة. وقال ابن الأنباري: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وقف حسن، ولا يجوز أن يقف على ﴿عرش﴾ ويبتدىء ﴿عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا﴾ إلا على من فتح؛ لأن عظيماً نعت لعرش فلو كان متعلقاً بوجدتها لقلت عظيمة وجدتها؛ وهذا محال من كل وجه. وقد حدّثني أبو بكر محمد بن الحسين بن شهريار، قال: حدّثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العِجْليّ، عن بعض أهل العلم أنه قال: الوقف على ﴿عرش﴾ والابتداء ﴿عظيم﴾ على معنى عظيم عبادتهم الشمس والقمر. قال: وقد سمعت من يؤيد هذا المذهب، ويحتج بأن عرشها أحقر وأدق شأناً من أن يصفه الله بالعظيم. قال ابن الأنباري: والاختيار عندي ما ذكرته أوّلاً؛ لأنه ليس على إضمار عبادة الشمس والقمر دليل. وغير منكر أن يصف الهدهد عرشها بالعظيم إذا رآه متناهي الطول والعرض؛ وجريه على إعراب ﴿عرش﴾ دليل على أنه نعته. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي ما هم فيه من الكفر. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي عن طريق التوحيد. وبيّن بهذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به على التحقيق. ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الله وتوحيده.

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ بتشديد ﴿أَلَّا﴾ قال ابن الأنباري: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ غير تام لمن شدّد ﴿أَلَّا﴾ لأن المعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا. قال النحاس: هي ﴿أن﴾ دخلت عليها ﴿لا﴾ و ﴿أن﴾ في موضع نصب؛ قال الأخفش: بـ ﴿ـزين﴾ أي وزين لهم لئلا يسجدوا لله. وقال الكسائي: بـ ﴿ـفصدّهم﴾ أي فصدهم ألا يسجدوا. وهو في الوجهين مفعول له.

وقال اليزيدي وعلي بن سليمان : ﴿أن﴾ بدل من ﴿أعمالهم﴾ في موضع نصب. وقال أبو عمرو : و ﴿أن﴾ في موضع خفض على البدل من السبيل. وقيل العامل فيها ﴿لا يهتدون﴾ أي فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله؛ أي لا يعلمون أن ذلك واجب عليهم . وعلى هذا القول ﴿ لا ﴾ زائدة؛ كقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ أي ما منعك أن تسجد. وعلى هذه القراءة

فليس بموضع سجدة؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود، إما بالتزيين، أو بالصَّدّ، أو بمنع الاهتداء. وقرأ الزهري والكسائي وغيرهما ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾[1] بمعنى ألا يا هؤلاء ٱسجدوا؛ لأن ﴿يا﴾ ينادى بها الأسماء دون الأفعال. وأنشد سيبويه:

يـا لعنـةُ اللّـهِ والأقـوامِ كلِّهِـمُ والصّالحين على سِمْعَانَ من جَارِ

قال سيبويه: (يا) لغير اللعنة؛ لأنه لو كان للعنة لنصبها؛ لأنه كان يصير منادى مضافاً، ولكن تقديره يا هؤلاء لعنة الله والأقوام على سِمعان. وحكى بعضهم سماعاً عن العرب: ألا يا ٱرحموا ألا يا ٱصدقُوا. يريدون ألا يا قوم ٱرحموا ٱصدُقوا؛ فعلى هذه القراءة ﴿ٱسْجُدُوا﴾ في موضع جزم بالأمر والوقف على ﴿أَلَا يَا﴾ ثم تبتدىء فتقول: ﴿ٱسْجُدُوا﴾. قال الكسائي: ما كنت أسمع الأشياخ يقرؤونها إلا بالتخفيف على نية الأمر. وفي قراءة عبد الله ﴿أَلَا هَلْ تَسْجُدُونَ لِلَّهِ﴾ بالتاء والنون. وفي قراءة أبيّ ﴿أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ﴾ فهاتان القراءتان حجة لمن خفف. الزجاج: وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود دون التشديد. وٱختار أبو حاتم وأبو عبيدة قراءة التشديد. وقال: التخفيف وجه حسن إلا أن فيه ٱنقطاع الخبر عن أمر سبأ، ثم رجع بعد إلى ذكرهم، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضاً لا ٱنقطاع في وسطه. ونحوه قال النحاس. قال: قراءة التخفيف بعيدة؛ لأن الكلام يكون معترضاً، وقراءة التشديد يكون الكلام بها متسقاً، وأيضاً فإن السواد على غير هذه القراءة؛ لأنه قد حذف منها ألفان، وإنما يختصر مثل هذا بحذف ألف واحدة نحو يا عيسى ابن مريم . ٱبن الأنباري : وسقطت ألف ﴿ ٱسجدوا ﴾ كما تسقط مع هؤلاء إذا ظهر ، ولما سقطت ألف ﴿ يا ﴾ وٱتصلت بها ألف ﴿ ٱسجدوا ﴾ سقطت، فعد سقوطها دلالة على الاختصار وإيثاراً لما يخفّ وتقل ألفاظه . وقال الجوهري في آخر كتابه : قال بعضهم إن ﴿ يا ﴾ في هذا الموضع إنما هو للتنبيه كأنه قال: ألا ٱسجدوا لله، فلما أدخل عليه ﴿يا﴾ للتنبيه سقطت الألف التي في ﴿ٱسجدوا﴾ لأنها

---

(١) الألوسي: ﴿ألا﴾ بالتخفيف على أنها للاستفتاح و ﴿يا﴾ حرف نداء، والمنادى محذوف؛ أي ألا يا قوم اسجدوا وسقطت ألف يا وألف الوصل في ﴿اسجدوا﴾ وكتبت الياء متصلة بالسين على خلاف القياس.

ألف وصل، وذهبت الألف التي في ﴿يا﴾ لاجتماع الساكنين؛ لأنها والسين ساكنتان. قال ذو الرُّمَّة:

أَلَا يا ٱسْلَمِي يا دارَ مَيَّ على البِلَى وَلَا زَالَ مُنْهَلاً بجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

وقال الجرجانيّ: هو كلام معترض من الهدهد أو سليمان أو من الله. أي ألا ليسجدوا؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ قيل: إنه أمر أي ليغفروا. وتنتظم على هذا كتابة المصحف؛ أي ليس هاهنا نداء. قال ٱبن عطية: قيل هو من كلام الهدهد إلى قوله ﴿العظِيمِ﴾ وهو قول ٱبن زيد وٱبن إسحاق؛ ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم في معنى شرع. ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم. ويحتمل أن يكون من [قول] الله تعالى فهو ٱعتراض بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل، وقراءة التشديد في ﴿ألّا﴾ تعطي أن الكلام للهدهد، وقراءة التخفيف تمنعه، والتخفيف يقتضي الأمر بالسجود لله عز وجل للأمر على ما بيناه. وقال الزمخشري: فإن قلت أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً أم في إحداهما؟ قلت: هي واجبة فيهما جميعاً؛ لأن مواضع السجدة إمّا أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذمٌّ [لمن][1] تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك.

قلت: وقد أخبر الله عن الكفار بأنهم لا يسجدون كما في ﴿ الانشقاق ﴾ وسجد النبي ﷺ فيها، كما ثبت في « البخاريّ » وغيره، فكذلك ﴿ النمل ﴾. والله أعلم. الزمخشري: وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه. ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴾ خَبْء السماء قَطْرها، وخَبْء الأرض كنوزها ونباتها. وقال قتادة: الخبء السر. النحاس: وهذا أولى. أي ما غاب في السموات والأرض، ويدل عليه ﴿ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[2]. وقرأ عكرمة ومالك بن دينار ﴿ الْخَبَ ﴾ بفتح الباء من غير همز. قال المهدوي: وهو التخفيف القياسي؛ وذكر من يترك الهمز في الوقف. وقال النحاس:

---

(١) الزيادة من «الكشاف». (٢) في نسخ الأصل بالياء؛ وهي قراءة العامة كما سيأتي.

وحكى أبو حاتم أن عكرمة قرأ ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَا﴾ بألف غير مهموزة، وزعم أن هذا لا يجوز في العربية، وأعتل بأنه إن خفّف الهمزة ألقى حركتها على الباء فقال: ﴿الْخَبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأنه إن حوّل الهمزة قال الخَبْيَ بإسكان الباء وبعدها ياء. قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلده لم يلق أعلم منه. وحكى سيبويه عن العرب أنها تبدل من الهمزة ألفاً إذا كان قبلها ساكن وكانت مفتوحة، وتبدل منها واواً إذا كان قبلها ساكن وكانت مضمومة، وتبدل منها ياء إذا كان قبلها ساكن وكانت مكسورة؛ فتقول: هذا الْوَثْوُ وعجبت من الوَثْيِ ورأيت الْوَثَا؛ وهذا من وَثِئَت يدُه؛ وكذلك هذا الخَبْوُ وعجبت من الخبي، ورأيت الخَبَا؛ وإنما فعل هذا لأن الهمزة خفيفة فأبدل منها هذه الحروف. وحكى سيبويه عن قوم من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون: هذا الخُبُؤُ؛ يضمون الساكن إذا كانت الهمزة مضمومة، ويثبتون الهمزة ويكسرون الساكن إذا كانت الهمزة مكسورة، ويفتحون الساكن إذا كانت الهمزة مفتوحة. وحكى سيبويه أيضاً أنهم يكسرون وإن كانت الهمزة مضمومة، إلا أن هذا عن بني تميم؛ فيقولون: الرِّدِىءُ[1]؛ وزعم أنهم لم يضموا الدال لأنهم كرهوا ضمة قبلها كسرة؛ لأنه ليس في الكلام فِعُلٌ. وهذه كلها لغات داخلة على اللغة التي قرأ بها الجماعة؛ وفي قراءة عبد الله ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَا مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ و ﴿من﴾ و ﴿في﴾ يتعاقبان؛ تقول العرب: لأستخرجنّ العلم فيكم يريد منكم؛ قاله الفراء. ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قراءة العامة فيهما بياء، وهذه القراءة تعطي أن الآية من كلام الهدهد، وأن الله تعالى خصه من المعرفة بتوحيده ووجوب السجود له، وإنكار سجودهم للشمس، وإضافته للشيطان، وتزيينه لهم، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان؛ من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجحة تهتدي لها. وقرأ الجَحْدَرِيّ وعيسى بن عمر وحفص والكسائي ﴿تُخْفُونَ﴾ و ﴿تُعْلِنُونَ﴾ بالتاء على الخطاب؛ وهذه القراءة تعطي أن الآية

---

(١) الردء بمعنى الصاحب.

من خطاب الله عز وجل لأمة محمد ﷺ. ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قرأ ٱبن محيصن ﴿العظِيمُ﴾ رفعاً نعتاً لله. الباقون بالخفض نعتاً للعرش. وخص بالذكر لأنه أعظم المخلوقات وما عداه في ضمنه وقبضته.

الرابعة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿سَنَنْظُرُ﴾ من النظر الذي هو التأمل والتصفح. ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في مقالتك. و ﴿كنت﴾ بمعنى أنت. وقال: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ ولم يقل سننظر في أمرك؛ لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم في قوله: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ صرح له سليمان بقوله: سننظر أصدقت أم كذبت، فكان ذلك [كفاء][1] لما قاله.

الخامسة عشرة ـ في قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين ٱعتذر إليه. وإنما صار صدق الهدهد عذراً لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد. وفي «الصحيح»: «ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله من أجل ذلك أنزل الكتابَ وأرسل الرسل». وقد قبل عمر عذر النعمان بن عديّ ولم يعاقبه. ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة. كما فعل سليمان؛ فإنه لما قال الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ لم يستفزه الطمع، ولا ٱستجرّه حبّ الزيادة في الملك إلى أن يعرض له حتى قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فغاظه حينئذٍ ما سمع، وطلب الانتهاء إلى ما أخبر، وتحصيلِ علم ما غاب عنه من ذلك، فقال: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ونحو منه ما رواه الصحيح عن المِسْور بن مَخْرَمة، حين ٱستشار عمر الناس في إملاص المرأة وهي التي يضرب بطنها فتلقي جنينها؛ فقال المغيرة بن شعبة: شهدت النبيّ ﷺ قضى فيه بغُرّةٍ عبدٍ أو أمة. قال فقال عمر: ٱيتني بمن يشهد معك: قال: فشهد له محمد بن مسلمة وفي رواية فقال: لا تبرح حتى تأتي بالمخرج

---

(١) في «الأصول»: «جفاء» والتصويب من «أحكام القرآن» لابن العربي.

من ذلك؛ فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة فجئت به فشهد. ونحوه حديث أبي موسى في الاستئذان وغيره.

السادسة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: فيها خمسة أوجه ﴿فَأَلْقِهِي إِلَيْهِمْ﴾ بإثبات الياء في اللفظ. وبحذف الياء وإثبات الكسرة دالة عليها ﴿فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ﴾. وبضم الهاء وإثبات الواو على الأصل ﴿فَأَلْقِهُو إِلَيْهِمْ﴾. وبحذف الواو وإثبات الضمة ﴿فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ﴾. واللغة الخامسة قرأ بها حمزة بإسكان الهاء ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾. قال النحاس: وهذا عند النحويين لا يجوز إلا على حيلة بعيدة تكون: يقدّر الوقف؛ وسمعت علي بن سليمان يقول: لا تلتفت إلى هذه العلة، ولو جاز أن يصل وهو ينوي الوقف لجاز أن يحذف الإعراب من الأسماء. وقال: ﴿إليهم﴾ على لفظ الجمع ولم يقل إليها؛ لأنه قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ فكأنه قال: فألقه إلى الذين هذا دينهم؛ ٱهتماماً منه بأمر الدِّين، وٱشتغالاً به عن غيره، وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك. وروي في قصص هذه الآية أن الهدهد وصل فألفى دون هذه الملكة حُجبَ جدران؛ فعمد إلى كُوّة كانتَ بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إياها، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي ـ فيما يروى ـ نائمة؛ فلما ٱنتبهت وجدته فراعها، وظنت أنه قد دخل عليها أحد، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدت، فنظرت إلى الكُوّة تَهمُّماً بأمر الشمس، فرأت الهدهد فعلمت. وقال وهب وٱبن زيد: كانت لها كُوّة مستقبلة مطلع الشمس، فإذا طلعت سجدت، فسدها الهدهد بجناحه، فٱرتفعت الشمس ولم تعلم، فلما ٱستبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصحيفة إليها، فلما رأت الخاتم ٱرتعدت وخضعت، لأن ملك سليمان عليه السلام كان في خاتمه؛ فقرأته فجمعت الملأ من قومها فخاطبتهم بما يأتي بعد. وقال مقاتل: حمل الهدهد الكتاب بمنقاره، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والعساكر، فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه، فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها.

السابعة عشرة ـ في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام. وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبّار؛ كما تقدّم في ﴿آل عمران﴾[1].

الثامنة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أمره بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك. بمعنى: وكن قريباً حتى ترى مراجعتهم؛ قاله وهب بن منبّه. وقال ابن زيد؛ أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه؛ أي ألقه وارجع. قال وقوله: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ واتساق رتبة الكلام أظهر؛ أي ألقه ثم تول، وفي خلال ذلك فانظر أي انتظر. وقيل: فاعلم؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي اعلم ماذا يرجعون أي يجيبون وماذا يردّون من القول. وقيل: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ بينهم من الكلام.

[٢٩] ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ﴾ في الكلام حذف؛ والمعنى: فذهب فألقاه إليهم فسمعها وهي تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ﴾ ثم وصفت الكتاب بالكريم إما لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم فعظمته إجلالاً لسليمان عليه السلام؛ وهذا قول ابن زيد. وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم، فكرامة الكتاب ختمه؛ وروي ذلك عن رسول الله ﷺ. وقيل: لأنه بدأ فيه بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وقد قال ﷺ: «كل كلام لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذَم». وقيل: لأنه بدأ

(١) راجع ٤/ ١٠٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

فيه بنفسه، ولا يفعل ذلك إلا الجلّة. وفي حديث ٱبن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه: من عبد الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين؛ إني أقرّ لك بالسمع والطاعة ما ٱستطعت، وإن بَنِيّ قد أقرّوا لك بذلك. وقيل: توهمت أنه كتاب جاء من السماء إذ كان الموصِّل طيراً. وقيل: ﴿كريم﴾ حسن؛ كقوله: ﴿ومقامٍ كريم﴾ أي مجلس حسن. وقيل: وصفته بذلك؛ لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبًّا ولا لعناً، ولا ما يغيّر النفس، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق؛ على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عز وجل؛ ألا ترى إلى قول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وقوله لموسى وهارون: ﴿فَقُوْلاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾. وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها. وقد روي أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحد قبل سليمان. وفي قراءة [عبد الله](1) ﴿وَإِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ بزيادة واو.

الثانية ـ الوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف؛ ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير وبالأثير وبالمبرور؛ فإن كان لملك قالوا: العزيز وأسقطوا الكريم غفلة، وهو أفضلها خصلة. فأما الوصف بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكتابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ فهذه عزته وليست لأحد إلا له؛ فاجتنبوها في كتبكم، وٱجعلوا بدلها العالي؛ توفية لحق الولاية، وحياطة للديانة؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي.

الثالثة ـ كان رسم المتقدّمين إذا كتبوا أن يبدءوا بأنفسهم من فلان إلى فلان، وبذلك جاءت الآثار. وروى الربيع عن أنس قال: ما كان أحد أعظم حرمة من النبي ﷺ، وكان أصحابه إذا كتبوا بدأوا بأنفسهم. وقال ٱبن سيرين قال النبي ﷺ: «إن أهل فارس إذا كتبوا بدءوا بعظمائهم فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه»

---

(١) في الأصل: «وفي قراءة أبيّ» وهو مخالف لما عليه كتب التفسير، فالمروي عن أبيّ أنه قرأ «أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم» بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاء.

قال أبو الليث في كتاب «البستان» له: ولو بدأ بالمكتوب إليه جاز؛ لأن الأمة قد ٱجتمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوا في ذلك، أو نسخ ما كان من قبل؛ فالأحسن في زماننا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه؛ لأن البداية بنفسه تُعدّ منه ٱستخفافاً بالمكتوب [إليه][1] وتكبّراً عليه؛ إلا أن يكتب إلى عبد من عبيده، أو غلام من غلمانه.

الرابعة ـ وإذا ورد على إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغي أن يرد الجواب؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر. وروي عن ٱبن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجباً كما يرى رد السلام. والله أعلم.

الخامسة ـ ٱتفقوا على كتب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ في أوّل الكتب والرسائل، وعلى ختمها؛ لأنه أبعد من الريبة، وعلى هذا جرى الرسم، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال: أيما كتاب لم يكن مختوماً فهو أغلف. وفي الحديث: «كرمُ الكتاب خَتْمه». وقال بعض الأدباء؛ هو ٱبن المقفع: من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد ٱستخف به؛ لأن الختم ختم. وقال أنس: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى العجم قيل له: إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه ختم؛ فٱصطنع خاتماً ونقش على فصه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأني أنظر إلى وَبِيصِه[2] وبياضه في كفّه.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿وَإِنَّهُ﴾ بالكسر فيهما أي وإن الكلام، أو إن مبتدأ الكلام ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. وأجاز الفراء ﴿أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ﴾ بفتحهما جميعاً على أن يكونا في موضع رفع بدل من الكتاب؛ بمعنى ألقى إليّ أنه من سليمان. وأجاز أن يكونا في موضع نصب على حذف الخافض؛ أي لأنه من سليمان ولأنه؛ كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله. وقرأ الأشهب العُقَيْليّ ومحمد بن السَّمَيْقع ﴿أَلَّا تَغْلُوا﴾ بالغين المعجمة؛ وروى عن وهب بن منبّه؛ من غلا يغلو إذا تجاوز وتكبّر. وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة. ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي منقادين طائعين مؤمنين.

---

(١) زيادة يقتضيها المقام. (٢) الوبيص: البريق واللمعان.

[٣٢] ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾.

[٣٣] ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قالت يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ الملأ أشراف القوم وقد مضى في سورة ﴿البقرة﴾[1] القول فيه. قال ابن عباس: كان معها ألف قَيْل. وقيل: اثنا عشر ألف قَيْل مع كل قَيْل مائة ألف. والقَيْل الملِك دون الملِك الأعظم. فأخذت في حسن الأدب مع قومها، ومشاورتهم في أمرها، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر يعرض، بقولها: ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ فكيف في هذه النازلة الكبرى. فراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوّة والبأس، ثم سلَّموا الأمر إلى نظرها؛ وهذه محاورة حسنة من الجميع. قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً هم أهل مشورتها، كل رجل منهم على عشرة آلاف.

الثانية ـ في هذه الآية دليل على صحة المشاورة. وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ في ﴿آل عمران﴾ إما استعانة بالآراء، وإما مداراة للأولياء. وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب؛ فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم، وإمضاءهم على الطاعة لها، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجِدّهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم، وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة

(١) راجع ٣/ ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية.

من أمرهم، وربما كان في ٱستبدادها برأيها وهن في طاعتها، ودخيلة في تقدير أمرهم، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوّة شوكتهم، وشدّة مدافعتهم؛ ألا ترى إلى قولهم في جوابهم: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. قال ٱبن عباس: كان من قوة أحدهم أنه يَركُض فرسَه حتى إذا ٱحتدّ ضمَّ فخذيه فحبسه بقوّته.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿والأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ سلَّموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهروا لها من القوّة والبأس والشدّة، فلما فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقُرى التي يتغلبون عليها. وفي هذا الكلام خوف على قومها، وحيطة وٱستعظام لأمر سليمان عليه السلام. ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قيل: هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذي أرادته. وقال ٱبن عباس: هو من قول الله عز وجل معرِّفاً لمحمد ﷺ وأمته بذلك ومخبراً به. وقال وهب: لما قرأت عليهم الكتاب لم تعرف اسم الله، فقالت: ما هذا؟! فقال بعض القوم: ما نظن هذا إلا عفريتاً عظيماً من الجن يقتدر به هذا الملك على ما يريده؛ فسكَّتوه. وقال الآخر: أُراهم ثلاثة من العفاريت؛ فسكَّتوه؛ فقال شاب قد علم: يا سيدة الملوك! إن سليمان ملِكٌ قد أعطاه ملِكُ السماء مُلْكاً عظيماً فهو لا يتكلم بكلمة إلا بدأ فيها بتسمية إلهه، والله اسم مليك السماء، والرحمن الرحيم نعوته؛ فعندها قالت: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ فقالوا: ﴿نَحْنُ أُولوا قُوَّةٍ﴾ في القتال ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ في الحرب واللقاء ﴿والأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ ردّوا أمرهم إليها لما جربوا على رأيها من البركة ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فـ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أهانوا شرفاءها لتستقيم لهم الأمور، فصدق الله قولها. ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قال ابن الأنباري: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ هذا وقف تام؛ فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وشبيه به في سورة ﴿الأعراف﴾ ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ تم الكلام، فقال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. وقال ٱبن شجرة: هو قول بلقيس، فالوقف ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا.

[٣٥] ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى- قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ هذا من حسن نظرها وتدبيرها؛ أي إني أجرب هذا الرجل بهدية، وأعطيه فيها نفائس من الأموال، وأغرب عليه بأمور المملكة، فإن كان ملكاً دنياوياً أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبياً لم يرضه المال ولازَمَنا في أمر الدِّين، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس في تفصيلها، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أرسلت إليه بلَبِنة من ذهب، فرأت الرسل الحيطان من ذهب فصغُر عندهم ما جاءوا به. وقال مجاهد: أرسلت إليه بمائتي غلام ومائتي جارية. وروي عن ابن عباس: بأثنتي عشرة وصيفة مذكَّرين قد ألبستهم زيّ الغلمان، وأثني عشر غلاماً مؤنثين قد ألبستهم زيّ النساء، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر، وباثنتي عشرة نجيبة تحمل لَبِن الذّهب، وبخرزتين إحداهما غير مثقوبة، والأخرى مثقوبة ثَقْباً معوجاً، وبقدح لا شيء فيه، وبعصا كان يتوارثها ملوك حمير، وأنفذت الهدية مع جماعة من قومها. وقيل: كان الرسول واحداً ولكن كان في صحبته أتباع وخدم. وقيل: أرسلت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو، وضمت إليه رجالاً ذوي رأي وعقل. والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة، قد خولف بينهم في اللباس، وقالت للغلمان: إذا كلَّمكم سليمان فكلِّموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء، وقالت للجواري: كلِّمنه بكلام فيه غِلظ يشبه كلام الرجل؛ فيقال: إن الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله. وقيل: إن الله أخبر سليمان بذلك، فأمر سليمان عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بِلبنات الذهب والفضة، ثم قال: أيّ الدواب رأيتم أحسن في البر والبحر؟ قالوا: يا نبيّ الله رأينا في بحر كذا دواب مُنقَّطة مختلفة ألوانها، لها أجنحة وأعراف ونواصي؛ فأمر بها فجاءت فشدّت على يمين الميدان وعلى يساره، وعلى لبِنات الذهب والفضة، وألقوا لها علوفاتها؛ ثم قال: للجن عليّ بأولادكم؛ فأقامهم -أحسن ما يكون من الشباب- عن يمين

الميدان ويساره. ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيه في مجلسه، ووضع له أربعة آلاف كرسيّ من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفاً فراسخ، وأمر السباع والوحوش والهوام والطير فٱصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى مُلك سليمان، ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم أحسن منها تَروث على لبِنات الذهب والفضة، تقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا ما معهم من الهدايا. وفي بعض الروايات: إن سليمان لما أمرهم بفرش الميدان بلبِنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدر موضع بساط من الأرض غير مفروش، فلما مروا به خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلما رأوا الشياطين رأوا منظراً هائلاً فظيعاً ففزعوا وخافوا، فقالت لهم الشياطين: جُوزُوا لا بأس عليكم؛ فكانوا يمرون على كُرْدُوس كُرْدُوس من الجن والإنس والبهائم والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان، فنظر إليهم سليمان نظراً حسناً بوجه طَلْق، وكانت قالت لرسولها: إن نظر إليك نظر مغضَب فاعلم أنه ملِك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه، وإن رأيت الرجل بشًّا لطيفاً فٱعلم أنه نبيّ مرسل فتفهم قوله وردّ الجواب، فأخبر الهدهد سليمان بذلك على ما تقدّم. وكانت عمدت إلى حُقّة من ذهب فجعلت فيها درّة يتيمة غير مثقوبة، وخرزة معوجة الثُّقْب، وكتبت كتاباً مع رسولها تقول فيه: إن كنت نبيّاً فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحُقَّة، وعرفني رأس العصا من أسفلها، وٱثقب الدرّة ثَقْباً مستوياً، وأدخل خيط الخرزة، وٱملأ القدح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء؛ فلما وصل الرسول ووقف بين يدي سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال: أين الحُقَّة؟ فأتي بها فحركها، فأخبره جبريل بما فيها، ثم أخبرهم سليمان. فقال له الرسول: صدقت؛ فٱثقب الدرّة، وأدخل الخيط في الخرَزَة؛ فسأل سليمان الجن والإنس عن ثَقْبها فعجزوا؛ فقال للشياطين: ما الرأي فيها؟ فقالوا: ترسل إلى الأَرَضة، فجاءت الأَرَضة فأخذت شعرة في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر؛ فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ قالت: تصيِّر رزقي في الشجر؛

فقال لها: لكِ ذلك. ثم قال سليمان: من لهذه الخَرَزَة يسلكها الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا نبيّ الله؛ فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثَّقْب حتى خرجت من الجانب الآخر؛ فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ قالت تجعل رزقي في الفواكه؛ قال: ذلك لكِ. ثم ميّز بين الغلمان [والجواري][1]. قال السديّ: أمرهم بالوضوء، فجعل الرجل يحدر الماء على اليد والرجل حَدْراً، وجعل الجواري يصببن من اليد اليسرى على اليد اليمنى، ومن اليمنى على اليسرى، فميز بينهم بهذا. وقيل: كانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها، ثم تحمله على الأخرى، ثم تضرب به على الوجه؛ والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به في الوجه، والجارية تصب على بطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد، والجارية تصب الماء صباً، والغلام يحدر على يديه؛ فميز بينهم بهذا. وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال: أرسلت بلقيس بمائة وصيفة ووصيف، وقالت: إن كان نبياً فسيعلم الذكور من الإناث؛ فأمرهم فتوضؤوا؛ فمن توضأ منهم فبدأ بمرفقه قبل كفّه قال هو من الإناث، ومن بدأ بكفه قبل مرفقه قال هو من الذكور؛ ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال: أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها، ثم رد سليمان الهدية؛ فروي أنه لما صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد؛ قالت لقومها: هذا أمر من السماء.

الثانية ـ كان النبي ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردّها علامة على ما في نفسها؛ على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أو نبياً؛ لأنه قال لها في كتابه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وهذا لا تقبل فيه فدية، ولا يؤخذ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل، وهي الرشوة التي لا تحل. وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال، وهذا ما لم يكن من مشرك.

---

(١) الزيادة من «قصص الأنبياء» للثعلبي.

الثالثة ـ فإن كانت من مشرك ففي الحديث «نُهِيت عن زَبْد المشركين» يعني رِفدهم وعطاياهم. وروي عنه عليه السلام أنه قبلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الدِّيليّ وغيره، فقال جماعة من العلماء بالنسخ فيهما، وقال آخرون: ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده ودخوله في الإسلام، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام، فعن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملاً على الكفّ عنه؛ وهذا أحسن تأويل للعلماء في هذا؛ فإنه جمع بين الأحاديث. وقيل غير هذا.

الرابعة ـ الهدية مندوب إليها، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة، روى مالك عن عطاء بن عبد الله الخراساني قال قال رسول الله ﷺ: «تَصافحوا يَذهب الغِلُّ وتَهادوا تحابُّوا وتَذهب الشَّحناء». وروى معاوية بن الحكم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تهادوا فإنه يضعِّف الودّ ويذهب بغوائل الصَّدر». وقال الدَّارَقُطْنِيّ تفرد به ابن بُجَير عن أبيه عن مالك، ولم يكن بالرضيّ؛ ولا يصح عن مالك ولا عن الزهري. وعن ابن شهاب قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «تهادوا بينكم فإن الهدية تُذهب السَّخِيمة» قال ابن وهب: سألت يونس عن السَّخِيمة ما هي فقال: الغلّ. وهذا الحديث وصله الوقّاصي عثمان عن الزهري وهو ضعيف. وعلى الجملة: فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية، وفيه الأسوة الحسنة. ومن فضْل الهدية مع اتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس، وتكسب المهدي والمهدَى إليه رنّة في اللقاء والجلوس. ولقد أحسن من قال:

هـدايـا النـاس بعضهـم لبعـض ... تُـولِّـد فـي قلـوبهـمُ الـوِصَـالاَ
وتَـزرعُ فـي الضميـر هَـوًى ووُدًّا ... وتُكسبهـمْ إذا حضـروا جَمـالاَ

آخر:

إنّ الهدايا لها حظٌّ إذا وَرَدتْ ... أحظى من الابن عند الوالد الحدب

الخامسة ـ روي عن النبي ﷺ أنه قال: «جلساؤكم شركاؤكم في الهدية» واختلف في معناه؛ فقيل: هو محمول على ظاهره. وقيل: يشاركهم على وجه

الكرم والمروءة، فإن لم يفعل فلا يجبر عليه. وقال أبو يوسف: ذلك في الفواكه ونحوها. وقال بعضهم: هم شركاؤه في السرور لا في الهدية. والخبر محمول في أمثال أصحاب الصُّفَّة والخوانق والرّباطات؛ أما إذا كان فقيهاً من الفقهاء ٱختص بها فلا شركة فيها لأصحابه، فإن أشركهم فذلك كرم وجود منه.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أي منتظرة ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ قال قتادة: يرحمها الله أن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها؛ قد علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس. وسقطت الألف في ﴿بم﴾ للفرق بين «ما» الخبرية. وقد يجوز إثباتها؛ قال[1]:

على ما قام يشتمني لئيمٌ كخنزير تمرَّغ في رمادِ

[٣٦] ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾ أي جاء الرسول سليمان بالهدية قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾. قرأ حمزة ويعقوب والأعمش بنون واحدة مشدّدة وياء ثابتة بعدها.

---

(١) هو حسان بن المنذر يهجو بني عائذ بن عمرو بن مخزوم وقبله:

وإن تصلح فإنك عائذيّ وصلح العائذيّ إلى فساد

الباقون بنونين وهو ٱختيار أبي عبيد؛ لأنها في كل المصاحف بنونين. وقد روى إسحاق عن نافع أنه كان يقرأ: ﴿أَتُمِدُّونِ﴾ بنون واحدة مخففة بعدها ياء في اللفظ. قال ابن الأنباري: فهذه القراءة يجب فيها إثبات الياء عند الوقف، ليصح لها موافقة هجاء المصحف. والأصل في النون التشديد، فخفف التشديد من ذا الموضع كما خفف من: أشهد أنك عالم؛ وأصله: أنّك عالم. وعلى هذا المعنى بنى الذي قرأ ﴿يُشَاقُّونِ فِيهِمْ﴾، ﴿أَتُحَاجُّونِ فِي اللَّهِ﴾. وقد قالت العرب: الرجال يضربونِ ويقصدونِ، وأصله يضربونّي ويقصدونّي؛ لأنه إدغام يضربونني ويقصدونني قال الشاعر:

تَـرْهبيـنِ والجِيـدُ منـكِ لِلَيْلَـى والحَشَـا والبُغَـامُ[1] والعينَـانِ

والأصل ترهبيني فخفف. ومعنى ﴿أَتُمِدُّونَنِي﴾ أتزيدونني مالاً إلى ما تشاهدونه من أموالي.

قوله تعالى: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ أي فما أعطاني من الإسلام والملك والنبوّة خير مما أعطاكم، فلا أفرح بالمال. و «آتانِ» وقعت في كل المصاحف بغير ياء. وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص ﴿آتَانِيَ اللَّهُ﴾ بياء مفتوحة؛ فإذا وقفوا حذفوا. وأما يعقوب فإنه يثبتها في الوقف ويحذف في الوصل لالتقاء الساكنين. الباقون بغير ياء في الحالين. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد: ٱرجع إليهم بهديتهم. ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ لام قسم والنون لها لازمة. قال النحاس: وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول: هي لام توكيد وكذا كان عنده أن اللامات كلها ثلاث لا غير؛ لام توكيد، ولام أمر، ولام خفض؛ وهذا قول الحذاق من النحويين؛ لأنهم يردّون الشيء إلى أصله؛ وهذا لا يتهيأ إلا لمن درب في العربية. ومعنى ﴿ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي لا طاقة لهم عليها. ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾ أي من أرضهم ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ وقيل: ﴿منها﴾ أي من قرية سبأ. وقد سبق ذكر القرية في قوله: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

---

(١) بغام الظبية: صوتها.

قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. ﴿أَذِلَّةً﴾ قد سُلبوا ملكهم وعزّهم. ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي مهانون أذلاءِ من الصّغر وهو الذل إن لم يسلموا؛ فرجع إليها رسولها فأخبرها؛ فقالت: قد عرفت أنه ليس بملك ولا طاقة لنا بقتال نبيّ من أنبياء الله. ثم أمرت بعرشها فجعل في سبعة أبيات بعضها في جوف بعض؛ في آخر قصر من سبعة قصور؛ وغلقت الأبواب، وجعلت الحرس عليه، وتوجهت إليه في ٱثني عشر ألف قَيْل من ملوك اليمن، تحت كل قَيْل مائة ألف. قال ٱبن عباس: وكان سليمان مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه؛ فنظر ذات يوم رَهْجاً[١] قريباً منه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: بلقيس يا نبيّ الله. فقال سليمان لجنوده ـ وقال وهب وغيره للجن ـ ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وقال عبد الله بن شداد. كانت بلقيس على فرسخ من سليمان لما قال: ﴿أَيُّكُمْ يأتِيني بِعرشِها﴾ وكانت خلفت عرشها بسبأ، ووكلت به حفظة. وقيل: إنها لما بعثت بالهدية بعثت رسلها في جندها لتغافص[٢] سليمان عليه السلام بالقتل قبل أن يتأهب سليمان لها إن كان طالب ملك، فلما علم ذلك قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾. قال ٱبن عباس: كان أمره بالإتيان بالعرش قبل أن يكتب الكتاب إليها، ولم يكتب إليها حتى جاءه العرش. وقال ٱبن عطية: وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيء هديتها وردّه إياها ، وبعثه الهدهد بالكتاب ؛ وعلى هذا جمهور المتأولين . وٱختلفوا في فائدة ٱستدعاء عرشها ؛ فقال قتادة : ذكر له بعظَم وجَوْدة ؛ فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمي أموالهم؛ والإسلام على هذا الدِّين ؛ وهو قول ٱبن جريج . وقال ٱبن زيد : ٱستدعاه ليريها القدرة التي هي من عند الله ، ويجعله دليلاً على نبوته ؛ لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب ؛ و ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ على هذا التأويل بمعنى مستسلمين ؛ وهو قول ٱبن عباس . وقال ٱبن زيد أيضاً : أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال : ﴿نكِّروا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي ﴾. وقيل : خافت الجن أن يتزوّج بها سليمان عليه السلام فيولد له منها، فلا يزالون في السخرة والخدمة لنسل سليمان فقالت لسليمان

---

(١) الرهج: الغبار.

(٢) المغافصة: الأخذ على غرة.

في عقلها خلل؛ فأراد أن يمتحنها بعرشها، وقيل: [أراد] أن يختبر صدق الهدهد في قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ قاله الطبري. وعن قتادة: أحب أن يراه لما وصفه الهدهد. والقول الأوّل عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾. ولأنها لو أسلمت لحظر عليه مالها فلا يؤتى به إلا بإذنها. رويَ أنه كان من فضة وذهب مرصعاً بالياقوت الأحمر والجوهر، وأنه كان في جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفي ﴿عِفْرِيَةٌ﴾ ورويت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وفي الحديث: «إن الله يُبغِض العِفرِيةَ النِّفرِيَةَ». إتباع لعفرية. قال قتادة: هي الداهية. قال النحاس: يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عِفر وعِفرية وعِفريت وعُفَارِية. وقيل ﴿عفريت﴾ أي رئيس. وقرأت فرقة ﴿قَالَ عِفْرٌ﴾ بكسر العين؛ حكاه ابن عطية؛ قال النحاس: من قال عفرية جمعه على عفارٍ، ومن قال عفريت كان له في الجمع ثلاثة أوجه؛ إن شاء قال عفاريت، وإن شاء قال عَفارٍ؛ لأن التاء زائدة؛ كما يقال طواغٍ في جمع طاغوت، وإن شاء عوض من التاء ياء فقال عَفارِي. والعفريت من الشياطين القوي المارد. والتاء زائدة. وقد قالوا تَعَفْرَتَ الرجل إذا تخلق بخلق الأذاية. وقال وهب بن منبه: اسم هذا العفريت كودن؛ ذكره النحاس. وقيل: ذكوان؛ ذكره السهيلي. وقال شعيب الجُبّائي: اسمه دعوان. ورُوي عن ابن عباس أنه صخر الجني. ومن هذا الاسم قول ذي الرُّمَّة:

كأنّه كوكبٌ في إثْرِ عِفْرِيَةٍ ... مُصَوَّبٌ[1] في سوادِ الليل مُنْقضِبُ

وأنشد الكسائيّ[2]:

إذ قال شيطانُهُمُ العِفريتُ ... ليس لكمْ مُلكٌ ولا تَثبِيتُ

---

(١) وفي ديوانه طبع أوروبا «مسوّم» بدل «مصوّب» وهو بمعنى معلم منقضب والبيت في وصف ثور وحشي؛ كأن الثور كوكب مصوّب منقضب في إثر عفريّة في سواد الليل.

(٢) البيت لرؤبة من قصيدة يمدح بها مسلمة بن عبد الملك.

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن عفريتاً من الجن جعل يَفْتِك[1] عليّ البارحةَ ليقطع عليّ الصلاةَ وإنّ الله أمكنني منه فَذَعَتُّه»[2] وذكر الحديث. وفي «البخاريّ»: «تفَلّت[3] عليّ البارحةَ» مكان «جعل يَفْتِك». وفي «الموطأ» عن يحيى بن سعيد أنه قال: أُسْرِي برسول الله ﷺ، فرأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار، كلما التفت رسول الله ﷺ رآه؛ فقال جبريل: أفلا أعلِّمك كلماتٍ تقولهنّ إذا قلتهنّ طُفِئت شعلته وخَرَّ لفيه؛ فقال رسول الله ﷺ: «بلى» فقال: «أعوذ بالله الكريم وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر من شرّ ما ينزل من السماء وشرّ ما يَعرُج فيها [وشرّ ما ذرأ في الأرض، وشرّ ما يخرج منها][4] ومن فِتن الليل والنهار ومن طوارقِ الليل والنهار إلا طارقاً يَطرُق بخيرٍ يا رحمن».

قوله تعالى: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ يعني في مجلسه الذي يحكم فيه. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي قويٌّ على حمله. ﴿أَمِينٌ﴾ على ما فيه. ابن عباس: أمين على فرج المرأة؛ ذكره المهدوي. فقال: سليمان أريد أسرع من ذلك؛ فـ ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل، وكان صدّيقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أَعْطى، وإذا دعي به أجاب. وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي ﷺ: «إن اسم الله الأعظم الذي دعا به آصف بن برخيا يا حيّ يا قيُّوم» قيل: وهو بلسانهم، أهيا شراهيا؛ وقال الزهري: دعاء الذي عنده اسم الله الأعظم؛ يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ايتني بعرشها؛ فمثل بين يديه. وقال مجاهد: دعا فقال: يا إلهنا وإله كل شيء يا ذا الجلال والإكرام. قال السُّهَيْليّ: الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا ابن خالة سليمان؛ وكان عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى.

---

(١) الفتك: الأخذ في غفلة وخديعة.

(٢) فذعته: أي دفعته دفعاً شديداً. وفي رواية «فذعته» بالذال المعجمة ومعناه خنقته.

(٣) «تفلت»: أي تعرض لي فلتة أي بغتة.

(٤) الزيادة من «الموطأ».

وقيل: هو سليمان نفسه؛ ولا يصح في سياق الكلام مثل هذا التأويل. قال ٱبن عطية: وقالت فرقة هو سليمان عليه السلام، والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لما قال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ كأن سليمان ٱستبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ وٱستدل قائلو هذه المقالة بقول سليمان: ﴿هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾.

قلت: ما ذكره ٱبن عطية قاله النحاس في معاني القرآن له، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى. قال بحر: هو مَلَك بيده كتاب المقادير، أرسله الله عند قول العفريت. قال السُّهيليّ: وذكر محمد بن الحسن المقرىء أنه ضَبَّة بن أُدّ؛ وهذا لا يصح البتة لأن ضَبَّة هو ابن أُدّ بن طابخة، وٱسمه عمرو بن الياس بن مُضر بن نِزار بن مَعدّ، ومَعدّ كان في مدة بختنصر، وذلك بعد عهد سليمان بدهر طويل؛ فإذا لم يكن معدّ في عهد سليمان، فكيف ضَبّة بن أُدّ وهو بعده بخمسة آباء؟! وهذا بيّن لمن تأمله. ابن لَهِيعة: هو الخضر عليه السلام. وقال ابن زيد: الذي عنده علم من الكتاب رجل صالح كان في جزيرة من جزائر البحر، خرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض ؟ وهل يعبد الله أم لا ؟ فوجد سليمان ، فدعا بٱسم من أسماء الله تعالى فجيء بالعرش. وقول سابع: إنه رجل من بني إسرائيل ٱسمه يمليخا كان يعلم اسم الله الأعظم؛ ذكره القشيريّ. وقال ابن أبي بزة: الرجل الذي كان عنده علم من الكتاب اسمه أسطوم وكان عابداً في بني إسرائيل ؛ ذكره الغزنوي . وقال محمد بن المنكدر : إنما هو سليمان عليه السلام ؛ أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم وليس ذلك كذلك ؛ إنما كان رجل من بني إسرائيل عالم آتاه الله علماً وفقهاً قال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قال : هات. قال : أنت نبيّ الله ٱبن نبي الله فإن دعوت الله جاءك به، فدعا الله سليمان فجاءه الله بالعرش . وقول ثامن : إنه جبريل عليه السلام ؛ قاله النخعي ؛ وروي عن ٱبن عباس . وعلم الكتاب على هذا علمه بكتب الله المنزلة، أو بما في اللوح المحفوظ. وقيل: علم كتاب سليمان إلى بلقيس. قال ٱبن عطية: والذي

عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بني إسرائيل ٱسمه آصف بن برخيا؛ روي أنه صلى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبيّ الله ٱمدد بصرك فمدّ بصره نحو اليمن فإذا بالعرش، فما ردّ سليمان بصره إلا وهو عنده. قال مجاهد: هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئاً حسيراً. وقيل: أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول: ٱفعل كذا في لحظة عين؛ وهذا أشبه؛ لأنه إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة، وإن كان من آصف أو من غيره من أولياء الله فهي كرامة، وكرامة الوليّ معجزة النبيّ. قال القشيريّ: وقد أنكر كرامات الأولياء من قال إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان، قال للعفريت: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. وعند هؤلاء ما فعل العفريت فليس من المعجزات ولا من الكرامات، فإن الجن يقدرون على مثل هذا. ولا يقطع جوهر في حال واحدة مكانين، بل يتصوّر ذلك بأن يعدم الله الجوهر في أقصى الشرق ثم يعيده في الحالة الثانية؛ وهي الحالة التي بعد العدم في أقصى الغرب. أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها. قال القشيريّ: ورواه وهب عن مالك. وقد قيل: بل جيء به في الهواء، قاله مجاهد. وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة. وقال مالك: كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام. وفي «التفاسير» ٱنخرق بعرش بلقيس مكانه الذي هو فيه ثم نبع بين يدي سليمان؛ قال عبد الله بن شدّاد: وظهر العرش من نفق تحت الأرض؛ فالله أعلم أيّ ذلك كان.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ أي ثابتاً عنده. ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أي هذا النصر والتمكين من فضل ربي. ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ قال الأخفش: المعنى لينظر ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾. وقال غيره: معنى ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ ليتعبدني؛ وهو مجاز. والأصل في الابتلاء الاختبار أي ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه، حيث ٱستوجب بشكره تمام النعمة ودوامها، والمزيد منها. والشكر قيد النعمة الموجودة، وبه تنال النعمة المفقودة. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ أي عن الشكر ﴿كَرِيمٌ﴾ في التفضل.

[٤١] ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

[٤٢] ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

[٤٣] ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي غيِّروه. قيل: جعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه. وقيل: غيِّر بزيادة أو نقصان. قال الفرّاء وغيره: إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له: إن في عقلها شيئاً فأراد أن يمتحنها. وقيل: خافت الجن أن يتزوّج بها سليمان فيولد له منها ولد فيبقون مسخَّرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان: إنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل الحمار؛ فقال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ لنعرف عقلها. وكان لسليمان ناصح من الجن، فقال كيف لي أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفها؟ فقال: أنا أجعل في هذا القصر ماء، وأجعل فوق الماء زجاجاً، تظن أنه ماء فترفع ثوبها فترى قدميها؛ فهذا هو الصرح الذي أخبر الله تعالى عنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ يريد بلقيس، ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق، فلم تقرّ بذلك ولم تنكر، فعلم سليمان كمال عقلها. قال عكرمة: كانت حكيمة فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾. وقال مقاتل: عرفته ولكن شَبَّهت عليهم كما شَبَّهوا عليها؛ ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت نعم هو؛ وقاله الحسن بن الفضل أيضاً. وقيل: أراد سليمان أن يظهر لها أنّ الجن مسخَّرون له، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوّة وتؤمن به. وقد قيل هذا في مقابلة تعميتها الأمر في باب الغلمان والجواري. ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ قيل: هو من قول بلقيس؛ أي أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لأمره. وقيل: هو من قول سليمان أي أوتينا العلم

بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرّة. وقيل: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها. وقيل: هو من كلام قوم سليمان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الوقف على ﴿من دونِ اللَّهِ﴾ حسن؛ والمعنى: منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر فـ ﴿ما﴾ في موضع رفع. النحاس: المعنى؛ أي صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه [عن أن تسلم][1]. ويجوز أن يكون ﴿ما﴾ في موضع نصب، ويكون التقدير: وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله؛ أي حال بينها وبينه. ويجوز أن يكون المعنى: وصدها الله؛ أي منعها الله عن عبادتها غيره فحذفت ﴿عن﴾ وتعدى الفعل. نظيره: ﴿واختار موسى قومه﴾ أي من قومه. وأنشد سيبويه[2]:

ونُبِّئْتُ عبدَ الله بالجوِّ أصبحتْ كِراماً مواليها لئيماً صميمُها

وزعم أن المعنى عنده نبئت عن عبد الله. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ قرأ سعيد بن جبير ﴿أنها﴾ بفتح الهمزة، وهي في موضع نصب بمعنى لأنها. ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ما﴾ فيكون في موضع رفع إن كانت ﴿ما﴾ فاعلة الصد. والكسر على الاستئناف.

[٤٤] ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرحَ﴾ التقدير عند سيبويه: ادخلي إلى الصرح فحذف إلى وعدّي الفعل. وأبو العباس يغلِّطه في هذا؛ قال: لأن دخل يدل على مدخول. وكان الصرح صحناً من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان، عمله ليريها ملكاً أعظم من ملكها؛ قاله مجاهد.

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) البيت للفرزدق، وأراد بعبد الله القبيلة، وهي عبد الله بن دارم.

وقال قتادة: كان من قوارير خلفه ماء ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي ماء. وقيل: الصرح القصر؛ عن أبي عبيدة. كما قال[1]:

تَحسِبُ أعلامَهنّ الصُّروحَا

وقيل: الصَّرْح الصَّحْن؛ كما يقال: هذه صَرْحة الدار وقاعتها؛ بمعنى. وحكى أبو عبيدة في الغريب المصنف أن الصَّرح كل بناء عال مرتفع من الأرض، وأن الممرد الطويل. النحاس: أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل عملاً واحداً صرح؛ من قولهم: لبن صريح إذا لم يَشُبه ماء؛ ومن قولهم: صَرَّح بالأمر، ومنه: عربي صريح. وقيل: عمله ليختبر قول الجن فيها إن أمها من الجن، ورِجلها رِجل حمار؛ قاله وهب بن منبه. فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد بها الغرق، وتعجبت من كون كرسيه على الماء، ورأت ما هالها، ولم يكن بد من امتثال الأمر ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ فإذا هي أحسن الناس ساقاً؛ سليمة مما قالت الجن، غير أنها كانت كثيرة الشعر، فلما بلغت هذا الحد، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ والممرد المحكوك المملس، ومنه الأمرد. وتمرد الرجل إذا أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه؛ قاله الفرّاء. ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق عليها. ورملة مرداء إذا كانت لا تنبِت. والممرد أيضاً المطوَّل، ومنه قيل للحصن مارد. أبو صالح: طويل على هيئة النخلة. ابن شجرة: واسع في طوله وعرضه. قال:

غدوت صباحاً باكراً فوجدتهم قبيل الضحا في السَّابريِّ الممرَّد

أي الدروع الواسعة. وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظلم؛ على ما يأتي. ولما رأى سليمان عليه السلام قدميها قال لناصحه من الشياطين: كيف لي أن أقلع هذا الشعر من غير مضرة بالجسد؟ فدله على عمل النُّورَة، فكانت النّورَة والحمامات من يومئذٍ. فيروى أن سليمان تزوّجها عند ذلك وأسكنها الشام؛ قاله الضحاك.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب وهو بتمامه:

علـى طـرق كنحـور الظبـا ء تحسـب أعـلامهـنّ الصـروحـا

يقول: هذه الطرق كنحور الظباء في بيانها.

وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقاش: تزوّجها وردّها إلى ملكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة؛ فولدت له غلاماً سماه داود مات في زمانه. وفي بعض الأخبار أن النبي ﷺ قال: «كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ساقين وهي من أزواج سليمان عليه السلام في الجنة» فقالت عائشة: هي أحسن ساقين مني؟ فقال عليه السلام: «أنت أحسن ساقين منها في الجنة» ذكره القشيري. وذكر الثعلبي عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «أول من ٱتخذ الحمامات سليمان بن داود فلما ألصق ظهره إلى الجدار فمسه حرّها قال أوّاه من عذاب الله». ثم أحبها حباً شديداً وأقرها على ملكها باليمن، وأمر الجن فبنوا لها ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ٱرتفاعاً: سَلْحون وبَيْنون وغُمْدان؛ ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام. وحكى الشعبي أن ناساً من حِمْير حفروا مقبرة الملوك، فوجدوا فيها قبراً معقوداً فيه ٱمرأة عليها حُلَل منسوجة بالذهب، وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب:

يا أيّها الأقوامُ عُوجُوا معاً ... وأربعوا في مَقْبرِي العِيسَا

لتعلموا أنّيَ تلك التي ... قد كنتُ أُدعَى الدهر بَلْقِيسَا

شَيَّدْتُ قصرَ المُلْكِ في حِميرٍ ... قَوْمِي وقِدْماً كان مأنوساً

وكنتُ في مُلْكي وتدبيره ... أُرغِمُ في الله المَعَاطِيسَا

بَعْلِي سليمانُ النبيُّ الذي ... قد كان للتوراة دِرِّيسَا

وسخّر الريحُ له مركباً ... تَهبُّ أحياناً رَوَامِيسَا

مع ٱبن داودَ النبيّ الذي ... قَدَّسه الرحمنُ تَقْدِيسَا

وقال محمد بن إسحاق ووهب بن منبه: لم يتزوجها سليمان، وإنما قال لها: ٱختاري زوجاً؛ فقالت: مثلي لا ينكح وقد كان لي من الملك ما كان. فقال: لا بد في الإسلام من ذلك. فٱختارت ذا تُبَّع ملك هَمْدان، فزوجه إياها وردها إلى اليمن، وأمر زوبعة أمير جنّ اليمن أن يطيعه، فبنى له المصانع، ولم يزل أميراً حتى مات سليمان. وقال قوم: لم يرد فيه خبر صحيح

لا في أنه تزوجها ولا في أنه زوّجها. وهي بلقيس بنت السرح بن الهداهد بن شراحيل بن أدد آبن حدر بن السرح بن الحرس بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وكان جدها الهداهد ملكاً عظيم الشأن قد ولد له أربعون ولداً كلهم ملوك، وكان ملك أرض اليمن كلها، وكان أبوها السرح يقول لملوك الأطراف: ليس أحد منكم كفؤا لي، وأبى أن يتزوج منهم، فزوجوه امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن، فولدت له بلقمة وهي بلقيس، ولم يكن له ولد غيرها. وقال أبو هريرة قال النبيّ ﷺ: «كان أحد أبوي بلقيس جنياً» فمات أبوها، وآختلف عليها قومها فرقتين، وملكوا أمرهم رجلا فساءت سيرته، حتى فجر بنساء رعيته، فأدركت بلقيس الغيرة، فعرضت عليه نفسها فتزوجها، فسقته الخمر حتى حزت رأسه، ونصبته على باب دارها فملوكها. وقال أبو بكرة: ذكرت بلقيس عند النبيّ ﷺ فقال: «لا يفلح قوم ولّوا أمرهم[1] آمرأة». ويقال: إن سبب تزوج أبيها من الجن أنه كان وزيراً لملك عاتٍ يغتصب نساء الرعية، وكان الوزير غيورا فلم يتزوج، فصحب مرة في الطريق رجلاً لا يعرفه، فقال هل لك من زوجة؟ فقال: لا أتزوج أبداً، فإن ملك بلدنا يغتصب النساء من أزواجهن، فقال لئن تزوجت آبنتي لا يغتصبها أبداً. قال: بل يغتصبها. قال: إنا قوم من الجن لا يقدر علينا؛ فتزوّج آبنته فولدت له بلقيس؛ ثم ماتت الأم وآبتنت بلقيس قصراً في الصحراء، فتحدث أبوها بحديثها غلطاً، فنمى للملك خبرها فقال له: يا فلان تكون عندك هذه البنت الجميلة وأنت لا تأتيني بها، وأنت تعلم حبي للنساء! ثم أمر بحبسه ، فأرسلت بلقيس إليه إني بين يديك؛ فتجهز للمسير إلى قصرها ، فلما هَمَّ بالدخول بمن معه أخرجت إليه الجواري من بنات الجن مثل صورة الشمس، وقلن له ألا تستحي؟! تقول لك سيدتنا أتدخل بهؤلاء الرجال معك على أهلك! فأذن لهم بالانصراف ودخل وحده، وأغلقت عليه الباب وقتلته بالنعال، وقطعت رأسه ورمت به إلى عسكره، فأمَّرُوها عليهم؛ فلم تزل كذلك إلى أن

---

(١) الحديث مروي في «البخاري والنسائي والترمذي» من طريق أبي بكرة في آبنة كسرى؛ وذلك أنه لما بلغ النبيّ ﷺ أن فارساً ملكوا آبنة كسرى لما هلك قال ﷺ: «ولن يفلح قوم ولوا أمرهم آمرأة».

بلّغ الهدهد خبرها سليمان عليه السلام. وذلك أن سليمان لما نزل في بعض منازله قال الهدهد: إن سليمان قد ٱشتغل بالنزول، فٱرتفع نحو السماء فأبصر طول الدنيا وعرضها، فأبصر الدنيا يميناً وشمالاً، فرأى بستاناً لبلقيس فيه هدهد، وكان اسم ذلك الهدهد عفير، فقال عفير اليمن ليعفور سليمان: من أين أقبلت؟ وأين تريد؟ قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود. قال: ومن سليمان؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وكل ما بين السماء والأرض. فمن أين أنت؟ قال: من هذه البلاد؛ ملكها ٱمرأة يقال لها بلقيس، تحت يدها ٱثنا عشر ألف قَيْل، تحت يد كل قَيْل مائة ألف مقاتل من سوى النساء والذراري؛ فٱنطلق معه ونظر إلى بلقيس ومُلكها، ورجع إلى سليمان وقت العصر، وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة فلم يجده، وكانوا على غير ماء. قال ٱبن عباس في رواية: وقعت عليه نفحة من الشمس. فقال لوزير الطير: هذا موضع من؟ قال: يا نبيّ الله هذا موضع الهدهد. قال: وأين ذهب؟ قال: لا أدري أصلح الله الملك. فغضب سليمان وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾ الآية. ثم دعا بالعُقاب سيد الطير وأصرمها وأشدها بأسا فقال: ما تريد يا نبيّ الله؟ فقال: عليّ بالهدهد الساعة. فرفع العُقَاب نفسه دون السماء حتى لزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقَصْعة بين يدي أحدكم، فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو اليمن، فانقض نحوه وأنشب فيه مِخْلَبه. فقال له الهدهد: أسألك بالله الذي أقدرك وقوّاك عليّ إلا ما رحمتني. فقال له: الويل لك؛ وثكلتك أمُّك! إن نبيّ الله سليمان حلف أن يعذبك أو يذبحك. ثم أتى به فٱستقبلته النّسور وسائر عساكر الطير. وقالوا الويل لك؛ لقد توعدك نبيّ الله. فقال : وما قدري وما أنا! أما ٱستثنى؟ قالوا: بلى! إنه قال: ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ثم دخل على سليمان فرفع رأسه، وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعاً لسليمان عليه السلام. فقال له سليمان: أين كنت عن خدمتك ومكانك؟ لأعذبنك عذاباً شديداً أو لأذبحنك. فقال له الهدهد: يا نبي الله! ٱذكر وقوفك بين يدي الله بمنزلة وقوفي بين يديك. فٱقشعر جلد سليمان وٱرتعد وعفا عنه. وقال عكرمة: إنما صرف الله سليمان عن ذبح الهدهد أنه

كان باراً بوالديه، ينقل الطعام إليهما فيزقهما. ثم قال له سليمان: ما الذي أبطأ بك؟ فقال الهدهد ما أخبر الله عن بلقيس وعرشها وقومها حسبما تقدم بيانه. قال الماوردي: والقول بأن أمّ بلقيس جنية مستنكر من العقول لتباين الجنسين، وٱختلاف الطبعين، وتفارق الحِسَّين[1]؛ لأن الآدمي جسماني والجن روحاني، وخلق الله الآدمي من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، ويمنع الامتزاج مع هذا التباين، ويستحيل التناسل مع هذا الاختلاف.

قلت: قد مضى القول في هذا، والعقل لا يحيله مع ما جاء من الخبر في ذلك، وإذا نظر في أصل الخلق فأصله الماء على ما تقدم بيانه، ولا بعد في ذلك؛ والله أعلم. وفي التنزيل ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ والْأَوْلَادِ﴾ وقد تقدم. وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ ولا جانٌّ﴾ على ما يأتي في ﴿الرحمن﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي بالشرك الذي كانت عليه؛ قاله ٱبن شجرة. وقال سفيان: أي بالظن الذي توهمته في سليمان؛ لأنها لما أمرت بدخول الصرح حسبته لجة، وأن سليمان يريد تغريقها فيه. فلما بان لها أنه صرح ممرد من قوارير علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن. وكسرت ﴿إن﴾ لأنها مبتدأة بعد القول. ومن العرب من يفتحها فيعمل فيها القول. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. إذا سكنت ﴿مع﴾ فهي حرف جاء لمعنى بلا اختلاف بين النحويين. وإذا فتحتها ففيها قولان: **أحدهما** ـ أنه بمعنى الظرف ٱسم. **والآخر** ـ أنّه حرف خافض مبني على الفتح؛ قاله النحاس.

[٤٥] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

[٤٦] ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

[٤٧] ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) في نسخة «الجسمين».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تقدّم معناه. ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد: أي مؤمن وكافر؛ قال: والخصومة ما قصه الله تعالى في قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ إلى قوله: ﴿كَافِرُونَ﴾. وقيل: تخاصمهم أن كل فرقة قالت: نحن على الحق دونكم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة؛ المعنى: لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدمون الكفر الذي يوجب العقاب؛ فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار: ٱيتنا بالعذاب. وقيل: أي لم تفعلون ما تستحقون به العقاب؛ لا أنهم ٱلتمسوا تعجيل العذاب. ﴿لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ الله﴾ أي هلا تتوبون إلى الله من الشرك. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكي ترحموا؛ وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أي تشاءمنا. والشؤم النحس. ولا شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من ٱعتقاد الطِّيرة. ومن ظن أن خُوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء، أو يدفع مقدوراً فقد جهل. وقال الشاعر:

طِيرةُ الدهر لا تَردُّ قضاءً ... فاعذر الدهرَ لا تشبه بلومِ
أيُّ يومٍ يَخصُّه بسعودٍ ... والمنايا ينزلن في كل يومِ
ليس يومٌ إلا وفيه سعودٌ ... ونحوسٌ تجري لقومٍ فقومِ

وقد كانت العرب أكثر الناس طِيرة، وكانت إذا أرادت سفراً نفّرت طائراً، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت، وإن طار شمالاً رجعت وتشاءمت، فنهى النبيّ ﷺ عن ذلك وقال: «أقِرُّوا الطير علَى وكناتها»[1] على ما تقدّم بيانه في ﴿المائدة﴾[2]. ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي مصائبكم. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي تمتحنون. وقيل: تعذبون بذنوبكم.

---

(١) الوكنات (بضم الكاف وفتحها وسكونها) جمع وكنة (بالسكون) وهي عش الطائر ووكره. ويروى: «على مكناتها».

(٢) راجع ٦/ ٦٠ طبعة أولى أو ثانية.

[٤٨] ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

[٤٩] ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي في مدينة صالح وهي الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة رجال من أبناء أشرافهم. قال الضحاك: كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة، وكانوا يفسدون في الأرض ويأمرون بالفساد، فجلسوا عند صخرة عظيمة فقلبها الله عليهم. وقال عطاء بن أبي رَبَاح: بلغني أنهم كانوا يقرِضون الدنانير والدراهم، وذلك من الفساد في الأرض؛ وقاله سعيد بن المسيّب. وقيل: فسادهم أنهم يتبعون عورات الناس ولا يسترون عليهم. وقيل: غير هذا. واللازم من الآية ما قاله الضحاك وغيره أنهم كانوا من أوجه القوم وأقناهم وأغناهم، وكانوا أهل كفر ومعاص جمة؛ وجملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون. والرهط ٱسم للجماعة، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط. والجمع أرهط وأراهِط. قال:

يـــا بـــؤس للحـــرب التـــي وضعـــت أراهـــط فـــٱستـــراحـــوا

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدَار عاقر الناقة؛ ذكره ٱبن عطية.

قلت: وٱختلف في أسمائهم؛ فقال الغزنوي: وأسماؤهم قُدَار بن سالف ومصدع وأسلم ودسما وذهيم وذعما وذعيم وقتال وصداق. ٱبن إسحق: رأسهم قُدَار بن سالف ومصدع بن مهرع، فٱتبعهم سبعة؛ هم بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تعرف أسماؤهم . وذكر الزمخشري أسماءهم عن وهب بن منبه: الهذيل بن عبد رب، غنم بن غنم، رياب بن مهرج، مصدع بن مهرج، عمير بن كردبة، عاصم بن مخرمة، سبيط بن صدقة، سمعان بن صفي، قدار بن سالف؛ وهم الذي سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاة قوم صالح، وكانوا من أبناء أشرافهم. السهيلي: ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وسماهم بأسمائهم، وذلك لا ينضبط برواية، غير أني أذكره على وجه الاجتهاد

والتخمين، ولكن نذكره على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب، وهم: مصدع بن دهر. ويقال دهم، وقدار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وداب ودعما وهرما ودعين بن عمير.

قلت: وقد ذكر الماوردي أسماءهم عن ابن عباس فقال: هم دعما ودعيم وهرما وهريم وداب وصواب ورياب ومسطع وقدار، وكانوا بأرض الحجر وهي الشام.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ يجوز أن يكون ﴿تَقَاسَمُوا﴾ فعلا مستقبلاً وهو أمر؛ أي قال بعضهم لبعض احلفوا. ويجوز أن يكون ماضياً في معنى الحال كأنه قال: قالوا متقاسمين بالله؛ ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ وليس فيها ﴿قَالُوا﴾. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ قراءة العامة بالنون فيهما واختاره أبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء فيهما، وضم التاء واللام على الخطاب أي أنهم تخاطبوا بذلك؛ واختاره أبو عبيد. وقرأ مجاهد وحميد بالياء فيهما، وضم الياء واللام على الخبر. والبيات مباغتة العدو ليلاً. ومعنى ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ أي لرهط صالح الذي له ولاية الدم. ﴿مَا شَهِدْنَا مُهْلَكَ[1] أَهْلِهِ﴾ أي ما حضرنا، ولا ندري من قتله وقتل أهله. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في إنكارنا لقتله. والمُهْلَك بمعنى الإهلاك؛ ويجوز أن يكون الموضع. وقرأ [عاصم][2] والسلميّ (بفتح الميم واللام) أي الهلاك؛ يقال: ضرب يضرب مَضْرَبا أي ضربا. وقرأ المفضّل وأبو بكر (بفتح الميم وجر اللام) فيكون اسم المكان كالمجلس لموضع الجلوس؛ ويجوز أن يكون مصدراً؛ كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي رجوعكم.

[٥٠] ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾.

[٥١] ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾.

[٥٢] ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾.

[٥٣] ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾.

---

(١) «مهلك» بضم الميم وفتح اللام قراءة الجمهور.

(٢) في الأصل: «وقرأ حفص»... الخ وحفص يقرأ بفتح الميم وكسر اللام.

﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ مكرهم ما روي أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة، وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب، أتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً ويقتلوه وأهله المختصين به؛ قالوا: فإذا كان كاذباً في وعيده أوقعنا به ما يستحق، وإن كان صادقاً كنا عجلناه قبلنا، وشفينا نفوسنا؛ قاله مجاهد وغيره. قال ابن عباس: أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة، فأمتلأت بهم دار صالح، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم، فقتلتهم الملائكة رضخا بالحجارة فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها. وقال قتادة: خرجوا مسرعين إلى صالح، فسلط عليهم ملك بيده صخرة فقتلهم. وقال السدي: نزلوا على جرف من الأرض، فأنهار بهم فأهلكهم الله تحته. وقيل: اختفوا في غار قريب من دار صالح، فأنحدرت عليهم صخرة شدختهم جميعاً؛ فهذا ما كان من مكرهم. ومكر الله مجازاتهم على ذلك. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي بالصيحة التي أهلكتهم. وقد قيل: إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل. والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد، ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة. وكان الأعمش والحسن وابن أبي إسحق وعاصم وحمزة والكسائي يقرؤون ﴿أَنَّا﴾ بالفتح؛ وقال ابن الأنباري: فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على ﴿عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ لأن ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ خبر كان. ويجوز أن تجعلها في موضع رفع على الإتباع للعاقبة. ويجوز أن تجعلها في موضع نصب من قول الفراء، وخفض من قول الكسائي على معنى: بأنا دمرناهم ولأنا دمرناهم. ويجوز أن تجعلها في موضع نصب على الإتباع لموضع ﴿كَيْفَ﴾ فمن هذه المذاهب لا يحسن الوقف على ﴿مَكْرِهِمْ﴾. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بكسر الألف على الاستئناف؛ فعلى هذا المذهب يحسن الوقف على ﴿مَكْرِهِمْ﴾. قال النحاس: ويجوز أن تنصب ﴿عَاقِبَةُ﴾ على خبر ﴿كان﴾ ويكون ﴿إِنَّا﴾ في موضع رفع على أنها اسم ﴿كان﴾. ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ تبييناً للعاقبة؛ والتقدير: هي إنا دمرناهم؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أبيّ ﴿أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ﴾ تصديقاً لفتحها.

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ قراءة العامة بالنصب على الحال عند الفراء والنحاس؛ أي خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن. وقال الكسائي وأبو عبيدة: ﴿خَاوِيَةً﴾ نصب على القطع؛ مجازه: فتلك بيوتهم الخاوية، فلما قطع منها الألف واللام نصب على الحال؛ كقوله: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾. وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجحدري بالرفع على أنها خبر عن ﴿تِلْكَ﴾ و ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ بدل من ﴿تِلْكَ﴾. ويجوز أن تكون ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ عطف بيان و ﴿خَاوِيَةٌ﴾ خبر عن ﴿تِلْكَ﴾. ويجوز أن يكون رفع ﴿خَاوِيَةٌ﴾ على أنها خبر ابتداء محذوف؛ أي هي خاوية، أو بدل من ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ لأن النكرة تبدل من المعرفة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بصالح ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الله ويخافون عذابه. قيل: آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل. والباقون خرج بأبدانهم ـ في قول مقاتل وغيره ـ خُرَاجٌ مثل الحمّص؛ وكان في اليوم الأول أحمر، ثم صار من الغد أصفر، ثم صار في الثالث أسود. وكان عقر الناقة يوم الأربعاء، وهلاكهم يوم الأحد. قال مقاتل: فقعت تلك الخراجات، وصاح جبريل بهم خلال ذلك صيحة فخمدوا، وكان ذلك ضحوة. وخرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت، فلما دخلها مات صالح؛ فسميت حضرموت. قال الضحاك: ثم بنى الأربعة الآلاف مدينة يقال لها حاضورا؛ على ما تقدم بيانه في قصة أصحاب الرس.

[٥٤] ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

[٥٥] ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

[٥٦] ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

[٥٧] ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

[٥٨] ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي وأرسلنا لوطاً، أو اذكر لوطاً. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ وهم أهل سدوم. وقال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الفعله القبيحة الشنيعة. ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنها فاحشة، وذلك أعظم لذنوبكم. وقيل: يأتي بعضكم بعضاً وأنتم تنظرون إليه. وكانوا لا يستترون عتوا منهم وتمرداً. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أعاد ذكرها لفرط قبحها وشنعتها. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إما أمر التحريم أو العقوبة. واختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ فأما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بألفين على الوجوه كلها؛ لأنها همزة مبتدأة دخلت عليها ألف الاستفهام.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوْا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي عن أدبار الرجل. يقولون ذلك استهزاء منهم؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء. ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وقرأ عاصم ﴿قَدَرْنَا﴾ مخففاً والمعنى واحد. يقال قد قَدَرتُ الشيءَ قَدْرا وقَدَرا وقدّرته. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي من أُنذر فلم يقبل الإنذار. وقد مضى بيان هذا في ﴿الأعراف﴾[1] و ﴿هود﴾[2].

[٥٩] ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

[٦٠] ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

[٦١] ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

---

(١) راجع ٧/٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ٩/٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ قال الفراء قال أهل المعاني: قيل للوط ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على هلاكهم. وخالف جماعة من العلماء الفراء في هذا وقالوا: هو مخاطبة لنبينا محمد ﷺ؛ أي قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية. قال النحاس: وهذا أولى، لأن القرآن منزل على النبيّ ﷺ، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره. وقيل: المعنى؛ أي ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ يعني أمته عليه السلام. قال الكلبي: اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته. وقال ابن عباس وسفيان: هم أصحاب محمد ﷺ. وقيل: أمر رسول الله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين، وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المستمع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ اختار؛ أي لرسالته وهم الأنبياء عليهم السلام؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿آللَّهُ خَيْرٌ﴾ وأجاز أبو حاتم ﴿أَأَللَّهُ خَيْرٌ﴾ بهمزتين. النحاس: ولا نعلم أحدا تابعه على ذلك؛ لأن هذه المدّة إنما جيء بها فرقاً بين الاستفهام والخبر، وهذه ألف التوقيف، و﴿خَيْرٌ﴾ ههنا ليس بمعنى أفضل منك، وإنما هو مثل قول الشاعر(١):

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفِداء

فالمعنى فالذي فيه الشر منكما للذي فيه الخير الفداء. ولا يجوز أن يكون بمعنى من لأنك إذا قلت: فلان شر من فلان ففي كل واحد منهما شر. وقيل: المعنى؛ الخير في هذا

(١) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه.

أم في هذا الذي تشركونه في العبادة! وحكى سيبويه: السعادة أحب إليك أم الشقاء؛ وهو يعلم أن السعادة أحب إليه. وقيل: هو على بابه من التفضيل، والمعنى: آلله خير أم ما تشركون؛ أي أثوابه خير أم عقاب ما تشركون. وقيل: قال لهم ذلك؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيراً فخاطبهم الله عز وجل على ٱعتقادهم. وقيل: اللفظ لفظ الاستفهام ومعناه الخبر. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بياء على الخبر. الباقون بالتاء على الخطاب، وهو ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ فكان النبي ﷺ إذا قرأ هذه [الآية] يقول: «بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم».

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال أبو حاتم: تقديره؛ آلهتكم خير أم من خلق السموات والأرض؛ وقد تقدّم. ومعناه: قدر على خلقهن. وقيل: المعنى؛ أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السموات والأرض؟. فهو مردود على ما قبله من المعنى؛ وفيه معنى التوبيخ لهم، والتنبيه على قدرة الله عز وجل وعجز آلهتهم. ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ الحديقة البستان الذي عليه حائط. والبهجة المنظر الحسن. قال الفراء: الحديقة البستان المحظر عليه حائط، وإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة. وقال قتادة وعكرمة: الحدائق النخل ذات بهجة، والبهجة الزينة والحسن؛ يبهج به من رآه. ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ ﴿مَا﴾ للنفي ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا؛ أي ما كان للبشر، ولا يتهيأ لهم، ولا يقع تحت قدرتهم، أن ينبتوا شجرها؛ إذ هم عجزة عن مثلها، لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود.

قلت: وقد يستدل من هذا على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن؛ وهو قول مجاهد. ويعضده قوله ﷺ: «قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي فليخلقوا ذَرَّة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة» رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة؛ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «قال الله عز وجل» فذكره؛ فعم بالذم والتهديد والتقبيح كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه الله وضاهاه في التشبيه في خلقه

فيما أنفرد به سبحانه من الخلق والاختراع وهذا واضح. وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به. وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصور: إن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس له؛ خرجه مسلم أيضاً. والمنع أولى والله أعلم لما ذكرنا. وسيأتي لهذا مزيد بيان في ﴿سبأ﴾ إن شاء الله تعالى. ثم قال على جهة التوبيخ: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أي هل معبود مع الله يعينه على ذلك. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بالله غيره. وقيل: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ عن الحق والقصد؛ أي يكفرون. وقيل: ﴿إِلَهٌ﴾ مرفوع بـ ﴿مع﴾ تقديره: أمع الله ويلكم إله. والوقف على ﴿مَعَ الله﴾ حسن.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ أي مستقراً. ﴿وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً﴾ أي وسطها مثل ﴿وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً﴾ ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ يعني جبالاً ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً﴾ مانعاً من قدرته لئلا يختلط الأجاج بالعذب. وقال ابن عباس: سلطاناً من قدرته فلا هذا يغيّر ذاك ولا ذاك يغيّر هذا. والحجز المنع. ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أي إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني كأنهم يجهلون الله فلا يعلمون ما يجب له من الوحدانية.

[٦٢] ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

[٦٣] ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

[٦٤] ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ قال ابن عباس: هو ذو الضرورة المجهود. وقال السديّ: الذي لا حول له ولا قوّة. وقال ذو النون: هو الذي قطع العلائق عما دون الله. وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابوري: هو المفلس. وقال سهل بن عبد الله: هو الذي إذا رفع يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قدّمها. وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألك بالله أن تدعو لي فأنا مضطر؛ قال: إذاً فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه قال الشاعر:

وإنّي لأَدْعُو اللَّهَ والأمرُ ضَيِّقٌ ... علـيّ فمـا يَنفـكُّ أن يَتفـرّجَـا
ورُبَّ أخٍ سُـدَّتْ عليـه وُجُـوهُـهُ ... أصاب لَها لَما دعا اللَّهَ مَخْرَجَا

الثانية ـ وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي بكرة قال قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: «اللهم رحمتك أرجو فلا تَكِلْنِي إلى نفسي طَرْفة عين وأصلح لي شأني كلّه لا إله إلا أنت».

الثالثة ـ ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه؛ والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمّة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه. وفي الحديث: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده» ذكره صاحب الشهاب؛ وهو حديث صحيح. وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ لما وَجّهه إلى أرض اليمن «واتّق دعوةَ المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب»

وفي كتاب «الشهاب»: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين» وهو صحيح أيضاً. وخرج الآجرّي من حديث أبي ذرّ عن النبي ﷺ: «فإنّي لا أردها ولو كانت من فم كافر» فجيب المظلوم لموضع إخلاصه بضرورته بمقتضى كرمه، وإجابة لإخلاصه وإن كان كافراً، وكذلك إن كان فاجراً في دينه؛ ففجور الفاجر وكفر الكافر لا يعود منه نقص ولا وهن على مملكة سيده، فلا يمنعه ما قضى للمضطر من إجابته. وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر له، أو اقتصاص منه، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره كما قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾ وأكد سرعة إجابتها بقوله: «تُحمل على الغمام» ومعناه والله أعلم أن الله عز وجل يوكِّل ملائكته بتلقِّي دعوة المظلوم وبحملها على الغمام، فيعرجوا بها إلى السماء، والسماء قبلة الدعاء ليراها الملائكة كلهم، فيظهر منه معاونة المظلوم، وشفاعة منهم له في إجابة دعوته، رحمة له. وفي هذا تحذير من الظلم جملة، لما فيه من سخط الله ومعصيته ومخالفة أمره؛ حيث قال على لسان نبيه في «صحيح مسلم» وغيره: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تَظَالموا» الحديث. فالمظلوم مضطر، ويقرب منه المسافر؛ لأنه منقطع عن الأهل والوطن، منفرد عن الصديق والحميم، لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا معين لغربته، فتصدق ضرورته إلى المولى، فيخلص إليه في اللجاء، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه، وكذلك دعوة الوالد على ولده، لا تصدر منه مع ما يعلم من حنَّته عليه وشفقته، إلا عند تكامل عجزه عنه، وصدق ضرورته، وإياسه عن بِرّ ولده، مع وجود أذيته، فيسرع الحق إلى إجابته.

قوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي الضر. وقال الكلبي: الجور. ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي سكانها يهلك قوماً وينشىء آخرين. وفي كتاب «النقاش»: أي ويجعل أولادكم خلفاً منكم. وقال الكلبي: خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم، وطاعة الله بعد كفرهم. ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ على جهة التوبيخ؛ كأنه قال أمع الله ويلكم إله؛ فـ ﴿إله﴾ مرفوع بـ ﴿مع﴾.

ويجوز أن يكون مرفوعاً بإضمار أإله مع الله يفعل ذلك فتعبدوه. والوقف على ﴿مع الله﴾ حسن. ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بالياء على الخبر، كقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فأخبر فيما قبلها وبعدها؛ واختاره أبو حاتم. الباقون بالتاء خطاباً لقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ﴾ أي يرشدكم الطريق ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ إذا سافرتم إلى البلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار. وقيل: وجعل مفاوز البر التي لا أعلام لها، ولجج البحار كأنها ظلمات؛ لأنه ليس لها علم يهتدى به. ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُراً[1] بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي قدام المطر باتفاق أهل التأويل. ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك ويعين عليه. ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من دونه.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ كانوا يقرّون أنه الخالق الرازق فألزمهم الإعادة؛ أي إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة، وهو أهون عليه. ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويبدىء ويعيد: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي حجتكم أن لي شريكاً، أو حجتكم في أنه صنع أحد شيئاً من هذه الأشياء غير الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

[٦٥] ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

[٦٦] ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾. وعن بعضهم: أخفى غيبه على الخلق، ولم يَطَّلع عليه أحد لئلا يأمن أحد من عبيده مكره. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا النبيّ ﷺ عن قيام الساعة. و ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع؛ والمعنى: قل لا يعلم أحد الغيب إلا الله؛ فإنه بدل من ﴿مَنْ﴾ قاله الزجاج.

---

(١) «نشراً» بالنون على قراءة نافع. وفيه سبع قراءات؛ راجع ٧/ ٢٢٩ طبعة أولى أو ثانية.

الفراء: وإنما رفع ما بعد ﴿إلا﴾ لأن ما قبلها جحد، كقوله: ما ذهب أحد إلا أبوك؛ والمعنى واحد. قال الزجاج: ومن نصب نصب على الاستثناء؛ يعني في الكلام. قال النحاس: وسمعته يحتج بهذه الآية على من صدّق منجّماً؛ وقال: أخاف أن يكفر بهذه الآية.

قلت: وقد مضى هذا في ﴿الأنعام﴾(١) مستوفى. وقالت عائشة: من زعم أن محمداً يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية؛ والله تعالى يقول؛ ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ خرجه مسلم. وروي أنه دخل على الحجاج منجّم فاعتقله الحجاج، ثم أخذ حصيات فعدّهن، ثم قال: كم في يدي من حصاة؟ فحسب المنجّم ثم قال: كذا؛ فأصاب. ثم اعتقله فأخذ حصيات لم يعدّهن فقال: كم في يدي؟ فحسب فأخطأ ثم حسب فأخطأ؛ ثم قال: أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها؛ قال: لا. قال: فإني لا أصيب. قال: فما الفرق؟ قال: إن ذلك أحصيته فخرج عن حدّ الغيب، وهذا لم تحصه فهو غيب و ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقد مضى هذا في ﴿آل عمران﴾(٢) والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي. وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحميد ﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾ من الإدراك. وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش(٣) ﴿بَلِ ادَّرَكَ﴾ غير مهموز مشدّداً. وقرأ ابن محيصن ﴿بَلْ أَادَّرَكَ﴾ على الاستفهام. وقرأ ابن عباس ﴿بَلَى﴾ بإثبات الياء ﴿أَدَّارَكَ﴾ بهمزة قطع ودال مشدّدة وألف بعدها؛ قال النحاس: وإسناده إسناد صحيح، هو من حديث شعبة يرفعه إلى ابن عباس. وزعم هارون القارىء أن قراءة أبيّ ﴿بَلْ تَدَارَكَ عِلْمُهُمْ﴾. القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد؛ لأن أصل ﴿ادَّارَكَ﴾ تدارك؛ أدغمت الدال في التاء وجيء بألف الوصل؛ وفي معناه قولان: أحدهما أن المعنى تكامل علمهم في الآخرة؛ لأنهم رأوا كل ما وعِدوا به معاينة فتكامل علمهم

(١) راجع ٧/١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.
(٢) راجع ٤/١٧ طبعة أولى أو ثانية.
(٣) لم تذكر كتب التفسير الأخرى الأعمش في هذه القراءة. ولعل هذه رواية أخرى عنه غير الرواية المتقدمة.

به. والقول الآخر أن المعنى: بل تتابع علمهم اليوم في الآخرة؛ فقالوا تكون وقالوا لا تكون. القراءة الثانية فيها قولان: أحدهما أن معناه كمل في الآخرة؛ وهو مثل الأوّل؛ قال مجاهد: معناه يدرك علمهم في الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذِّبين. والقول الآخر أنه على معنى الإنكار؛ وهو مذهب أبي إسحاق؛ وٱستدل على صحة هذا القول بأن بعده ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي لم يدرك علمهم علم الآخرة. وقيل: بل ضل وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم. القراءة الثالثة ﴿بَلِ ٱدَّرَكَ﴾ فهي بمعنى ﴿بَلِ ٱدَّارَكَ﴾ وقد يجيء ٱفتعل وتفاعل بمعنى؛ ولذلك صُحِّح ٱزدوجوا حين كان بمعنى تزاوجوا. القراءة الرابعة ليس فيها إلا قول واحد يكون فيه معنى الإنكار؛ كما تقول: أأنا قاتلتك؟! فيكون المعنى لم يدرك؛ وعليه ترجع قراءة ٱبن عباس؛ قال ٱبن عباس: ﴿بَلَى أَدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أي لم يدرك. قال الفرّاء: وهو قول حسن كأنه وجهه إلى الاستهزاء بالمكذِّبين بالبعث، كقولك لرجل تكذّبه: بلى لعمري قد أدركتَ السَّلَف فأنت تَروي ما لا أروي! وأنت تكذِّبه. وقراءة سابعة: ﴿بَلَ ادَّرَكَ﴾ بفتح اللام؛ عدل إلى الفتحة لخفّتها. وقد حكي نحو ذلك عن قطرب في ﴿قُمَ اللَّيْلَ﴾ فإنه عدل إلى الفتح. وكذلك و «بِعَ الثوبَ» ونحوه. وذكر الزمخشري في الكتاب: وقرىء ﴿بَلْ أَأَدَّرَكَ﴾ بهمزتين ﴿بَلْ آأَدَّرَكَ﴾ بألف بينهما ﴿بَلَى أَأَدَّرَكَ﴾ ﴿أَمْ تَدَارَكَ﴾ ﴿أَم أَدَّرَكَ﴾ فهذه ثنتا عشرة قراءة، ثم أخذ يعلّل وجوه القراءات وقال: فإن قلت فما وجه قراءة ﴿بَلْ أَأَدَّرَكَ﴾ على الاستفهام؟ قلت: هو ٱستفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك من قرأ ﴿أَمْ أَدَّرَكَ﴾ و ﴿أَمْ تَدَارَكَ﴾ لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة، وأما من قرأ ﴿بَلَى أَأَدَّرَكَ﴾ على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر علمهم بكونها، وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور وقت كونها؛ لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن. ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ في شأن الآخرة ومعناها. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي في الدنيا. ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي بقلوبهم واحدهم عمو. وقيل: عَمٍّ؛ وأصله عميون حذفت الياء لالتقاء الساكنين ولم يجز تحريكها لثقل الحركة فيها.

[٦٧] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧﴾.

[٦٨] ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي مكة. ﴿إِذَا كُنَّا تُرَاباً وآبَاؤُنَا آيِنَّا[١] لَمُخْرَجُونَ﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفي سورة ﴿العنكبوت﴾. وقرأ أبو عمرو بأستفهامين إلا أنه خفّف الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة أيضاً بأستفهامين إلا أنهما حققا الهمزتين، وكل ما ذكرناه في السورتين جميعاً واحداً. وقرأ الكسائي وأبن عامر ورويس ويعقوب ﴿أئذَا﴾ بهمزتين ﴿إِنَّنَا﴾ بنونين على الخبر في هذه السورة؛ وفي سورة ﴿العنكبوت﴾ بأستفهامين؛ قال أبو جعفر النحاس: القراءة ﴿إِذَا كُنَّا تُرَاباً وآبَاؤُنَا آيِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ موافقة للخط حسنة، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال وهذا معنى كلامه: ﴿إذا﴾ ليس بأستفهام و ﴿آيِنَّا﴾ أستفهام وفيه ﴿إنّ﴾ فكيف يجوز أن يعمل ما في حيز الاستفهام فيما قبله؟! وكيف يجوز أن يعمل ما بعد ﴿إنّ﴾ فيما قبلها؟! وكيف يجوز غداً إن زيداً خارج؟! فإذا كان فيه أستفهام كان أبعد، وهذا إذا سئل عنه كان مشكلاً لما ذكره . وقال أبو جعفر ؛ وسمعت محمد بن الوليد يقول: سألنا أبا العباس عن آية من القرآن صعبة مشكلة، وهي قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فقال: إن عمل في ﴿إذا﴾ ﴿ينبئكم﴾ كان محالاً؛ لأنه لا ينبئهم ذلك الوقت، وإن عمل فيه ما بعد ﴿إنّ﴾ كان المعنى صحيحاً وكان خطأ في العربية أن يعمل ما قبل ﴿إنّ﴾ فيما بعدها؛ وهذا سؤال بيّن رأيت أن يذكر في السورة التي هو فيها؛ فأما أبو عبيد فمال إلى قراءة نافع وردّ على من جمع بين أستفهامين، وأستدل بقوله تعالى: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ وبقوله تعالى: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ وهذا الردّ على أبي عمرو وعاصم وحمزة

---

(١) قال أبن عطية: (ممدود الألف) ومثله في «البحر» و «روح المعاني».

وطلحة والأعرج لا يلزم منه شيء، ولا يشبه ما جاء به من الآية شيئاً؛ والفرق بينهما أن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد؛ ومعنى ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أفإن مت خلدوا. ونظير هذا أزيد منطلق، ولا يقال: أزيد أمنطلق؛ لأنها بمنزلة شيء واحد وليس كذلك الآية؛ لأن الثاني جملة قائمة بنفسها فيصلح فيها الاستفهام، والأوّل كلام يصلح فيه الاستفهام؛ فأما من حذف الاستفهام من الثاني وأثبته في الأول فقرأ ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا إِنَّنَا﴾ فحذفه من الثاني؛ لأن في الكلام دليلاً عليه بمعنى الإنكار.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ تقدّم في سورة ﴿المؤمنين﴾[1]. وكانت الأنبياء يقرِّبون أمر البعث مبالغة في التحذير؛ وكل ما هو آت فقريب.

[٦٩] ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

[٧٠] ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

[٧١] ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي ﴿قُلْ﴾ لهؤلاءِ الكفار ﴿سِيرُوا﴾ في بلاد الشام والحجاز واليمن. ﴿فَانْظُرُوا﴾ أي بقلوبكم وبصائركم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ المكذبين لرسلهم. ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على كفار مكة أن لم يؤمنوا ﴿ولاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ في حرج ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عِقاب مكة وقد تقدّم ذكرهم[2]. وقرىء ﴿فِي ضِيقٍ﴾ بالكسر وقد مضى في آخر ﴿النحل﴾[3]. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

---

(١) راجع ١٢/١٤٥ طبعة أولى أو ثانية.
(٢) راجع ١٠/٥٨ طبعة أولى أو ثانية.
(٣) راجع ١٠/٢٠٣ طبعة أولى أو ثانية.

[٧٢] ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

[٧٣] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

[٧٤] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

[٧٥] ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ أي ٱقترب لكم ودنا منكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي من العذاب؛ قاله ٱبن عباس. وهو من ردفه إذا تبعه وجاء في أثره؛ وتكون اللام أدخلت لأن المعنى ٱقترب لكم ودنا لكم. أو تكون متعلقة بالمصدر. وقيل: معناه معكم. وقال ٱبن شجرة: تبعكم؛ ومنه رِدْف المرأة؛ لأنه تبع لها من خلفها؛ ومنه قول أبي ذُؤَيْب:

عاد السوادُ بياضاً في مَفَارِقِهِ لا مَرحباً ببياض الشَّيْبِ إذ رَدِفَا

قال الجوهري: وأَرْدَفه أمرٌ لغةٌ في رَدِفه، مثل تَبِعه وأتبعه بمعنى؛ قال خزَيمة بن مالك بن نَهد:

إذا الجـوزاءُ أردفـتِ الثُـرَيَّـا ظَنـنـتُ بـآل فـاطمـةَ الظُّنـونَـا

يعني فاطمة بنت يَذْكُر بن عَنَزة أحدِ القارِظَيْن. وقال الفراء: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ دنا لكم ولهذا قال ﴿لكم﴾. وقيل: رَدِفه ورَدِف له بمعنى فتزاد اللام للتوكيد؛ عن الفراء أيضاً. كما تقول نقدته ونقدت له، وكِلْته ووزنته، وكِلْتُ له ووزنت له؛ ونحو ذلك. ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مِن العذابِ فكان ذلك يوم بدر. وقيل: عذاب القبر. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ في تأخير العقوبة وإدرار الرزق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله ونعمه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي تخفي صدورهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون من الأمور. وقرأ ٱبن محيصن وحميد ﴿مَا تَكُنُّ﴾ من كَننتُ الشيء إذا سترتَه هنا. وفي ﴿القصص﴾ تقديره: ما تَكُنّ صدورهم عليه؛ وكأن الضمير الذي في الصدور كالجسم الساتر. ومن قرأ ﴿تُكِنُّ﴾ فهو المعروف؛ يقال: أكننت الشيء إذا أخفيته في نفسك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قال الحسن: الغائبة هنا القيامة. وقيل: ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض؛ حكاه النقاش. وقال ٱبن شجرة: الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم، وهذا عام. وإنما دخلت الهاء في ﴿غَائِبَةٍ﴾ إشارة إلى الجمع؛ أي ما من خَصْلة غائبة عن الخلق إلا والله عالم بها قد أثبتها في أم الكتاب عنده، فكيف يخفى عليه ما يسر هؤلاء وما يعلنونه. وقيل: أي كل شيء هو مثبت في أم الكتاب يخرجه للأجل المؤجل له؛ فالذي يستعجلونه من العذاب له أجل مضروب لا يتأخر عنه ولا يتقدم عليه. والكتاب اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ليعلم بذلك من يشاء من ملائكته.

[٧٦] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

[٧٧] ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

[٧٨] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾.

[٧٩] ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

[٨٠] ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

[٨١] ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك أنهم ٱختلفوا في كثير من الأشياء حتى لعن بعضهم بعضاً فنزلت. والمعنى: إن هذا القرآن يبين لهم ما ٱختلفوا فيه لو أخذوا به، وذلك ما حرّفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام. ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خص المؤمنين لأنهم المنتفعون به. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ أي يقضي بين بني إسرائيل فيما ٱختلفوا فيه في الآخرة، فيجازي المحقّ والمبطل. وقيل: يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرّفوه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنيع الغالب الذي لا يردّ أمره ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فوّض إليه أمرك وٱعتمد عليه؛ فإنه ناصرك. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي الظاهر. وقيل: المظهر لمن تدبر وجه الصواب. ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ يعني الكفار لتركهم التدبر؛ فهم كالموتى لا حسّ لهم ولا عقل. وقيل: هذا فيمن علم أنه لا يؤمن. ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ يعني الكفار الذين هم بمنزلة الصم عن قبول المواعظ؛ فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولّوا كأنهم لا يسمعون؛ نظيره ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ كما تقدّم. وقرأ ٱبن محيصن وحميد وٱبن كثير وابن أبي إسحاق وعباس عن أبي عمرو ﴿وَلَا يَسْمَعُ﴾ بفتح الياء والميم ﴿الصُّمُّ﴾ رفعاً على الفاعل. الباقون ﴿تُسْمِعُ﴾ مضارع أسمعت ﴿الصُّمَّ﴾ نصباً.

مسألة ـ وقد ٱحتجت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أن النبي ﷺ أسمع موتى بدر بهذه الآية؛ فنظرت في الأمر بقياس عقلي ووقفت مع هذه الآية. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا أنتم بِأَسْمَعَ مِنهمْ» قال ابن عطية: فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد ﷺ في أن رد الله إليهم إدراكاً سمعوا به مقاله ولولا إخبار رسول الله ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين.

قلت: روى البخاري رضي الله عنه؛ حدّثني عبد الله بن محمد سمع رَوْح بن عُبادة قال حدّثنا سعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبيّ ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقُذِفوا في طَوِيٍّ من أطواء بدر خَبيثٍ مُخْبِث؛ وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليومَ الثالث أمر براحلته فشدَّ عليها رحلُها ثم مشى وتبعه أصحابُه، قالوا: ما نُرَى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفير الرَّكِيِّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلانُ بنَ فلان ويا فلانُ بنَ فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؛ فإنا قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقًّا فهل وجدتم ما وَعَد ربُّكم حقًّا؛ قال فقال عمر: يا رسول الله! ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح لها؛ فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم» قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونِقمةً وحسرةً وندماً. خرجه مسلم

أيضاً. قال البخاريّ: حدّثني عثمان قال حدّثنا عَبْدة عن هشام عن أبيه عن ٱبن عمر قال: وقف النبي ﷺ على قَلِيب بدر فقال: «هل وجدتم ما وَعَد ربُّكم حقًّا» ثم قال: «إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق» ثم قرأت[1]: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية. وقد عورضت هذه الآية بقصة بدر وبالسلام على القبور، وبما روي في ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور في أوقات، وبأن الميت يسمع قرع النعال إذا ٱنصرفوا عنه، إلى غير ذلك؛ فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه. وهذا واضح وقد بيناه في كتاب «التذكرة».

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أي كفرهم؛ أي ليس في وسعك خلق الإيمان في قلوبهم. وقرأ حمزة: ﴿وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ كقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾. الباقون: ﴿بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ وهي ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم وفي ﴿الروم﴾ مثله. وكلهم وقف على ﴿بِهادِي﴾ بالياء في هذه السورة وبغير ياء في ﴿الروم﴾ ٱتباعاً للمصحف إلا يعقوب فإنه وقف فيهما جميعاً بالياء. وأجاز الفراء وأبو حاتم ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيَ﴾ وهي الأصل. وفي حرف عبد الله ﴿وَمَا أَنْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾. ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي ما تسمع. ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ قال ٱبن عباس: أي إلا من خلقته للسعادة فهم مخلصون في التوحيد.

[٨٢] ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

[٨٣] ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

[٨٤] ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

[٨٥] ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

[٨٦] ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

---

(١) أي عائشة رضي الله عنها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ ٱختلف في معنى وقع القول وفي الدابة؛ فقيل: معنى ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وجب الغضب عليهم؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: أي حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون. وقال ٱبن عمر وأبو سعيد الخدريّ رضي الله عنهما: إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم. وقال عبد الله بن مسعود: وقع القول يكون بموت العلماء، وذهاب العلم، ورفع القرآن. قال عبد الله: أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يُرفَع، قالوا هذه المصاحف تُرفَع فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: يُسرَى عليه ليلاً فيصبحون منه قَفْراً، وينسَوْن لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم؛ وذلك حين يقع القول عليهم.

قلت: أسنده أبو بكر البزار قال حدّثنا عبد الله بن يوسف الثَّقَفيّ قال حدّثنا عبد المجيد بن عبد العزيز عن موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ابن لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن أبيه أنه قال: أكثروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفَع وينسى الناس مكانه؛ وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يُرفَع؛ قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذه المصاحف تُرفَع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : فيصبحون فيقولون كنا نتكلم بكلام ونقول قولاً فيرجعون إلى شعر الجاهلية وأحاديث الجاهلية ، وذلك حين يقع القول عليهم . وقيل: القول هو قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ فوقوع القول وجوب العقاب على هؤلاء ، فإذا صاروا إلى حد لا تقبل توبتهم ولا يولد لهم ولد مؤمن فحينئذٍ تقوم القيامة ؛ ذكره القشيري . وقول سادس : قالت حفصة بنت سيرين سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ فقال : أوحى الله إلى نوح ﴿ إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ وكأنما كان على وجهي غطاء فكشف . قال النحاس : وهذا من حسن الجواب ؛ لأن الناس ممتحَنون ومؤخَّرون لأن فيهم مؤمنين وصالحين ، ومن قد علم الله عز وجل أنه سيؤمن ويتوب ؛ فلهذا أمهلوا وأمرنا بأخذ الجزية ، فإذا زال هذا وجب القول عليهم ، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾.

قلت: وجميع الأقوال عند التأمل ترجع إلى معنى واحد. والدليل عليه آخر الآية ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ وقرىء ﴿أَنَّ﴾ بفتح الهمزة وسيأتي. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانُها [لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً][1] طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابةُ الأرض» وقد مضى. واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج ٱختلافاً كثيراً؛ قد ذكرناه في كتاب «التذكرة» ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفى. فأوّل الأقوال أنه فصِيل ناقة صالح وهو أصحها ـ والله أعلم ـ لما ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: «لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية ـ يعني مكة ـ ثم تكمن زماناً طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية» يعني مكة قال رسول الله ﷺ: «ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفضْ عن رأسها التراب فٱرفضّ الناس منها شتّى ومعاً وثبتت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدريّ وولّت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعوّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي فتقبل عليه فتسمه في وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ويصطلحون في الأمصار يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول يا كافر ٱقض حقي» وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصيل قوله: «وهي ترغو» والرغاء إنما هو للإبل؛ وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب فٱنفتح له حجر فدخل في جوفه ثم ٱنطبق عليه، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل. وروي أنها دابة مزغبة شعراء، ذات قوائم طولها ستون ذراعاً، ويقال إنها الجساسة؛ وهو قول عبد الله بن عمر. وروي عن ٱبن عمر أنها على خلقة الآدميين؛ وهي في السحاب وقوائمها في الأرض. وروي أنها جمعت من خلق

---

(١) الزيادة من «صحيح مسلم».

كل حيوان. وذكر الماوردي والثعلبي رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرّ، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصل ومفصل أثنا عشر ذراعاً ـ الزمخشري: بذراع آدم عليه السلام ـ ويخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان، فتنكت في وجه المسلم بعصا موسى نكتة بيضاء فيبيض وجهه، وتنكت في وجه الكافر بخاتم سليمان عليه السلام فيسود وجهه؛ قاله ابن الزبير رضي الله عنهما. وفي كتاب النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن الدابة الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي أقتلعتها العُقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة. وحكى الماورديّ عن محمد بن كعب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن الدابة فقال: أما والله ما لها ذَنبَ وإن لها للحية. قال الماوردي: وفي هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح به.

قلت: ولهذا ـ والله أعلم ـ قال بعض المتأخرين من المفسرين: إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنساناً متكلماً يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة. قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في كتاب المفهم له: وإنما كان عند هذا القائل الأقرب لقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة، ولا تكون من جملة العشر الآيات المذكورة في الحديث؛ لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير، فلا آية خاصة بها فلا ينبغي أن تذكر مع العشر، وترتفع خصوصية وجودها إذا وقع القول، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذي على أهل الأرض أن يسمّوه بأسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يسمّى بدابة؛ وهذا خروج عن عادة الفصحاء، وعن تعظيم العلماء، وليس ذلك دأب العقلاء؛ فالأولى ما قاله أهل التفسير، والله أعلم بحقائق الأمور.

قلت: قد رفع الإشكال في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه. وآختلف من أي موضع تخرج، فقال عبد الله بن عمر: تخرج من جبل الصّفا بمكة؛ يتصدع فتخرج منه. قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال: لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها

لفعلت. وروي في خبر عن النبي ﷺ: «إن الأرض تنشق عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى وأنها تخرج من الصفا فتسم بين عيني المؤمن هو مؤمن سِمةً كأنها كوكب درّي وتسم بين عيني الكافر نكتة سوداء كافر» وذكر في الخبر أنها ذات وبر وريش؛ ذكره المهدوي. وعن ابن عباس أنها تخرج من شِعْب فتمَسّ رأسها السحاب ورجلاها في الأرض لم تخرجا، وتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام. وعن حُذَيفة: تخرج ثلاث خرجات؛ خرجة في بعض البوادي ثم تكمنُ، وخرجة في القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء، وخرجة من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وأفضلها. الزمخشري: تخرج من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد؛ فقوم يَهرُبون، وقوم يقفون نظّارة. وروي عن قتادة أنها تخرج في تهامة. وروي أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنّور نوح عليه السلام. وقيل: من أرض الطائف؛ قال أبو قبيل: ضرب عبد الله بن عمرو أرض الطائف برجله وقال: من هنا تخرج الدابة التي تكلِّم الناس. وقيل: من بعض أودية تهامة؛ قاله ابن عباس. وقيل: من صخرة من شِعْب أجياد؛ قاله عبد الله بن عمرو. وقيل: من بحر سَدُوم؛ قاله وهب بن منبه. ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة الماوردي في كتابه. وذكر البغويّ أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدّثنا عليّ بن الجعد عن فُضيل بن مرزوق الرقاشي الأغر ـ وسئل عنه يحيى بن مَعين فقال ثقة ـ عن عطية العوفي عن ابن عمر قال تخرج الدابة من صدع في الكعبة كجري الفرس ثلاثة أيام لا يخرج ثلثها.

قلت: فهذه أقوال الصحابة والتابعين في خروج الدابة وصفتها، وهي ترد قول من قال من المفسرين: إن الدابة إنما هي إنسان متكلّم يناظر أهل البدع والكفر. وقد روى أبو أمامة أن النبي ﷺ قال: «تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم» ذكره الماورديّ. ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ بضم التاء وشدّ اللام المكسورة ـ من الكلام ـ قراءة العامة؛ يدل عليه قراءة أبيّ ﴿تُنَبِّئُهُمْ﴾. وقال السديّ: تكلمهم ببطلان الأديان سوى

دين الإسلام. وقيل: تكلمهم بما يسوءهم. وقيل: تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه من قرُب وبعُد ﴿إِنَّ النَّاسَ كانُوا بِآيَاتِنا لاَ يُوقِنُونَ﴾ أي بخروجي؛ لأن خروجها من الآيات. وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين. وقرأ أبو زُرْعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء ﴿تَكْلِمُهُمْ﴾ بفتح التاء من الكَلْم وهو الجرح؛ قال عكرمة: أي تَسِمُهم. وقال أبو الجوزاء. سألت ابن عباس عن هذه الآية: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أو ﴿تَكْلِمُهُمْ﴾؟ فقال: هي والله تكَلِّمهم وتَكْلِمهم؛ تُكلِّم المؤمن وتَكْلِم الكافر والفاجر أي تجرحه. وقال أبو حاتم: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ كما تقول تُجرِّحهم؛ يذهب إلى أنه تكثير من ﴿تَكْلِمُهُمْ﴾. ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ وقرأ الكوفيون وابن أبي إسحاق ويحيى ﴿أَنَّ﴾ بالفتح. وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة ﴿إِنَّ﴾ بكسر الهمزة. قال النحاس: في المفتوحة قولان وكذا المكسورة؛ قال الأخفش: المعنى بأنّ وكذا قرأ ابن مسعود ﴿بأَنَّ﴾ وقال أبو عبيدة: موضعها نصب بوقوع الفعل عليها؛ أي تخبرهم أن الناس. وقرأ الكسائيّ والفراء ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ بالكسر على الاستئناف. وقال الأخفش: هي بمعنى تقول إن الناس؛ يعني الكفار. ﴿بآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ يعني بالقرآن وبمحمد ﷺ، وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيماناً، ولا يبق إلا مؤمنون وكافرون في علم الله قبل خروجها؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً﴾ أي زمرة وجماعة. ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني بالقرآن وبأعلامنا الدالة على الحق. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُدفَعون ويساقون إلى موضع الحساب. قال الشَّمَّاخ:

وكَمْ وَزَعْنَا من خَميسٍ جَحْفلٍ وكَمْ حَبَوْنَا من رئيسٍ مِسْحَلِ

وقال قتادة: ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ أي يُرَدّ أولهم على آخرهم. ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ ﴾ أي قال الله: ﴿ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي ﴾ التي أنزلتها على رسلي، وبالآيات التي أقمتها دلالة على توحيدي. ﴿ وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً ﴾ أي ببطلانها حتى تعرضوا عنها، بل كذبتم جاهلين غير مستدلين. ﴿أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقريع وتوبيخ أي ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا

ما فيها. ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي وجب العذاب عليهم بظلمهم أي بشركهم. ﴿فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ﴾ أي ليس لهم عذر ولا حجة. وقيل: يختم على أفواههم فلا ينطقون؛ قاله أكثر المفسرين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي يستقرون فينامون. ﴿والنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ أي يبصر فيه لسعي الرزق. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله. ذكر الدلالة على إلهيته وقدرته أي ألم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا.

[٨٧] ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ (٨٧)﴾.

[٨٨] ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)﴾.

[٨٩] ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ (٨٩)﴾.

[٩٠] ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ أي وٱذكر يوم أو ذَكِّرهم يوم ينفخ في الصور. ومذهب الفرّاء أن المعنى: وذلكم يوم ينفخ في الصور؛ وأجاز فيه الحذف. والصحيح في الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل. قال مجاهد: كهيئة البوق. وقيل: هو البوق بلغة أهل اليمن. وقد مضى في ﴿الأنعام﴾[1] بيانه وما للعلماء في ذلك. ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال أبو هريرة قال النبيّ ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات خلق الصُّور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة» قلت: يا رسول الله ما الصُّور؟ قال:

(١) راجع ٧/ ٢٠ طبعة أولى أو ثانية.

«قَرْن والله عظيم والذي بعثني بالحق إن عظم دارة فِيهِ كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات النفخة الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصَّعْق والثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين» وذكر الحديث. ذكره علي بن معبد والطبري والثعلبي وغيرهم، وصححه ابن العربي. وقد ذكرته في كتاب «التذكرة» وتكلمنا عليه هنالك، وأن الصحيح في النفخ في الصور أنهما نفختان لا ثلاث، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لا زمان لهما؛ أي فزعوا فزعاً ماتوا منه؛ أو إلى نفخة البعث وهو ٱختيار القشيري وغيره؛ فإنه قال في كلامه على هذه الآية: والمراد النفخة الثانية؛ أي يحيون فزعين يقولون: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾؛ ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم؛ وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق في أرض الجزاء. وقال الماورديّ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ هو يوم النشور من القبور، قال وفي هذا الفزع قولان: أحدهما أنه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم: فزعت إليك في كذا إذا أسرعت إلى ندائك في معونتك. والقول الثاني: إن الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن؛ لأنهم أزعجوا من قبورهم وخافوا. وهذا أشبه القولين.

قلت: والسنة الثابتة من حديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عمرو يدل على أنهما نفختان لا ثلاث؛ خرجهما مسلم وقد ذكرناهما في كتاب «التذكرة» وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان؛ قال الله تعالى: ﴿ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلاّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فٱستثنى هنا كما ٱستثنى في نفخة الفزع فدل على أنهما واحدة. وقد روى ٱبن المبارك عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: « بين النفختين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كل حيّ والأخرى يحيي الله بها كل ميت » فإن قيل فإن قوله تعالى: ﴿يومَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ إلى أن قال: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ وهذا يقتضي بظاهره أنها ثلاث. قيل له: ليس كذلك، وإنما المراد بالزجرة النفخة الثانية التي يكون عنها خروج الخلق من قبورهم؛ كذلك قال ٱبن عباس ومجاهد

وعطاء وآبن زيد وغيرهم. قال مجاهد: هما صيحتان أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله، وأما الأخرى فتحيي كل شيء بإذن الله. وقال عطاء: ﴿الراجفة﴾ القيامة و ﴿الرادفة﴾ البعث وقال آبن زيد: ﴿الراجفة﴾ الموت و ﴿الرادفة﴾ الساعة. والله أعلم. ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ثم آختلف في هذا المستثنى من هم. ففي حديث أبي هريرة أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون إنما يصل الفزع إلى الأحياء؛ وهو قول سعيد بن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش. وقال القشيري: الأنبياء داخلون في جملتهم؛ لأن لهم الشهادة مع النبوّة. وقيل: الملائكة. قال الحسن: آستثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين. قال مقاتل: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت. وقيل: الحور العين. وقيل: هم المؤمنون؛ لأن الله تعالى قال عقيب هذا: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾. وقال بعض علمائنا: والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمل.

قلت: خفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليعول عليه؛ لأنه نص في التعيين وغيره آجتهاد. والله أعلم. وقيل: غير هذا على ما يأتي في ﴿ الزُّمر ﴾. وقوله: ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ماض و ﴿ يُنْفَخُ ﴾ مستقبل فيقال: كيف عطف ماض على مستقبل؟ فزعم الفراء أن هذا محمول على المعنى ؛ لأن المعنى : إذا نفخ في الصور ففزع. ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ نصب على الاستثناء . ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وآبن عامر وآبن كثير ﴿آتُوهُ﴾ جعلوه فعلاً مستقبلاً. وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة وحفص عن عاصم ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ مقصوراً على الفعل الماضي، وكذلك قرأه آبن مسعود. وعن قتادة ﴿وَكُلٌّ أَتَاهُ دَاخِرِينَ﴾. قال النحاس: وفي كتابي عن أبي إسحاق في القراءات [من قرأ][1] ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ وحّده على لفظ ﴿كُلّ﴾ ومن قرأ ﴿آتُوهُ﴾ جمع على معناها، وهذا القول غلط قبيح؛ لأنه إذا قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ فلم يوحّد وإنما جمع،

---

(١) الزيادة من «إعراب القرآن» للنحاس.

ولو وحّد لقال: ﴿أَتَاهُ﴾ ولكن من قال: ﴿أَتَوْهُ﴾ جمع على المعنى وجاء به ماضياً لأنه رده إلى ﴿فَفَزِعَ﴾ ومن قرأ ﴿وَكُلٌّ آتُوهُ﴾ حمله على المعنى أيضاً وقال ﴿آتُوهُ﴾ لأنها جملة منقطعة من الأول. قال ابن نصر: قد حكى عن أبي إسحاق رحمه الله ما لم يقله، ونص أبي إسحاق: ﴿وَكُلٌّ آتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ ويقرأ ﴿آتُوهُ﴾ فمن وحّد فللفظ ﴿كلّ﴾ ومن جمع فلمعناها. يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر ﴿كلّ﴾ فعلى اللفظ أو جمع فعلى المعنى؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى. قال المهدوي: ومن قرأ ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ فهو فعل من الإتيان وحمل على معنى ﴿كلّ﴾ دون لفظها، ومن قرأ ﴿وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخِرِينَ﴾ فهو اسم الفاعل من أتى. يدلك على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾. ومن قرأ ﴿وَكُلٌّ أَتَاهُ﴾ حمله على لفظ ﴿كلّ﴾ دون معناه وحمل ﴿داخِرين﴾ على المعنى؛ ومعناه صاغرين؛ عن ابن عباس وقتادة. وقد مضى في ﴿النحل﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ قال ابن عباس: أي قائمة وهي تسير سيراً حثيثاً. قال القتبي: وذلك أن الجبال تُجمع وتُسيَّر، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير، وكذلك كل شيء عظيم وجمع كثير يقصر عنه النظر، لكثرته وبعد ما بين أطرافه، وهو في حسبان الناظر كالواقف وهو يسير. قال النابغة في وصف جيش:

بأَرْعَنَ مثل الطَّودِ تَحسبُ أنَّهمْ وُقوفٌ لِحَاجٍ والرِّكَابُ تُهملجُ

قال القشيريّ. وهذا يوم القيامة؛ أي هي لكثرتها كأنها جامدة؛ أي واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفسها تسير سير السحاب، والسحاب المتراكم يظن أنها واقفة وهي تسير؛ أي تمر مر السحاب حتى لا يبقى منها شيء، فقال الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ ويقال: إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها؛ وإبراز ما كانت تواريه؛ فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعهن المنفوش؛ وذلك إذا صارت السماء كالمُهْل، وقد جمع الله بينهما فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالمُهْلِ

(١) راجع ١١١/١٠ طبعة أولى أو ثانية.

وتكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾. والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وذلك أن تنقطع بعد أن كانت كالعهن. والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدّمة قارّة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها لتبرز، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها. والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بعدٍ حسبها لتكاثفها أجساداً جامدة، وهي بالحقيقة مارة إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة. والحالة السادسة أن تكون سراباً فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً منها كالسراب. قال مقاتل: تقع على الأرض فتسوَّى بها. ثم قيل هذا مَثَلٌ. قال الماوردي: وفيما ضُرِب له ثلاثة أقوال: أحدها أنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال، وهي آخذة بحظها من الزوال كالسحاب؛ قاله سهل بن عبد الله. الثاني: أنه مثلٌ ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتاً في القلب وعمله صاعد إلى السماء. الثالث: أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش. ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي هذا من فعل الله، و[ما] هو فعل منه فهو متقَن. و﴿تَرَى﴾ من رؤية العين ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين. والأصل تَرْأَى فألقيت حركت الهمزة على الراء فتحرّكت الراء وحذفت الهمزة، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن، إلا أن التخفيف لازم لتَرَى. وأهل الكوفة يقرؤون ﴿تَحْسَبُهَا﴾ بفتح السين وهو القياس؛ لأنه من حَسِب يحسَب إلا أنه قد روي عن النبي ﷺ خلافها أنه قرأ بالكسر في المستقبل ، فتكون على فَعِل يفعِل مثل نَعِمَ ينعِم وبَئِس يَبئِس وحكى يَئِس يَيئِس من السالم ، لا يعرف في كلام العرب غير هذه الأحرف. ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ تقديره مرّاً مثل مرّ السحاب، فأقيمت الصفة مقام الموصوف والمضاف مقام المضاف إليه ؛ فالجبال تزال من أماكنها من على وجه الأرض ، وتُجمَع وتُسيَّر كما تُسيّر السحاب ، ثم تُكسّر فتعود إلى الأرض كما قال: ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾. ﴿ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ عند الخليل وسيبويه منصوب على أنه مصدر؛ لأنه لما قال عز وجل: ﴿ وَهِيَ تمرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ دل على أنه قد صنع ذلك صنعاً . ويجوز النصب على الإغراء ؛ أي أنظروا صنع الله. فيوقف

على هذا على ﴿السَّحَابِ﴾ ولا يوقف عليه على التقدير الأوّل. ويجوز رفعه على تقدير ذلك صنع الله. ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي أحكمه، ومنه قول النبي ﷺ: «رحم الله من عمل عملاً فأتقنه». وقال قتادة: معناه أحسن كل شيء. والإتقان الإحكام؛ يقال رجل تِقْن أي حاذق بالأشياء. وقال الزهري: أصله من ٱبن تِقْن، وهو رجل من عاد لم يكن يسقط له سهم فضرب به المثل؛ يقال: أَرْمَى من ٱبن تِقْن ثم يقال لكل حاذق بالأشياء تقن. ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب قراءة الجمهور. وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء.

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ قال ٱبن مسعود وٱبن عباس رضي الله عنهما: الحسنة لا إله إلا الله. وقال أبو معشر: كان إبراهيم يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ولا يستثني أن الحسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقال علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم: غزا رجل فكان إذا خلا بمكان قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ فبينما هو في أرض الروم في أرض جلفاء وبردى رفع صوته فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له فخرج عليه رجل على فرس عليه ثياب بيض فقال له: والذي نفسي بيده إنها الكلمة التي قال الله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾. وروى أبو ذر قال: قلت يا رسول الله أوصني. قال: «ٱتق الله وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها» قال قلت: يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «من أفضل الحسنات» وفي رواية قال: «نعم هي أحسن الحسنات» ذكره البيهقي. وقال قتادة: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ بالإخلاص والتوحيد. وقيل: أداء الفرائض كلها.

قلت: إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها ـ على ما تقدّم بيانه في سورة ﴿ إبراهيم ﴾ ـ فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض. ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ قال ٱبن عباس: أي وصل إليه الخير منها؛ وقاله مجاهد. وقيل: فله الجزاء الجميل وهو الجنة. وليس ﴿ خير ﴾ للتفضيل. قال عكرمة وٱبن جريج: أما أن يكون له خير منها يعني من الإيمان فلا؛ فإنه ليس شيء خيراً ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير. وقيل: ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ للتفضيل أي ثواب الله خير من عمل العبد وقوله وذكره، وكذلك رضوان الله خير للعبد من فعل العبد؛

قاله ابن عباس: وقيل: يرجع هذا إلى الإضعاف فإن الله تعالى يعطيه بالواحدة عشراً؛ وبالإيمان في مدّة يسيرة الثواب الأبديّ؛ قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد. ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَع يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿فَزَعِ يَوْمَئِذٍ﴾ بالإضافة. قال أبو عبيد: وهذا أعجب إليّ لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وإذا قال ﴿مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ صار كأنه فزع دون فزع دون فزع. قال القشيري: وقرىء ﴿مِنْ فَزَعٍ﴾ بالتنوين ثم قيل يعني به فزعاً واحداً كما قال: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾. وقيل عنى الكثرة لأنه مصدر والمصدر صالح للكثرة.

قلت: فعلى هذا تكون القراءتان بمعنى. قال المهدوي: ومن قرأ ﴿مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ بالتنوين انتصب ﴿يومئذ﴾ بالمصدر الذي هو ﴿فزع﴾. ويجوز أن يكون صفة لفزع ويكون متعلقاً بمحذوف؛ لأن المصادر يخبر عنها بأسماء الزمان وتوصف بها، ويجوز أن يتعلق باسم الفاعل الذي هو ﴿آمنون﴾. والإضافة على الاتساع في الظروف. ومن حذف التنوين وفتح الميم بناه لأنه ظرف زمان، وليس الإعراب في ظرف الزمان متمكناً، فلما أضيف إلى غير متمكن ولا معرب بني. وأنشد سيبويه:

على حينَ ألْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ فَنَدلاً زُرَيْقَ المالِ نَدْلَ الثَّعَالِبِ[1]

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي بالشرك؛ قاله ابن عباس والنَّخعيّ وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن، وهو إجماع من أهل التأويل في أن الحسنة لا إله إلا الله، وأن السيئة الشرك في هذه الآية. ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ قال ابن عباس: ألقيت. وقال الضحاك: طرحت؛ يقال كببت الإناء أي قلبته على وجهه، واللازم منه أكب؛ وقلما يأتي هذا في كلام العرب. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي يقال لهم هل تجزون. ثم يجوز أن يكون من قول الله، ويجوز أن يكون من قول الملائكة. ﴿إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إلا جزاء أعمالكم.

---

(١) زريق: اسم قبيلة وهو منادى. والندل هنا الأخذ باليدين. والندل أيضاً السرعة في السير. «ندل الثعالب»: يقال في المثل: (هو أكسب من ثعلب) لأنه يدخر لنفسه، ويأتي على ما يعدو عليه من الحيوان إذا أمكنه. والبيت في وصف تجار وقيل لصوص، وقبله:

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم ويرجعن من دارين بجر الحقائب

[٩١] ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ .

[٩٢] ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

[٩٣] ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِه الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ يعني مكة التي عظّم الله حرمتها، أي جعلها حرماً آمناً؛ لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر؛ على ما تقدم بيانه في غير موضع. وقرأ ابن عباس: ﴿الَّتِي حَرَّمَها﴾ نعتاً للبلدة. وقراءة الجماعة ﴿الذي﴾ وهو في موضع نصب نعت لـ ﴿رب﴾ ولو كان بالألف واللام لقلت المحرِّمَها؛ فإن كانت نعتاً للبلدة قلت المحرِّمِها هو؛ لا بد من إظهار المضمر مع الألف واللام؛ لأن الفعل جرى على غير من هو له؛ فإن قلت الذي حرمها لم تحتج أن تقول هو. ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقاً وملكاً ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِن الْمُسْلِمِينَ﴾ أي من المنقادين لأمره، الموحِّدين له. ﴿وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ﴾ أي وأمرت أن أتلو القرآن، أي أقرأه. ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ فله ثواب هدايته. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ فليس عليّ إلا البلاغ؛ نسختها آية القتال. قال النحاس. ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ﴾ نصب بأن. قال الفراء: وفي إحدى القراءتين ﴿وَأَنِ اتْلُ﴾ وزعم أنه في موضع جزم بالأمر فلذلك حذف منه الواو، قال النحاس: ولا نعرف أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفة لجميع المصاحف.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على نعمه وعلى ما هدانا. ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي في أنفسكم وفي غيركم كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾. ﴿فَتَعْرِفونَهَا﴾ أي دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السموات وفي الأرض؛ نظيره قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرض آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وفِي أَنْفسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص عن عاصم بالتاء على الخطاب؛ لقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ فيكون الكلام على نسق واحد. الباقون بالياء على أن يرد إلى ما قبله ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ فأخبر عن تلك الآية. كملت السورة والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة القصص

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء. وقال ابن عباس وقتادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة. وقال ابن سلام: بالجحفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة. وهي قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾. وقال مقاتل: فيها من المدني ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾. وهي ثمان وثمانون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿طسٓمٓ ۝١﴾.

[٢] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾.

[٣] ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾.

[٤] ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾.

[٥] ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾.

[٦] ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ تقدّم الكلام فيه. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ في موضع رفع بمعنى هذه تلك و ﴿آيَاتُ﴾ بدل منها. ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ ﴿نَتْلُو﴾ و ﴿آيَاتُ﴾ بدل منها أيضاً؛ وتنصبها كما تقول: زيداً ضربت. و ﴿الْمُبِينُ﴾

أي المبين بركته وخيره، والمبين الحقّ من الباطل، والحلال من الحرام، وقصص الأنبياء، ونبوّة محمد ﷺ. ويقال: بان الشيء وأبان [اتضح][1]. ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون، واحتج على مشركي قريش، وبين أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره، وكذلك قرابة قريش لمحمد، وبين أن فرعون علا في الأرض وتجبّر، فكان ذلك من كفره، فليجتنب العلو في الأرض، وكذلك التعزز بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون. ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ﴾ أي يقرأ عليك جبريل بأمرنا ﴿مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ أي من خبرهما و ﴿من﴾ للتبعيض و ﴿مِنْ نَبَإِ﴾ مفعول ﴿نتلو﴾ أي نَتْلو عليك بعض خبرهما؛ كقوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدّهْنِ﴾. ومعنى ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدّقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله؛ فأما من لم يؤمن فلا يعتقد أنه حق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ أي استكبر وتجبّر؛ قاله ابن عباس والسدي. وقال قتادة: علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادعى الربوبية. وقيل: بملكه وسلطانه فصار عالياً على من تحت يده. ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي أرض مصر. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾ أي فرقاً وأصنافاً في الخدمة. قال الأعشى:

وبلدة يَرْهَبُ الجوَّابُ دجلتَها حتى تراه عليها يبتغي الشِّيَعَا

﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ أي من بني إسرائيل .﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ تقدّم القول في هذا في ﴿البقرة ﴾[2] عند قوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ الآية ؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له : إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه ، أو قال المنجّمون له ذلك ، أو رأى رؤيا فعبّرت كذلك . قال

(١) في «الأصل»: «أفصح» وهو تحريف. والتصويب من كتب اللغة.
(٢) راجع ١/ ٣٨٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

الزجاج: العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع، وإن كذب فلا معنى للقتل. وقيل: جعلهم شيعاً فاستسخر كل قوم من بني إسرائيل في شغل مفرد. ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي في الأرض بالعمل والمعاصي والتجبر.

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي نتفضل عليهم وننعم. وهذه حكاية مضت. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قال ٱبن عباس: قادة في الخير. مجاهد: دعاة إلى الخير. قتادة: ولاة وملوكاً؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾.

قلت: وهذا أعمّ فإن الملِك إمام يؤتم به ويقتدى به. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لملك فرعون؛ يرثون ملكه، ويسكنون مساكن القبط. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي نجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولَى عليها؛ يعني أرض الشام ومصر. ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أي ونريد أن نري فرعون. وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف ﴿وَيَرَى﴾ بالياء على أنه فعل ثلاثي من رأى ﴿فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا﴾ رفعاً لأنه الفاعل. الباقون ﴿نُرِيَ﴾ بضم النون وكسر الراء على أنه فعل رباعي من أرى يُرِي، وهي على نسق الكلام؛ لأن قبله ﴿ونريد﴾ وبعده ﴿ونمكن﴾. ﴿فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ نصباً بوقوع الفعل. وأجاز الفراء ﴿وَيُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾ بضم الياء وكسر الراء وفتح الياء بمعنى ويري الله فرعون ﴿مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدي رجل من بني إسرائيل فكانوا على وجل ﴿مِنْهُمْ﴾ فأراهم الله ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾. قال قتادة: كان حَازياً لفرعون ـ والحازي المنجم ـ قال إنه سيولد في هذه السنة مولود يذهب بملكك؛ فأمر فرعون بقتل الولدان في تلك السنة. وقد تقدّم.

[٧] ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ .

[٨] ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾ .

[٩] ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ قد تقدّم معنى الوحي ومحامله. وٱختلف في هذا الوحي إلى أم موسى؛ فقالت فرقة: كان قولاً في منامها. وقال قتادة: كان إلهاماً. وقالت فرقة: كان بملَك يمثّل لها. قال مقاتل: أتاها جبريل بذلك، فعلى هذا هو وحي إعلام لا إلهام. وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية، وإنما إرسال الملَك إليها على نحو تكليم المَلك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور؛ خرجه البخاري ومسلم، وقد ذكرناه في سورة ﴿براءة﴾[١]. وغير ذلك مما روي من تكليم الملائكة للناس من غير نبوّة، وقد سلمت على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبياً. وٱسمها أيارخا وقيل أيارخت فيما ذكر السهيلي. وقال الثعلبي : وٱسم أم موسى لوحا[٢] بنت هاند بن لاوي بن يعقوب. ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وقرأ عمر بن عبد العزيز ﴿ أَنِ ٱرْضِعِيهِ ﴾ بكسر النون وألف وصل؛ حذف همزة أرضع تخفيفاً ثم كسر النون للالتقاء الساكنين . قال مجاهد : وكان الوحي بالرضاع قبل الولادة. وقال غيره بعدها. قال السدي: لما ولدت أمّ موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتصنع به بما في الآيـة ؛ لأن الخوف كان عقيب الولادة . وقال ٱبن جريـج : أمـرت بإرضاعه أربعة أشهر في بستان ، فإذا خافت أن يصيح ـ لأن لبنها لا يكفيه ـ صنعت به هذا. والأوّل أظهر إلا أن الآخر يعضده قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ و ﴿إِذَا﴾ لما يستقبل من الزمان؛ فيروى أنها

---

(١) راجع ٨/ ١٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.
(٢) وقيل في ٱسمها أيضاً: يوخابذ. وقيل: يوخابيل، وقيل غير ذلك.

أتخذت له تابوتاً من بَرْدى وقيّرته بالقار من داخله، ووضعت فيه موسى وألقته في نيل مصر. وقد مضى خبره في ﴿طه﴾[١]. قال ابن عباس: إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي؛ فسلط الله عليهم القبط، وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجاهم الله على يد موسى. قال وهب: بلغني أن فرعون ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد. ويقال: تسعون ألفاً. ويروى أنها حين اقتربت وضَربها الطلق، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بني إسرائيل مصافية لها؛ فقالت: لينفعني حُبُّك اليوم؛ فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه، وارتعش كل مَفْصِل منها، ودخل حبّه قلبها، ثم قالت: ما جئتكِ إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون، ولكني وجدت لابنك حبًّا ما وجدت مثله قط، فاحفظيه؛ فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة ووضعته في تنّور مسجور ناراً لم تعلم ما تصنع لما طاش عقلها، فطلبوا فلم يلفوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنّور، وقد جعل الله عليه النار برداً وسلاماً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ لا تخافي عليه الغرق؛ قاله ابن زيد. الثاني ـ لا تخافي عليه الضيعة؛ قاله يحيى بن سلاّم. ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ فيه أيضاً وجهان: أحدهما ـ لا تحزني لفراقه؛ قاله ابن زيد. الثاني ـ لا تحزني أن يقتل؛ قاله يحيى بن سلاّم. فقيل: إنها جعلته في تابوت طوله خمسة أشبار وعرضه خمسة أشبار، وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته في اليم بعد أن أرضعته أربعة أشهر. وقال آخرون: ثلاثة أشهر. وقال آخرون: ثمانية أشهر؛ في حكاية الكلبي. وحكي أنه لما فرغ النجار من صنعة التابوت نَمَّ إلى فرعون بخبره، فبعث معه من يأخذه، فطمس الله عينيه وقلبه فلم يعرف الطريق، فأيقن أنه المولود الذي يخاف منه فرعون، فآمن من ذلك الوقت؛ وهو مؤمن آل فرعون؛ ذكره الماوردي. وقال ابن عباس: فلما توارى عنها ندّمها الشيطان وقالت في نفسها: لو ذبح عندي فكفنته وواريته لكان أحب إليّ من إلقائه في البحر؛

---

(١) راجع ١١/ ١٩٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي إلى أهل مصر. حكى الأصمعيّ قال: سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول:

أستغفر الله لذنبي كلِّه قَبَّلتُ إنساناً بغير حِلِّه
مثل الغزال ناعماً في دَلِّه فانتصف الليلُ ولم أُصلِّه

فقلت: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: أوَ يعدّ هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية؛ فجمع في آية واحدة بين أمرينِ ونهيين وخبرين وبشارتين.

قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لما كان التقاطهم إياه يؤدّي إلى كونه لهم عدوّاً وحزناً؛ فاللام في ﴿ليكون﴾ لام العاقبة ولام الصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرّة عين، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوّاً وحزناً، فذكر الحال بالمآل؛ كما قال الشاعر:

وللمنايا تُربّي كلُّ مُرْضِعةٍ ودُورُنا لخراب الدهر نَبْنِيها

وقال آخر:

فللموت تَغْذُو الوالداتُ سِخَالَهَا كما لخراب الدهر تُبنَى المساكنُ

أي فعاقبة البناء الخراب وإن كان في الحال مفروحاً به. والالتقاط وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة، والعرب تقول لما وجدته من غير طلب ولا إرادة: التقطه التقاطاً. ولقيت فلاناً التقاطاً. قال الراجز[1]:

ومَنْهَلٍ وردتُه التقاطاً

ومنه اللقطة. وقد مضى بيان ذلك من الأحكام في سورة ﴿يوسف﴾[2] بما فيه كفاية. وقرأ الأعمش ويحيى والمفضّل وحمزة والكسائيّ وخلف ﴿وَحُزْناً﴾ بضم الحاء وسكون الزّاي. الباقون بفتحهما واختاره أبو عبيد. وأبو حاتم قال التفخيم[3] فيه.

(١) هو نقادة الأسدي، كما في «اللسان» مادة «لقط».
(٢) راجع ٩/ ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٣) التفخيم في اصطلاح القراء: الفتح.

وهما لغتان مثل العَدَم والعُدْم، والسَّقَم والسُّقْم، والرَّشَد والرُّشْد. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وكان وزيره من القبط. ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي عاصين مشركين آثمين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر، فأمرت بسوقه إليها وفتحه، فرأت فيه صبياً صغيراً فرحمته وأحبته؛ فقالت لفرعون: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ أي هو قرّة عين لي ولك فـ ﴿قُرَّةُ﴾ خبر ابتداء مضمر؛ قاله الكسائي. وقال النحاس: وفيه وجه آخر بعيد ذكره أبو إسحاق؛ [قال][1]: يكون رفعاً بالابتداء والخبر ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ وإنما بَعُد لأنه يصير المعنى أنه معروف بأنه قرّة عين. وجوازه أن يكون المعنى: إذا كان قرّة عين لي ولك فلا تقتلوه. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿ولك﴾. النحاس: والدليل على هذا أن في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿وَقَالَت ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾. ويجوز النصب بمعنى لا تقتلوا قرةَ عين لي ولك. وقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ ولم تقل لا تقتله فهي تخاطب فرعون كما يخاطَب الجبَّارون؛ وكما يخبرون عن أنفسهم. وقيل: قالت ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بني إسرائيل. ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ فنصيب منه خيراً ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه ـ على ما تقدّم ـ قالوا له: إن غلاماً من بني إسرائيل يفسد ملكك؛ فأخذ بني إسرائيل بذبح الأطفال، فرأى أنه يقطع نسلهم، فعاد يذبح عاماً ويستحي عاماً، فولد هارون في عام الاستحياء، وولد موسى في عام الذبح.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا ابتداء كلام من الله تعالى؛ أي وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه. وقيل: هو من كلام المرأة؛ أي وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه، ولا يشعرون إلا أنه ولدنا. واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ فقالت فرقة: كان ذلك عند التقاطه التابوت لما أشعرت فرعون به،

(١) الزيادة من «إعراب القرآن» للنحاس.

ولما أعلمته سبق إلى فهمه أنه من بني إسرائيل، وأن ذلك قصد به ليتخلص من الذبح فقال: عليّ بالذباحين؛ فقالت امرأته ما ذُكِر؛ فقال فرعون: أمّا لي فلا. قال النبي ﷺ: «لو قال فرعون نعم لآمن بموسى ولكان قرة عين له» وقال السدّي: بل ربّته حتى دَرَجَ فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بني إسرائيل وأخذه في يده، فمد موسى يده ونتف لحية فرعون، فهمّ حينئذٍ بذبحه، وحينئذٍ خاطبته بهذا، وجربته له في الياقوتة والجمرة، فاحترق لسانه وعلق العقدةَ على ما تقدّم في ﴿طه﴾[1]. قال الفرّاء: سمعت محمد بن مروان الذي يقال له السدّي يذكر عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: إنما قالت ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا﴾ ثم قالت: ﴿تَقْتُلُوهُ﴾ قال الفرّاء: وهو لحن؛ قال ابن الأنباري: وإنما حكم عليه باللحن؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون؛ لأن الفعل المستقبل مرفوع حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم، فالنون فيه علامة الرفع. قال الفرّاء: ويقويك على رده قراءة عبد الله بن مسعود ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ بتقديم ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

[١٠] ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾.

[١١] ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

(١) راجع ١١/ ١٩٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجوني وأبو عبيدة: ﴿فَارِغاً﴾ أي خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى. وقال الحسن أيضاً وابن إسحاق وابن زيد: ﴿فارغاً﴾ من الوحي إذا أوحى إليها حين أمرت أن تلقيه في البحر ﴿وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي﴾ والعهد الذي عهده إليها أن يرده ويجعله من المرسلين؛ فقال لها الشيطان: يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فغرقتيه أنت! ثم بلغها أن ولدها وقع في يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها. وقال أبو عبيدة: ﴿فَارِغاً﴾ من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق؛ وقاله الأخفش أيضاً. وقال العلاء بن زياد: ﴿فارِغاً﴾ نافراً. الكسائي: ناسياً ذاهلاً. وقيل: والهاً؛ رواه سعيد بن جبير. ابن القاسم عن مالك: هو ذهاب العقل؛ والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي جُوف لا عقول لها كما تقدم في سورة ﴿إبراهيم﴾[1]. وذلك أن القلوب مراكز العقول؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فتكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها﴾ ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿فَزِعاً﴾. النحاس: أصح هذه الأقوال الأول، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل؛ فإذا كان فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي. وقول أبي عبيدة فارغاً من الغم غلط قبيح؛ لأن بعده ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلى قَلْبِهَا﴾. روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كادت تقول وا ابناه! وقرأ فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه ومحمد بن السَّمَيْقع وأبو العالية وابن محيصن ﴿فَزِعاً﴾ بالفاء والعين المهملة من الفزع؛ أي خائفة عليه أن يقتل. ابن عباس: ﴿ قَرِعاً ﴾ بالقاف والراء والعين المهملتين، وهي راجعة إلى قراءة الجماعة ﴿ فَارِغاً ﴾ ولذلك قيل للرأس الذي لا شعر عليه: أقرع؛ لفراغه من الشعر. وحكى قطرب أن بعض أصحاب النبي ﷺ قرأ ﴿فِرْغاً﴾ بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف، وهو كقولك: هدراً وباطلاً؛ يقال:

---

(١) راجع ٩/ ٣٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

دماؤهم بينهم فِرْغ أي هدر؛ والمعنى بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدة ما ورد عليها. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وجهان: أحدهما ـ أنها ألقته ليلاً فأصبح فؤادها في النهار فارغاً. الثاني ـ أنها ألقته نهاراً ومعنى ﴿أصبح﴾ أي صار؛ كما قال الشاعر:

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد وأصبحت المدينة للوليد

﴿إِنْ كَادَتْ﴾ أي إنها كادت؛ فلما حذفت الكناية سكنت النون، فهي ﴿إن﴾ المخففة ولذلك دخلت اللام في ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي لتظهر أمره؛ من بدا يبدو إذا ظهر. قال ابن عباس: أي تصيح عند إلقائه: وا ابناه. السدّي: كادت تقول لما حُمِلت لإرضاعه وحضانته هو ابني. وقيل: إنه لما شَبَّ سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون، فشق عليها وضاق صدرها، وكادت تقول هو ابني. وقيل: الهاء في ﴿به﴾ عائدة إلى الوحي تقديره: إن كادت لتبدي بالوحي الذي أوحيناه إليها أن نرده عليها. والأول أظهر. قال ابن مسعود: كادت تقول أنا أمه. وقال الفرّاء: إن كادت لتبدي باسمه لضيق صدرها. ﴿لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ قال قتادة: بالإيمان. السدّي: بالعصمة. وقيل: بالصبر. والربط على القلب: إلهام الصبر. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من المصدّقين بوعد الله حين قال لها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾. وقال: ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾ ولم يقل: لتبديه؛ لأن حروف الصفات قد تزاد في الكلام؛ تقول: أخذت الحبل وبالحبل. وقيل: أي لتبدي القول به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي قالت أم موسى لأخت موسى: اتبعي أثره حتى تعلمي خبره. واسمها مريم بنت عمران؛ وافق اسمها اسم مريم أم عيسى عليه السلام؛ ذكره السهيلي والثعلبي. وذكر الماورديّ عن الضحّاك: أن اسمها كلثمة. وقال السهيلي: كلثوم؛ جاء ذلك في حديث رواه الزبير بن بكار أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «أشعرت أن الله زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية امرأة فرعون» فقالت: آلله أخبرك بهذا؟ فقال: «نعم» فقالت بالرفاء والبنين. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ أي بعد؛ قاله مجاهد. ومنه الأجنبي.

قال الشاعر[١]:

فَلَا تَحْرِمَنِّي نائِلاً عن جَنَابةٍ ... فإنِّي أمرؤٌ وسْطَ القِبَابِ غَرِيبُ

وأصله عن مكان جنب. وقال ابن عباس: ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ أي عن جانب. وقرأ النعمان بن سالم ﴿عن جانِبٍ﴾ أي عن ناحية. وقيل: عن شوق؛ وحكى أبو عمرو بن العلاء أنها لغة لجذام؛ يقولون: جنبت إليك أي اشتقت. وقيل: ﴿عن جنبٍ﴾ أي عن مجانبة لها منه فلم يعرفوا أنها منه بسبيل. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه بناحية [كأنها][٢] لا تريده، وكان يقرأ ﴿عَنْ جَنْبٍ﴾ بفتح الجيم وإسكان النون. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي منعناه من الارتضاع من قبل؛ أي من قبل مجيء أمه وأخته. و ﴿المراضع﴾ جمع مُرْضِع، ومن قال مراضيع. فهو جمع مِرضاع، ومفعال يكون للتكثير، ولا تدخل الهاء فيه فرقاً بين المؤنث والمذكر لأنه ليس بجارٍ على الفعل، ولكن من قال مِرضاعة جاء بالهاء للمبالغة؛ كما يقال مِطرابة. قال ابن عباس: لا يؤتى بمرضع فيقبلها. وهذا تحريم منع لا تحريم شرع؛ قال امرؤ القيس:

جَالَتْ لِتصرعَنِي فقلتُ لها اقْصِرِي ... إنّي امرؤٌ صَرْعِي عليكِ حَرَامُ[٣]

أي ممتنع. فلما رأت أخته ذلك قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ الآية. فقالوا لها عند قولها: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وما يدريكِ؟ لعلكِ تعرفين أهله؟ فقالت: لا؛ ولكنهم يحرصون على مَسرَّة الملك، ويرغبون في ظِئْره. وقال السدّي وابن جُرَيج: قيل لها لما قالت ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ قد عرفتِ أهل هذا الصبي فدلينا عليهم؛ فقالت: أردت وهم للملك ناصحون. فدلتهم على أم موسى، فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها، والصبيّ على يد فرعون يعلله شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعه إليها؛ فلما وجد الصبيّ

---

(١) هو علقمة بن عبدة، قاله يخاطب به الحرث بن جبلة يمدحه، وكان قد أسر أخاه شأساً ـ وأراد بالنائل إطلاق أخيه شأس من سجنه ـ فأطلق له أخاه شأساً ومن أسر معه من بني تميم.

(٢) الزيادة من كتب التفسير. (٣) جالت: قلقت. يقول: ذهبت الناقة بقلقها ونشاطها لتصرعني فلم تقدر على ذلك لحذقي بالركوب ومعرفتي به.

ريح أمه قبل ثديها. وقال ٱبن زيد: ٱسترابوها حين قالت ذلك فقالت وهم للملك ناصحون. وقيل: إنها لما قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ وكانوا يبالغون في طلب مرضعة يقبل ثديها فقالوا: من هي؟ فقالت: أمّي؛ فقيل: لها لبن؟ قالت: نعم! لبن هارون ـ وكان ولد في سنة لا يقتل فيها الصبيان ـ فقالوا صدقت والله. ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ أي فيهم شفقة ونصح؛ فروي أنه قيل لأم موسى حين ٱرتضع منها: كيف ٱرتضع منك ولم يرتضع من غيرك؟ فقالت: إني ٱمرأة طيبة الريح طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبيّ إلا ٱرتضع مني. قال أبو عِمران الجوني: وكان فرعون يعطي أمّ موسى كل يوم ديناراً. قال الزمخشري: فإن قلت كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها؟ قلت: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مال حربيّ تأخذه على وجه الاستباحة.

قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ﴾ أي رددناه وقد عطّف الله قلب العدوّ عليه، ووفينا لها بالوعد. ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي بولدها. ﴿وَلاَ تَحْزَنَ﴾ أي بفراق ولدها. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي لتعلم وقوعه فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني أكثر آل فرعون لا يعلمون؛ أي كانوا في غفلة عن التقدير وشر القضاء. وقيل: أي أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله في كل ما وعد حق.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ قد مضى الكلام في الأشد في ﴿الأنعام﴾[1]. وقول ربيعة ومالك أنه الحُلُم أولى ما قيل فيه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ وذلك أوّل الأشد، وأقصاه أربع وثلاثون سنة؛ وهو قول سفيان الثوري. و ﴿ٱستوى﴾ قال ٱبن عباس: بلغ أربعين سنة. والحكم: الحكمة قبل النبوّة. وقيل: الفقه في الدين. وقد مضى بيانها في ﴿البقرة﴾[2] وغيرها. والعلم الفهم قول السدّي. وقيل: النبوّة. وقال مجاهد: الفقه. محمد بن إسحاق: أي العلم بما في دينه ودين آبائه؛ وكان له تسعة من بني إسرائيل يسمعون منه، ويقتدون به، ويجتمعون إليه، وكان هذا قبل النبوّة.

---

(١) راجع ٧/ ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ٢/ ١٣١ طبعة ثانية.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزينا أم موسى لما ٱستسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدّقت بوعد الله؛ فرددنا ولدها إليها بالتحف والطرف وهي آمنة، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوّة؛ وكذلك نجزي كل محسن.

[١٥] ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق في دينه، عاب ما عليه قوم فرعون؛ وفشا ذلك منه فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً مستخفياً. وقال السدّي: كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يدعى موسى ٱبن فرعون؛ فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف ـ قال مقاتل على رأس فرسخين من مصر ـ ثم علم موسى بركوب فرعون، فركب بعده ولحق بتلك القرية في وقت

القائلة، وهو وقت الغفلة؛ قاله ٱبن عباس. وقال أيضاً: هو بين العشاء والعَتَمة. وقال ٱبن إسحاق: بل المدينة مصر نفسها، وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوماً على حين غفلة من أهلها. قال سعيد بن جبير وقتادة: وقت الظهيرة والناس نيام. وقال ٱبن زيد: كان فرعون قد نابذ موسى وأخرجه من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره، وبُعْد عهدهم به، وكان ذلك يوم عيد. وقال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه من قتل الرجل من قبل أن يؤمر بقتله، فٱستغفر ربه فغفر له. ويقال في الكلام: دخلت المدينة حين غفل أهلها، ولا يقال: على حين غفل أهلها؛ فدخلت ﴿على﴾ في هذه الآية لأن الغفلة هي المقصودة؛ فصار هذا كما تقول: جئت على غفلة، وإن شئت قلت: جئت على حين غفلة، وكذا الآية. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ والمعنى: إذا نظر إليهما الناظر قال هذا من شيعته؛ أي من بني إسرائيل. ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي من قوم فرعون. ﴿فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِۦ﴾ أي طلب نصره وغوثه، وكذا قال في الآية بعدها: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي يستغيث به على قبطيّ آخر. وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها على الأمم، وفرض في جميع الشرائع. قال قتادة: أراد القبطيّ أن يُسخِّر الإسرائيلي ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه، فٱستغاث بموسى. قال سعيد بن جبير: وكان خبازاً لفرعون. ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قال قتادة: بعصاه. وقال مجاهد: بكفّه؛ أي دفعه. والوكز واللَّكز واللَّهْز واللَّهْد بمعنى واحد، وهو الضرب بجُمْع الكفّ مجموعاً كعقد ثلاثة وسبعين. وقرأ ٱبن مسعود ﴿فَلَكَزَهُۥ﴾. وقيل: اللكز في اللحى والوكز على القلب. وحكى الثعلبي أن في مصحف عبد الله بن مسعود ﴿فنَكَزَهُۥ﴾ بالنون والمعنى واحد. وقال الجوهري عن أبي عبيدة: اللكز الضرب بالجُمْع على الصدر. وقال أبو زيد: في جميع الجسد، واللهز: الضرب بجُمْع اليد في الصدر مثل اللَّكْز؛ عن أبي عبيدة أيضاً. وقال أبو زيد: هو بالجُمْع في اللَّهازِم والرقبة؛ والرجل مِلْهَز بكسر الميم.

وقال الأصمعي : نكَزه ؛ أي ضربه ودفعه. الكسائي: نَهَزه مثل نكَزه ووكَزه، أي ضربه ودفعه. ولَهَده لَهْداً أي دفعه لذلّه فهو ملهود؛ وكذلك لَهَّدَه؛ قال طَرَفة يذمّ رجلا:

بطيء عن الدّاعي[١] سريع إلى الخنا ذَلُول بأَجْمَاعِ الرجالِ مُلَهَّدِ

أي مُدفَّع وإنما شدّد للكثرة. وقالت عائشة رضي الله عنها: فلَهَدني ـ تعني النبيّ ﷺ ـ لَهْدة أوجعني؛ خرجه مسلم. ففعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه، وهو معنى ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾. وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه قضيت عليه. قال[٢]:

قَدْ عَضَّهُ فَقَضَى عليه الأَشْجَعُ

﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي من إغوائه. قال الحسن: لم يكن يحل قتل الكافر يومئذ في تلك الحال؛ لأنها كانت حال كفّ عن القتال. ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ خبر بعد خبر. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ ندم موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه. قال قتادة: عرف والله المخرج فاستغفر؛ ثم لم يزل ﷺ يعدد ذلك على نفسه، مع علمه بأنه قد غفر له، حتى أنه في القيامة يقول: إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها. وإنما عدده على نفسه ذنباً. وقال: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ من أجل أنه لا ينبغي لنبيّ أن يقتل حتى يؤمر، وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم. قال النقاش: لم يقتله عن عمد مريدا للقتل، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه. قال وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوّة. وقال كعب: كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة، وكان قتله مع ذلك خطأ؛ فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل. وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال: يا أهل العراق! ما أسألكم عن الصغيرة، وأركَبكم للكبيرة! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول سمعت

---

(١) ويروى: «عن الجلى» والذلول ضدّ الصعب. ويروى: «ذليل». وأجماع جمع (جمع) وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها.

(٢) هو جرير. والأشجع يريد به الشجاع من الحيات. وصدر البيت:

أيفايشون وقد رأوا حفاثهم

رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من هاهنا ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾».

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي من المعرفة والحِكمة والتوحيد ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي عونا للكافرين. قال القشيري: ولم يقل بما أنعمت عليّ من المغفرة؛ لأن هذا قبل الوحي، وما كان عالماً بأن الله غفر له ذلك القتل. وقال الماوردي: ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ من المغفرة؛ وكذلك ذكر المهدوي والثعلبي. قال المهدوي: ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من المغفرة فلم تعاقبني. الوجه الثاني ـ من الهداية.

قلت: ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ يدل على المغفرة؛ والله أعلم. قال الزمخشري قوله تعالى: ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يجوز أن يكون قَسَما جوابه محذوف تقديره؛ أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبنّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾. وأن يكون ٱستعطافاً كأنه قال: رب ٱعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وٱنتظامه في جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ٱبن فرعون؛ وإما بمظاهرة من أدّت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيليّ المؤدّية إلى القتل الذي لم يحل له قتله. وقيل: أراد إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين؛ فعلى هذا كان الإسرائيليّ مؤمناً ونصرة المؤمن واجبة في جميع الشرائع. وقيل في بعض الروايات: إن ذلك الإسرائيلي كان كافراً، وإنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيلياً ولم يرد الموافقة في الدين؛ فعلى هذا ندم لأنه أعان كافراً على كافر، فقال: لا أكون بعدها ظهيراً للكافرين. وقيل: ليس هذا خبراً بل هو دعاء؛ أي فلا أكون بعد هذا ظهيراً؛ أي فلا تجعلني يا رب ظهيراً للمجرمين، وقال الفراء

المعنى؛ اللهم فلن أكون ظهيراً للمجرمين؛ وزعم أن قوله هذا هو قول ابن عباس.
قال النحاس: وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام؛ كما يقال: لا أعصيك لأنك أنعمت عليّ؛ وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفراء؛ لأن ٱبن عباس قال: لم يستثن فٱبتلي من ثاني يوم؛ والاستثناء لا يكون في الدعاء، لا يقال: اللهم ٱغفر لي إن شئت؛ وأعجب الأشياء أن الفراء روى عن ٱبن عباس هذا ثم حكى عنه قوله.

قلت: قد مضى هذا المعنى ملخصاً مبيناً في سورة ﴿النمل﴾ وأنه خبر لا دعاء.
وعن ابن عباس. لم يَسْتَثْنِ فٱبتلي به مرة أخرى؛ يعني لم يقل فلن أكون إن شاء الله.
وهذا نحو قوله: ﴿وَلَاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

الثانية ـ قال سلمة بن نُبَيط: بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعطاء أهل بخارى وقال: أعطهم؛ فقال: أعفني؛ فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه. فقيل له ما عليك أن تعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئاً؟ وقال: لا أحب أن أعين الظلمة على شيء من أمرهم. وقال عبد الله بن الوليد الوَصّافي قلت لعطاء بن أبي رَبَاح: إن لي أخا يأخذ بقلمه، وإنما يحسب ما يدخل ويخرج، وله عيال ولو ترك ذلك لاحتاج وأَدَّانَ؟ فقال: من الرأس؟ قلت: خالد بن عبد الله القَسْريّ؛ قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ٱبن عباس: فلم يستثن فٱبتلي به ثانية فأعانه الله، فلا يعينهم أخوك فإن الله يعينه ـ قال عطاء: فلا يحل لأحد أن يعين ظالماً ولا يكتب له ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين. وفي الحديث: «ينادي منادٍ يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لَاقَ لهم دَوَاة أو بَرَى لهم قلما فيُجمعون في تابوت من حديد فيُرمى به في جهنم». ويروى عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة يوم تزل فيه الأقدام ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزلّ الله قدميه على الصراط يوم تَدْحَض فيه الأقدام». وفي الحديث: «من مشى مع ظالم فقد أجرم» فالمشي مع الظالم لا يكون جرما

إلا إذا مشى معه ليعينه، لأنه اْرتكب نهي الله تعالى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدوَانِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً﴾ قد تقدّم في ﴿طه﴾[1] وغيرها أن الأنبياء صلوات الله عليهم يخافون؛ ردّا على من قال غير ذلك، وأن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه؛ فقيل: أصبح خائفاً من قتل النفس أن يؤخذ بها. وقيل: خائفاً من قومه أن يسلموه. وقيل: خائفاً من الله تعالى. ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ قال سعيد بن جبير: يتلفت من الخوف. وقيل: ينتظر الطلب، وينتظر ما يتحدّث به الناس. وقال قتادة: «يترقب» أي يترقب الطلب. وقيل: خرج يستخبر الخبر ولم يكن أحد علم بقتل القبطي غير الإسرائيلي. و ﴿أصبح﴾ يحتمل أن يكون بمعنى صار؛ أي لما قتل صار خائفاً. ويحتمل أن يكون دخل في الصباح؛ أي في صباح اليوم الذي يلي يومه. و ﴿خَائِفاً﴾ منصوب على أنه خبر أصبح، وإن شئت على الحال، ويكون الظرف في موضع الخبر. ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بَالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلّصه بالأمس يقاتل قبطياً آخر أراد أن يسخره. والاستصراخ الاستغاثة. وهو من الصراخ؛ وذلك لأن المستغيث يصرح ويصوّت في طلب الغَوْث. قال[2]:

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ ... كَانَ الصُّراخُ له قرعَ الظَّنَابِيب

قيل: كان هذا الإسرائيليّ المستنصر السامريّ اْستسخره طباخ فرعون في حمل الحطب إلى المطبخ؛ ذكره القشيري. و ﴿الذي﴾ رفع بالابتداء و﴿يستصرِخه﴾ في موضع الخبر. ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال. وأمس لليوم الذي قبل يومك، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين. ومنهم من يبنيه وفيه الألف واللام. وحكى سيبويه وغيره أن

---

(١) راجع ١١/٢٠٢ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) هو سلامة بن جندل. والظنابيب (جمع ظنبوب): وهو حرف العظم اليابس من الساق. والمراد سرعة الإجابة.

من العرب من يجري أمس مجرى ما لا ينصرف في موضع الرفع خاصة، وربما اَضطر الشاعر ففعل هذا في الخفض والنصب؛ قال الشاعر:

لقــد رأيــتُ عجبــاً مُــذْ أمْسَــا

فخفض بمذ ما مضى واللغة الجيدة الرفع؛ فأجرى أمس في الخفض مجراه في الرفع على اللغة الثانية. ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ والغويّ الخائب؛ أي لأنك تشادّ من لا تطيقه. وقيل: مضلّ بيّن الضلالة؛ قتلت بسببك أمس رجلاً، وتدعوني اليوم لآخر. والغويّ فعيل من أغوى يُغوي، وهو بمعنى مُغوٍ؛ وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجِع والمؤلم. وقيل: الغويّ بمعنى الغاوي. أي إنك لغويّ في قتال من لا تطيق دفع شره عنك. وقال الحسن: إنما قال للقبطيّ ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ في اَستسخار هذا الإسرائيليّ وهمّ أن يبطش به. يقال بَطَش يَبطُش ويبطِش والضم أقيس لأنه فعل لا يتعدى. ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي﴾ قال اَبن جبير: أراد موسى أن يبطش بالقبطيّ فتوهم الإسرائيليّ أنه يريده؛ لأنه أغلظ له في القول؛ فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ﴾ فسمع القبطيّ الكلام فأفشاه. وقيل: أراد أن يبطش الإسرائيليّ بالقبطيّ فنهاه موسى فخاف منه؛ فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ﴾. ﴿إِنْ تُرِيدُ﴾ أي ما تريد. ﴿إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ﴾ أي قتّالا؛ قال عكرمة والشعبي: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين بغير حق. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أي من الذين يصلحون بين الناس.

[٢٠] ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ٱبن عم فرعون؛ ذكره الثعلبيّ. وقيل: طالوت؛ ذكره السهيلي. وقال المهدويّ عن قتادة: ٱسمه شمعون مؤمن آل فرعون. وقيل: شمعان؛ قال الدارقطني: لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون. وروي أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخبر؛ فـ ﴿ـقَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي يتشاورون في قتلك بالقبطيّ الذي قتلته بالأمس. وقيل: يأمر بعضهم بعضاً. قال الأزهريّ: ٱئتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضاً؛ نظيره قوله: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾. وقال النمِر بن تولب:

أَرَى النـاسَ قـد أحـدثـوا شِيمـةً وفـي كـل حـادثـةٍ يُـؤْتَمَـرْ

﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ أي ينتظر الطلب. ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقيل: الجبار الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن. وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لما خرج موسى عليه السلام فارّا بنفسه منفرداً خائفاً، لا شيء معه من زاد ولا راحة ولا حذاء نحو مدين، للنسب الذي بينه وبينهم؛ لأن مدين من ولد إبراهيم، وموسى من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق، وخلوه من زاد وغيره، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وهذه حالة المضطر.

قلت: روي أنه كان يتقوّت ورق الشجر، وما وصل حتى سقط خُفّ قدميه. قال أبو مالك: وكان فرعون وجّه في طلبه وقال لهم: ٱطلبوه في ثنيات الطريق، فإن موسى لا يعرف الطريق. فجاءه مَلك راكباً فرساً ومعه عَنزة، فقال لموسى: ٱتبعني؛ فٱتبعه فهداه إلى الطريق. فيقال: إنه أعطاه العَنَزة فكانت عصاه. ويروى أن عصاه إنما أخذها لرعية الغنم من مدين. وهو أكثر وأصح. وقال مقاتل والسدي: إن الله بعث إليه جبريل؛ فالله أعلم. وبين مدين ومصر ثمانية أيام؛ قاله ٱبن جبير والناس. وكان مُلْك مدين لغير فرعون.

[٢٣] ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

[٢٤] ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٢٥] ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[٢٦] ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[٢٧] ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[٢٨] ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أي بلغها. وورده الماء معناه بلغه لا أنه دخل فيه. ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول في المورود، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل. فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه؛ ومنه قول زهير:

فَلَمَّا وَرَدْنَ المـاءَ زُرْقـاً جِمَـامُـهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ[١]

(١) تقدّم شرح هذا البيت في هامش ١١/١٣٧ طبعة أولى أو ثانية.

وقد تقدّمت هذه المعاني في قوله: ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾. ومدين لا تنصرف إذ هي بلدة معروفة.

قال الشاعر[١]:

رُهبانُ مدينَ لو رأوكِ تنزّلوا والعُصْمُ من شَعَفِ الجبالِ الفَادِرِ

وقيل: قبيلة من ولد مدين بن إبراهيم؛ وقد مضى القول فيه في ﴿الأعراف﴾[٢]. والأمة: الجمع الكثير. و ﴿يَسْقُونَ﴾ معناه ماشيتهم. و ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ معناه ناحية إلى الجهة التي جاء منها، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمّة، ووجدهما تذودان ومعناه تمنعان وتحبسان؛ ومنه قوله عليه السلام: «فَلَيُذَادَنَّ[٣] رجالٌ عن حوضي» وفي بعض المصاحف: ﴿أمرأتينِ حابستين تذودان﴾ يقال: ذاد يذود إذا [حبس][٤]. وذُدت الشيء حبسته؛ قال الشاعر[٥]:

أَبِيتُ على باب القَوَافِي كأنّما أذُودُ بها سِرْباً من الوحشِ نُزَّعَا

أي أحبس وأمنع. وقيل: ﴿تَذُودَانِ﴾ تطردان؛ قال[٦]:

لقد سَلبتْ عَصَاكَ بنو تميمٍ فما تَدْرِي بأيِّ عصاً تَذُودُ

أي تطرد وتكفّ وتمنع. أبن سلام: تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس؛ فحذف المفعول؛ إما إيهاما على المخاطب، وإما أستغناء بعلمه. قال أبن عباس: تذودان غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء. قتادة: تذودان الناس عن غنمهما؛ قال النحاس: والأوّل أولى؛ لأن بعده ﴿قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناس لم تخبرا عن سبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرعاء. فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي شأنكما؛ قال رُؤْبة:

يا عَجباً ما خَطْبُه وخَطْبِي

---

(١) هو جرير. والعصم (جمع الأعصم): وهو من الظباء الذي في ذراعه بياض، وقيل: في ذراعيه، والفادر: المسن منها. وقيل: العظيم. ويروى: «من شعف العقول» وقبله:

يا أمّ طلحة ما لقينا مثلكم في المنجدين ولا بغور الغائر

(٢) راجع ٧/٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية. (٣) فليذادن، أي ليطردن. ويروى: «فلا تذادن» أي لا تفعلوا فعلا يوجب طردكم عنه، قال ابن الأثير: والأوّل أشبه. (٤) في الأصل: «إذا ذهب» وهو تحريف. (٥) هو سويد بن كراع يذكر تنقيحه شعره. (٦) هو جرير يهجو الفرزدق.

ٱبن عطية: وكان ٱستعمال السؤال بالخَطْب إنما هو في مصاب، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شر؛ فأخبرتاه بخبرهما، وأن أباهما شيخ كبير؛ فالمعنى: لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأن عادتهما التأنّي حتى يُصدر الناسُ عن الماء ويخلى؛ وحينئذ تَرِدان. وقرأ ٱبن عامر وأبو عمرو: ﴿يَصْدُرَ﴾ من صَدَرَ، وهو ضد وَرَد أي يرجع الرِّعاء. والباقون ﴿يُصْدِرَ﴾ بضم الياء من أصدر؛ أي حتى يصدروا مواشيهم من وِرْدهم. والرِّعاء جمع راع؛ مثل تاجر وتِجار، وصاحب وصِحاب. قالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان زحْم الناس يمنعهما، فلما أراد موسى أن يسقي لهما زَحَم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى، فعن هذا الغَلَب الذي كان منه وصفته إحداهما بالقوّة. وقالت فرقة: إنهما كانتا تتبعان فُضَالتهم في الصّهاريج، فإن وجدتا في الحوض بقية كان ذلك سقيهما، وإن لم يكن فيه بقية عطشت غنمهما، فرَقَّ لهما موسى، فعمد إلى بئر كانت مغطّاة والناس يسقون من غيرها، وكان حَجَرها لا يرفعه إلا سبعة؛ قاله ٱبن زيد. ابن جريج: عشرة. ابن عباس: ثلاثون. الزجاج: أربعون؛ فرفعه. وسقى للمرأتين؛ فعن رفع الصخرة وصفته بالقوّة. وقيل: إن بئرهم كانت واحدة، وأنه رفع عنها الحجر بعد ٱنفصال السقاة، إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات. روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما ٱستقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال، فجاء موسى فاقتلعها وٱستقى ذَنُوباً واحداً لم تحتج إلى غيره فسقى لهما.

الثانية ـ إن قيل كيف ساغ لنبيّ الله الذي هو شعيب ﷺ أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قيل له: ليس ذلك بمحظور والدين لا يأباه؛ وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك، والعادة متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ إلى ظل سَمُرَة[١]؛ قاله ٱبن مسعود. وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله: ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وكان لم يذق طعاماً

---

(١) السمرة: شجرة صغيرة الورق، قصيرة الشوك، لها برمة صفراء يأكلها الناس.

سبعة أيام، وقد لصق بطنه بظهره؛ فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال؛ هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ويكون بمعنى القوّة كما قال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ويكون بمعنى العبادة كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، وٱخضر لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدميه. وفي هذا معتبر وإشعار بهوان الدنيا على الله. وقال أبو بكر بن طاهر في قوله: ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي إني لما أنزلت من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنيني بك عمن سواك.

قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَاءٍ﴾ في هذا الكلام ٱختصار يدل عليه هذا الظاهر؛ قدّره [ابن][1] إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه ـ وقيل الصغرى ـ أن تدعوه له ﴿فجاءت﴾ على ما في هذه الآية. قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سَلْفَعاً[2] من النساء، خَرّاجة وَلاّجة. وقيل: جاءته ساترة وجهها بكم دِرعها؛ قاله عمر بن الخطاب. وروي أن اسم إحداهما ليا والأخرى صفوريا ٱبنتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام. وقيل: ٱبن أخي شعيب، وأن شعيباً كان قد مات. وأكثر الناس على أنهما ٱبنتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ كذا في سورة ﴿الأعراف﴾ وفي سورة الشعراء ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ قال قتادة: بعث الله تعالى شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. وقد مضى في ﴿الأعراف﴾[3] الخلاف في ٱسم أبيه. فروي أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، فهبت ريح ضمت قميصها فوصفت عجيزتها، فتحرّج موسى من النظر

---

(١) في الأصل: أبو إسحق والتصويب عن تفسير ابن عطية والطبري.

(٢) السلفع من النساء: الجريئة على الرجال. (٣) راجع ٧/٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية.

إليها فقال: ارجعي وأرشديني إلى الطريق بصوتك. وقيل: إن موسى قال ابتداء: كوني ورائي فإني رجل عبرانيّ لا أنظر في أدبار النساء، ودليني على الطريق يميناً أو يساراً؛ فذلك سبب وصفها [له] بالأمانة؛ قاله ٱبن عباس. فوصل موسى إلى داعيه فقص عليه أمره من أوّله إلى آخره فآنسه بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون. وقرب إليه طعاماً فقال موسى: لا آكل؛ إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً؛ فقال شعيب: ليس هذا عوض السقي، ولكن عادتي وعادة آبائي قِرى الضيف، وإطعام الطعام؛ فحينئذ أكل موسى.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ﴾ دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كل ملة، وهي من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس؛ خلافاً للأصم حيث كان عن سماعها أصم.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ﴾ الآية. فيه عرض الوليّ ٱبنته على الرجل؛ وهذه سنة قائمة؛ عرض صالح مدين ٱبنته على صالح بني إسرائيل، وعرض عمر بن الخطاب ٱبنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ؛ فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح، ٱقتداء بالسلف الصالح. قال ٱبن عمر: لما تأيّمت حفصة قال عمر لعثمان: إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر؛ الحديث ٱنفرد بإخراجه البخاري.

السابعة ـ وفي هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الوليّ لا حظّ للمرأة فيه؛ لأن صالح مدين تولاه، وبه قال فقهاء الأمصار. وخالف في ذلك أبو حنيفة. وقد مضى.

الثامنة ـ هذه الآية تدل على أن للأب أن يزوّج ٱبنته البكر البالغ من غير ٱستئمار، وبه قال مالك وٱحتج بهذه الآية، وهو ظاهر قويّ في الباب، وٱحتجاجه بها يدل على أنه كان يعوّل على الإسرائيليات؛ كما تقدّم. وبقول مالك في هذه المسألة قال الشافعي وكثير من العلماء. وقال أبو حنيفة: إذا بلغت الصغيرة فلا يزوّجها أحد إلا برضاها؛ لأنها بلغت

حد التكليف؛ فأما إذا كانت صغيرة فإنّه يزوّجها بغير رضاها؛ لأنّه لا إذن لها ولا رضا؛ بغير خلاف.

التاسعة - ٱستدل أصحاب الشافعي بقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ﴾ على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح. وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود ومالك على ٱختلاف عنه. وقال علماؤنا في المشهور: ينعقد النكاح بكل لفظ. وقال أبو حنيفة: ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد؛ أما الشافعية فلا حجة لهم في الآية لأنه شرع من قبلنا وهم لا يرونه حجة في شيء في المشهور عندهم. وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن حيّ فقالوا: ينعقد النكاح بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه؛ لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية، قالوا: فكذلك النكاح. قالوا: والذي خص به النبي ﷺ تعرى البُضْع من العوض لا النكاح بلفظ الهبة، وتابعهم ابن القاسم فقال: إن وهب ٱبنته وهو يريد إنكاحها فلا أحفظ عن مالك فيه شيئاً، وهو عندي جائز كالبيع. قال أبو عمر: الصحيح أنه لا ينعقد نكاح بلفظ الهبة، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبة شيء من الأموال. وأيضاً فإن النكاح مفتقر إلى التصريح لتقع الشهادة عليه، وهو ضدّ الطلاق فكيف يقاس عليه! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله: أبحت لك وأحللت فكذلك الهبة. وقال ﷺ: «ٱستحللتم فروجهنّ بكلمة الله» يعني القرآن، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة، وإنما فيه التزويج والنكاح، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطال بعض خصوصية النبيّ ﷺ.

العاشرة - قوله تعالى: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ يدل على أنه عرض لا عقد؛ لأنه لو كان عقداً لعيَّن المعقود عليها له؛ لأن العلماء وإن كانوا قد ٱختلفوا في جواز البيع إذا قال: بعتك أحد عبديّ هذين بثمن كذا؛ فإنهم ٱتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح؛ لأنه خيار وشيء من الخيار لا يلصق بالنكاح.

الحادية عشرة - قال مكيّ في هذه الآية خصائص في النكاح؛ منها أنه لم يعين الزوجة ولا حدّ أوّل الأمد، وجعل المهر إجارة، ودخل ولم ينقد شيئاً.

قلت: فهذه أربع مسائل تضمنتها المسألة الحادية عشرة.

الأولى ـ من الأربع مسائل، قال علماؤنا: أما التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المراوضة، وإنما عرض الأمر مجملاً، وعيّن بعد ذلك. وقد قيل: إنه زوّجه صفوريا وهي الصغرى. يروى عن أبي ذرّ قال قال لي رسول الله ﷺ: «إن سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأوفاهما وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى وهي التي جاءت خلفه وهي التي قالت ﴿يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾. قيل: إن الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها؛ لأنه رآها في رسالته، وماشاها في إقباله إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمر غيره. وقيل غير هذا؛ والله أعلم. وفي بعض الأخبار أنه تزوّج بالكبرى؛ حكاه القشيري.

الثانية ـ وأما ذكر أوّل المدّة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه بل هو مسكوت عنه؛ فإمّا رسماه، وإلا فهو من أوّل وقت العقد.

الثالثة ـ وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر قد قرّره شرعنا، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن؛ رواه الأئمة؛ وفي بعض طرقه: فقال له رسول الله ﷺ: «ما تحفظ من القرآن» فقال: سورة ﴿البقرة﴾ والتي تليها؛ قال: «فعلمها عشرين آية وهي ٱمرأتك». وٱختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: فكرهه مالك، ومنعه ٱبن القاسم، وأجازه ٱبن حبيب؛ وهو قول الشافعي وأصحابه؛ قالوا: يجوز أن تكون منفعة الحرّ صداقاً كالخياطة والبناء وتعليم القرآن. وقال أبو حنيفة: لا يصحّ؛ وجوز أن يتزوّجها بأن يخدمها عبده سنة، أو يسكنها داره سنة؛ لأن العبد والدار مال، وليس خدمتها بنفسه مالا. وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز؛ لقوله تعالى: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. وقال أبو بكر الرازي: لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد، فهما متنافيان. وقال ٱبن القاسم: ينفسخ قبل البناء ويثبت بعده.

وقال أصبغ: إن نقد معه شيئاً ففيه ٱختلاف، وإن لم ينقد فهو أشد، فإن ترك مضى على كل حال بدليل قصة شعيب؛ قاله مالك وٱبن الموّاز وأشهب. وعوّل على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة؛ قال ٱبن خُوَيْزِ منداد. تضمنت هذه الآية النكاح على الإجارة والعقد صحيح، ويكره أن تجعل الإجارة مهراً، وينبغي أن يكون المهر مالاً كما قال عز وجل: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ﴾. هذا قول أصحابنا جميعاً.

الرابعة ـ وأما قوله: ودخل ولم ينقد فقد ٱختلف الناس في هذا؛ هل دخل حين عقد أم حين سافر؟ فإن كان حين عقد فماذا نقد؟ وقد منع علماؤنا من الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار؛ قاله ابن القاسم. فإن دخل قبل أن ينقد مضى، لأن المتأخرين من أصحابنا قالوا: تعجيل الصداق أو شيء منه مستحب. على أنه إن كان الصداق رعية الغنم فقد نقد الشروع في الخدمة؛ وإن كان دخل حين سافر فطول الانتظار في النكاح جائز وإن كان مدى العمر بغير شرط. [وأما إن كان[1] بشرط] فلا يجوز إلا أن يكون الغرض صحيحاً مثل التأهب للبناء وٱنتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة؛ نص عليه علماؤنا.

الثانية عشرة ـ في هذه الآية ٱجتماع إجارة ونكاح، وقد ٱختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: الأوّل ـ قال في ثمانية أبي زيد: يكره ٱبتداء فإن وقع مضى. الثاني ـ قال مالك وابن القاسم في المشهور: لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده؛ لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينة. الثالث ـ أجازه أشهب وأصبغ. قال ٱبن العربي: وهذا هو الصحيح وعليه تدل الآية؛ وقد قال مالك النكاح أشبه شيء بالبيوع، فأي فرق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح.

فرع ـ وإن أصدقها تعليم شعر مباح صحّ؛ قال المزني: وذلك مثل قول الشاعر:

يقـول العبـد فـائـدتـي ومـالـي وتقـوى الله أفضـلُ مـا ٱستفـادا

وإن أصدقها تعليم شعر فيه هجو أو فحش كان كما لو أصدقها خمراً أو خنزيراً.

---

(١) الزيادة من «أحكام القرآن لابن العربي».

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقاً وقال مالك: إنه جائز ويحمل على العرف، فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة، وهو ظاهر قصة موسى، فإنه ذكر إجارة مطلقة. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يجوز حتى يسمى لأنه مجهول. وقد ترجم البخاريّ: «باب من ٱستأجر أجيراً فبين له الأجل ولم يبين له العمل لقوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾. قال المهلب: ليس كما ترجم؛ لأن العمل عندهم كان معلوماً من سقي وحرث ورعي وما شاكل أعمال البادية في مهنة أهلها، فهذا متعارف وإن لم يبين له أشخاص الأعمال ولا مقاديرها؛ مثل أن يقول له: إنك تحرث كذا من السنة، وترعى كذا من السنة، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية، وإنما الذي لا يجوز عند الجميع أن تكون المدّة مجهولة، والعمل مجهول غير معهود لا يجوز حتى يعلم. قال ٱبن العربي: وقد ذكر أهل التفسير أنه عين له رعية الغنم، ولم يرو من طريق صحيحة، ولكن قالوا: إن صالح مدين لم يكن له عمل إلا رعية الغنم، فكان ما علم من حاله قائماً مقام التعيين للخدمة فيه.

الرابعة عشرة ـ أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعي شهوراً معلومة، بأجرة معلومة، لرعاية غنم معدودة؛ فإن كانت معدودة معينة، ففيها تفصيل لعلمائنا؛ قال ٱبن القاسم لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت، وهي رواية ضعيفة جداً؛ وقد ٱستأجر صالح مدين موسى على غنمه، وقد رآها ولم يشترط خلفاً؛ وإن كانت مطلقة غير مسماة ولا معيّنة جازت عند علمائنا. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تجوز لجهالتها؛ وعوّل علماؤنا على العرف حسبما ذكرناه آنفاً؛ وأنه يعطي بقدر ما تحتمل قوّته. وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجر قدر قوّته، وهو صحيح فإن صالح مدين علم قدر قوّة موسى برفع الحجر.

الخامسة عشرة ـ قال مالك: وليس على الراعي ضمان وهو مصدَّق فيما هلك أو سرق؛ لأنه أمين كالوكيل. وقد ترجم البخاري: «باب إذا أبصر الراعي أو الوكيل شاة تموت أو شيئاً يفسد فأصلح ما يخاف الفساد» وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت

لهم غنم ترعى بسَلْع[1]، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتاً فكسرت حجراً فذبحتها به، فقال لهم: لا تأكلوا حتى أسأل النبي ـ أو أرسل إلى النبي ﷺ من يسأله ـ وأنه سأل النبي ﷺ ـ أو أرسل إليه ـ فأمره بأكلها؛ قال عبد الله: فيعجبني أنها أمة وأنها ذبحت. قال المهلب: فيه من الفقه تصديق الراعي والوكيل فيما ٱئتمنا عليه حتى يظهر عليهما دليل الخيانة والكذب؛ وهذا قول مالك وجماعة. وقال ٱبن القاسم: إذا خاف الموت على شاة فذبحها لم يضمن ويصدق إذا جاء بها مذبوحة. وقال غيره: يضمن حتى يبين ما قال.

السادسة عشرة ـ وٱختلف ٱبن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت؛ فقال ٱبن القاسم: لا ضمان عليه؛ لأن الإنزاء من إصلاح المال ونمائه. وقال أشهب: عليه الضمان؛ وقول ٱبن القاسم أشبه بدليل حديث كعب، وأنه لا ضمان عليه فيما تلف عليه بٱجتهاده، إن كان من أهل الصلاح، وممن يعلم إشفاقه على المال؛ وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأراد صاحب المال أن يضمنه فعل؛ لأنه لا يصدق أنه رأى بالشاة موتاً لما عرف من فسقه.

السابعة عشرة ـ لم ينقل ما كانت أجرة موسى عليه السلام؛ ولكن روى يحيى بن سلّام أن صالح مدين جعل لموسى كل سخلة توضع خلاف لون أمها، فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك بينهن يلدن خلاف شبههن كلّهن. وقال غير يحيى: بل جعل له كل بلقاء تولد له، فولدن له كلهن بُلْقا. وذكر القشيري أن شعيباً لما ٱستأجر موسى قال له: ٱدخل بيت كذا وخذ عصا من العصيّ التي في البيت، فأخرج موسى عصا ، وكان أخرجها آدم من الجنة ، وتوارثها الأنبياء حتى صارت إلى شعيب ، فأمره شعيب أن يلقيها في البيت ويأخذ عصا أخرى ، فدخل وأخرج تلك العصا ؛ وكذلك سبع مرات كل ذلك لا تقع بيده غير تلك ، فعلم شعيب أن له شأناً، فلما أصبح قال له: سق الأغنام إلى مفرق الطريق، فخذ عن يمينك

(١) سلع: جبل بالمدينة.

وليس بها عشب كثير، ولا تأخذ عن يسارك فإن بها عشباً كثيراً وتِنِّيناً كبيراً لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مفرق الطريق، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها، فنام موسى وخرج التنِّين، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديداً وحاربت التنين حتى قتلته، وعادت إلى موسى عليه السلام، فلما أنتبه موسى رأى العصا مخضوبة بالدم، والتنِّين مقتولاً؛ فعاد إلى شعيب عشاء، وكان شعيب ضريراً فمس الأغنام، فإذا أثر الخِصب بادٍ عليها، فسأله عن القصة فأخبره بها، ففرح شعيب وقال: كل ما تلد هذه المواشي هذه السنة قالِب لونٍ ـ أي ذات لونين ـ فهو لك؛ فجاءت جميع السخال تلك السنة ذات لونين، فعلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة. وروى عُيَيْنة بن حِصْن أن رسول الله ﷺ قال: «أجر موسى نفسه بشبع بطنه وعفّة فرجه» فقال له شعيب لك منها ـ يعني من نتاج غنمه ـ ما جاءت به قالِب لون ليس فيها عَزُوزٌ ولا فَشُوشٌ ولا كَمُوشٌ ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ. قال الهروي: العزوز البكيئة؛ مأخوذ من العَزاز وهي الأرض الصلبة، وقد تعزَّزت الشاة. والفَشُوشُ التي يَنْفَشُّ لبنُها من غير حلب وذلك لسعة الإحليل، ومثله الفَتُوح والثَّرُورُ. ومن أمثالهم «لأَفُشَّنَّكَ فَشَّ الوَطْبِ» أي لأخرجن غضبك وكبرك من رأسك. ويقال: فَشَّ السِّقاءَ إذا أخرج منه الريح. ومنه الحديث: «إن الشيطانِ يَفُشُّ بين أَلْيَتَيْ أحدِكم حتى يُخَيَّلَ إليه أنه أحدث» أي ينفخ نفخاً ضعيفاً. والكَمُوشُ: الصغيرة الضرع، وهي الكميشة أيضاً؛ سميت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه؛ ومنه يقال: رجل كميش الإزار. والكَشُودُ مثل الكَموش. والضَّبُوبُ الضيقة ثقب الإحليل. والضَّبُّ الحَلْب لشدّة العصر. والثَّعُولُ الشاة التي لها زيادة حلمة وهي الثعل. والثَّعل زيادة السنّ، وتلك الزيادة هي [الرَّاءُول][(١)]. ورجل أثعل. والثعل [ضيق][(٢)] مخرج اللبن، قال الهروي: وتفسير قالب لون في الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها.

---

(١) الزيادة من اللسان، وفي «الأصل»: «هي الثعل» ولعله تحريف؛ إذ أن عبارة اللسان «وتلك السن الزائدة يقال لها الراءول».

(٢) زيادة يقتضيها المعنى.

الثامنة عشرة - الإجارة بالعوض المجهول لا تجوز؛ فإن ولادة الغنم غير معلومة، وإن من البلاد الخصبة ما يعلم ولاد الغنم فيها قطعاً وعِدّتها وسلامة سخالها كديار مصر وغيرها، بيد أن ذلك لا يجوز في شرعنا؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الغَرَر، ونهى عن المضامين والملاقيح. والمضامين ما في بطون الإناث، والملاقيح ما في أصلاب الفحول وعلى خلاف ذلك قال الشاعر:

مَلْقُـوحَـةً فـي بطـنِ نـابٍ حـامِـلِ

وقد مضى في سورة ﴿الحجر﴾[1] بيانه. على أن راشد بن معمر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والربع. وقال ابن سيرين وعطاء: ينسج الثوب بنصيب منه؛ وبه قال أحمد.

التاسعة عشرة - الكفاءة في النكاح معتبرة؛ وٱختلف العلماء هل في الدين والمال والحسب، أو في بعض ذلك. والصحيح جواز نكاح الموالي للعربيات والقرشيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريباً طريداً خائفاً وحيداً جائعاً عرياناً فأنكحه ٱبنته لما تحقق [من دينه][2] ورأى من حاله، وأعرض عما سوى ذلك. وقد تقدّمت هذه المسألة مستوعبةً والحمد لله.

الموفية عشرين - قال بعضهم: هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذكراً لصداق المرأة، وإنما كان ٱشتراطاً لنفسه على ما يفعله الأعراب؛ فإنها تشترط صداق بناتها، وتقول: لي كذا في خاصة نفسي، وترك المهر مفوّضاً؛ ونكاح التفويض جائز. قال ٱبن العربي: هذا الذي تفعله الأعراب هو حلوان وزيادة على المهر، وهو حرام لا يليق بالأنبياء؛ فأمّا إذا ٱشترط الوليّ شيئاً لنفسه، فقد ٱختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين: أحدهما - أنه جائز. والآخر - لا يجوز. والذي يصح عندي التقسيم؛ فإن المرأة لا تخلو أن تكون بكراً أو ثيباً؛ فإن كانت ثيباً جاز؛ لأن نكاحها

(١) راجع ١٠/١٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.
(٢) الزيادة من «أحكام القرآن» لابن العربي.

بيدها، وإنما يكون للوليّ مباشرة العقد، ولا يمتنع أخذ العوض عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع. وإن كانت بكراً كان العقد بيده، وكأنه عوض في النكاح لغير الزوج وذلك باطل؛ فإن وقع فُسِخ قبل البناء، وثبت بعده على مشهور الرواية. والحمد لله.

الحادية والعشرون ـ لما ذكر الشرط وأعقبه بالطوع في العشر خرج كل واحد منهما على حكمه، ولم يلحق الآخر بالأوّل، ولا آشترك الفرض والطوع؛ ولذلك يكتب في العقود الشروط المتفق عليها، ثم يقال وتطوع بكذا، فيجري الشرط على سبيله، والطوع على حكمه، وآنفصل الواجب من التطوع. وقيل: ومن لفظ شعيب حسن في لفظ العقود في النكاح أنكحه إياها أولى من أنكحها إياه على ما يأتي بيانه في ﴿الأحزاب﴾. وجعل شعيب الثمانية الأعوام شرطاً، ووكل العاشرة إلى المروءة.

الثانية والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ لما فرغ كلام شعيب قرّره موسى عليه السلام وكرر معناه على جهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثمان حِجج. و ﴿أيما﴾ آستفهام منصوب بـ ﴿قَضَيْتُ﴾ و ﴿الأَجَلَيْنِ﴾ مخفوض بإضافة ﴿أي﴾ إليهما و ﴿ما﴾ صلة للتأكيد وفيه معنى الشرط وجوابه ﴿فلا عُدْوَانَ﴾ وأن ﴿عدوان﴾ منصوب بـ ﴿لا﴾. وقال آبن كيسان: ﴿ما﴾ في موضع خفض بإضافة ﴿أي﴾ إليها وهي نكرة و ﴿الأجلين﴾ بدل منها. وكذلك قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي رحمة بدل من ما؛ قال مكي: وكان يتلطف في ألا يجعل شيئاً زائداً في القرآن، ويخرج له وجهاً يخرجه من الزيادة. وقرأ الحسن ﴿أَيْمَا﴾ بسكون الياء. وقرأ آبن مسعود ﴿أَيَّ الأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ﴾. وقرأ الجمهور ﴿عُدْوَان﴾ بضم العين. وأبو حَيْوة بكسرها؛ والمعنى: لا تبعة عليّ ولا طلب في الزيادة عليه والعدوان التجاوز في غير الواجب، والحجج السنون. قال الشاعر[١]:

لمن الديار بِقنة الحجر أقوين من حِجج ومن دهر

(١) هو زهير بن أبي سلمى. ويروى: ومن شهر.

الواحدة حِجة بكسر الحاء. ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قيل: هو من قول موسى. وقيل: هو من قول والد المرأة. فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحداً من الخلق، وقد ٱختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح؛ وهي:

الثالثة والعشرون ـ على قولين: أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين. وبه قال أبو حنيفة والشافعي. وقال مالك: إنه ينعقد دون شهود؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُّفُّ. وقد مضت هذه المسألة في ﴿البقرة﴾[1] مستوفاة. وفي «البخاري» عن أبي هريرة: أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار فقال ٱيتني بالشهداء أشهدهم، فقال كفى بالله شهيداً؛ فقال ٱيتني بكفيل؛ فقال كفى بالله كفيلاً. قال صدقت فدفعها إليه؛ وذكر الحديث.

[٢٩] ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ قال سعيد بن جبير: سألني رجل من النصارى أي الأجلين قضى موسى. فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ـ يعني ٱبن عباس ـ فقدمت عليه فسألته؛ فقال: قضى أكملهما وأوفاهما. فأعلمت النصراني فقال: صدق والله هذا العالم. وروي عن ٱبن عباس أن النبي ﷺ سأل في ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشر سنين. وحكى الطبريّ عن مجاهد أنه قضى عشراً وعشراً بعدها؛ قال ٱبن عطية: وهذا ضعيف.

(١) راجع ٣/٧٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قيل فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء؛ لما له عليها من فضل القوّامية وزيادة الدرجة إلا أن يلتزم لها أمراً فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما ٱستحللتم به الفروج.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾ الآية. تقدّم القول في ذلك في ﴿طه﴾. والجِذوةِ بكسر الجيم قراءة العامة، وضمها حمزة ويحيى، وفتحها عاصم والسُّلَمي وزِرّ بن حُبيش. قال الجوهري: الجِذْوة والجُذْوة والجَذْوة الجمرة الملتهبة والجمع جِذاً وجُذاً وجَذاً. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي قطعة من الجمر؛ قال: وهي بلغة جميع العرب. وقال أبو عبيدة: والجِذوة مثل الجِذمة وهي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نار أو لم يكن. قال ٱبن مقبل:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا ... جَزْلَ الْجِذَا غَيْرَ خَوّارٍ وَلاَ دَعِرِ[1]

وقال:

وَأَلْقَى عَلَى قَيْسٍ منَ النّار جِذْوَةً ... شديداً عليها حَمْيُها ولهيبُها[2]

[٣٠] ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ يعني الشجرة قدم ضميرها عليها. ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ﴾ ﴿مِن﴾ الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة. و ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ بدل من قوله: ﴿مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ﴾ بدل الاشتمال ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء ، وشاطىء الوادي وشطه جانبه، والجمع شُطَّان وشواطىء، ذكره القشيري. وقال الجوهريّ: ويقال شاطىء الأودية ولا يجمع. وشاطأت الرجل إذا مشيت على شاطىء

(١) الخوار هنا العود الذي يتقصف والدعر الذي إذا وضع على النار لم يستوقد ودخن.

(٢) ويروى:

شديداً عليها حرها والتهابها

ومشى هو على شاطىء آخر. ﴿الأَيْمَنِ﴾ أي عن يمين موسى. وقيل عن يمين الجبل. ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمبَارَكَةِ﴾ وقرأ الأشهب العقيلي ﴿فِي البَقْعَةِ﴾ بفتح الباء. وقولهم بِقاع يدل على بَقْعة؛ كما يقال جَفْنة وجِفَان. ومن قال بُقْعة قال بُقَع مثل غُرْفة وغُرَف. ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ أي من ناحية الشجرة. قيل كانت شجرة العلَّيق. وقيل سَمُرة وقيل عَوْسج. ومنها كانت عصاه؛ ذكره الزمخشري. وقيل: عُنَّاب، والعَوْسج إذا عظم يقال له الغَرْقَد. وفي الحديث: إنه من شجر اليهود فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدّجال فلا يختفي أحد منهم خلف شجرة إلا نطقت وقالت يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فأقتله إلا الغَرْقَد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق. خرجه مسلم. قال المهدوي: وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال وشِبه ذلك من صفات المخلوقين . قال أبو المعالي : وأهل المعاني وأهل الحق يقولون من كلمه الله تعالى وخصه بالرتبة العليا والغاية القصوى، فيدرك كلامه القديم المتقدس عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات ، كما أن من خصه الله بمنازل الكرامات وأكمل عليه نعمته ، ورزقه رؤيته يرى الله سبحانه منزهاً عن مماثلة الأجسام وأحكام الحوادث، ولا مثل له سبحانه في ذاته وصفاته، وأجمعت الأمة على أن الرب تعالى خصص موسى عليه السلام وغيره من المصطفين من الملائكة بكلامه . قال الأستاذ أبو إسحاق: ٱتفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق في موسى عليه السلام معنى من المعاني أدرك به كلامه كان ٱختصاصه في سماعه، وأنه قادر على مثله في جميع خلقه . وٱختلفوا في نبينا عليه السلام هل سمع ليلة الإسراء كلام الله، وهل سمع جبريل كلامه على قولين ؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود ، وٱتفقوا على أن سماع الخلق له عند قراءة القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارة التي عرفوا بها معناه دون سماعه له في عينه . وقال عبد الله بن سعد بن كلاب : إن موسى عليه السلام فهم كلام الله القديم من أصوات مخلوقة أثبتها الله تعالى في بعض الأجسام. قال أبو المعالي: وهذا مردود؛ بل يجب ٱختصاص موسى

عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقاً للعادة، ولو لم يُقَل ذلك لم يكن لموسى عليه السلام آختصاص بتكليم الله إياه. والرب تعالى أسمعه كلامه العزيز، وخلق له علماً ضرورياً، حتى علم أن ما سمعه كلام الله، وأن الذي كلمه وناداه هو الله رب العالمين. وقد ورد في الأقاصيص أن موسى عليه السلام قال: سمعت كلام ربي بجميع جوارحي، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتي. وقد مضى هذا المعنى في ﴿البقرة﴾[1] مستوفى. ﴿أَنْ يَا مُوسَى﴾ ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب بحذف حرف الجر أي بـ ﴿ـأن يا موسى﴾. ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ نفى لربوبية غيره سبحانه. وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عز وجل لا من رسله؛ لأنه لا يصير رسولاً إلا بعد أمره بالرسالة، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام.

[٣١] ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على ﴿أن يا موسى﴾ وتقدم الكلام في هذا في ﴿النمل﴾ و ﴿طه﴾. و ﴿مُدْبِراً﴾ نصب على الحال وكذلك موضع قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ نصب على الحال أيضاً. ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ﴾ قال وهب: قيل له ٱرجع إلى حيث كنت. فرجع فلفَّ دُرَّاعته[2] على يده، فقال له الملك: أرأيت إن أراد الله أن يصيبك بما تحاذر أينفعك لَفُّك يدك؟ قال: لا ولكني ضعيف خلقت من ضعف. وكشف يده فأدخلها في فم الحية فعادت عصا. ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ أي مما تحاذر.

[٣٢] ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

[٣٣] ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

---

(١) راجع ١/ ٣٠٤ طبعة ثانية أو ثالثة.

(٢) الدراعة: ضرب من الثياب التي تلبس. وقيل جبة مشقوقة المقدم.

[٣٤] ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

[٣٥] ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ الآية ؛ تقدّم القول فيه. ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ ﴿ من ﴾ متعلقة بـ ﴿ ـوَلَّى ﴾ أي ولى مدبراً من الرهب. وقرأ حفص والسُّلَميّ وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ بفتح الراء وإسكان الهاء. وقرأ ابن عامر والكوفيون إلا حفص بضم الراء وجزم الهاء. الباقون بفتح الراء والهاء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ وكلها لغات وهو بمعنى الخوف . والمعنى إذا هَالكَ أمرُ يدِك وشعاعها فأدخلها في جيبك وارددها إليه تعد كما كانت . وقيل : أمره الله أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية. عن مجاهد وغيره ورواه الضحاك عن ابن عباس؛ قال فقال ابن عباس: ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب. ويحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن كاتباً كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمه الأرض. فقال له عمر: خذ قلمك واضمم إليك جناحك، وليفرخ روعك فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي. وقيل: المعنى اضمم يدك إلى صدرك ليذهب الله ما في صدرك من الخوف. وكان موسى يرتعد خوفاً إما من آل فرعون وإما من الثعبان. وضم الجناح هو السكون؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ يريد الرفق. وكذلك قوله: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ارفق بهم. وقال الفرّاء: أراد بالجناح عصاه. وقال بعض أهل المعاني: الرهب الكُمّ بلغة حمير وبني حنيفة. قال مقاتل: سألتني أعرابية شيئاً وأنا آكل فملأت الكف وأومأت إليها

فقالت: هاهنا في رهبي. تريد في كُمّي. وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول لآخر أعطني رهبك. فسألته عن الرهب فقال: الكم؛ فعلى هذا يكون معناه أضمم إليك يدك وأخرجها من الكم: لأنه تناول العصا ويده في كمه وقوله: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ يدل على أنها اليد اليمنى؛ لأن الجيب على اليسار. ذكره القشيري.

قلت: وما فسروه من ضمّ اليد إلى الصدر يدل على أن الجيب موضعه الصدر. وقد مضى في سورة ﴿النور﴾[1] بيانه. الزمخشري: ومن بدع التفاسير أن الرهب الكم بلغة حمير وأنهم يقولون أعطني مما في رهبك، وليت شعري كيف صحته في اللغة! وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم، ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية، وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل؛ على أن موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زُرْمَانِقَة[2] من صوف لا كمين لها. قال القشيري: وقوله: ﴿وَاضْمُم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يريد اليدين إن قلنا أراد الأمن من فزع الثعبان. وقيل: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي شمر واستعد لتحمل أعباء الرسالة.

قلت: فعلى هذا قيل ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ أي من الرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾. قال ابن بحر: فصار على هذا التأويل رسولاً بهذا القول. وقيل إنما صار رسولاً بقوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ والبرهان اليد والعصا. وقرأ ابن كثير بتشديد النون وخففها الباقون. وروى أبو عمارة عن أبي الفضل عن أبي بكر عن ابن كثير، ﴿فَذَانِّيكَ﴾ بالتشديد والياء. وعن أبي عمرو أيضاً قال لغة هذيل ﴿فَذَانِيكَ﴾ بالتخفيف والياء. ولغة قريش ﴿فَذَانِكَ﴾ كما قرأ أبو عمرو وابن كثير. وفي تعليله خمسة أقوال: قيل شدّد النون عوضاً من الألف الساقطة في ذانك الذي هو تثنية ذا المرفوع، وهو رفع بالابتداء، وألف ذا محذوفة لدخول ألف التثنية عليها، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين؛ لأن أصله فذاانك فحذف الألف الأولى عوضاً من النون الشديدة. وقيل:

---

(١) راجع ١٢/٢٣١ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) الزرمانقة: جبة من صوف؛ وهي عجمية معربة.

التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك. مكي: وقيل إن من شدّد إنما بناه على لغة من قال في الواحد ذلك، فلما بنِي أثبت اللام بعد نون التثنية، ثم أدغم اللام في النون على حكم إدغام الثاني في الأوّل، والأصل أن يدغم الأوّل أبداً في الثاني، إلا أن يمنع من ذلك علة فيدغم الثاني في الأوّل، والعلة التي منعت في هذا أن يدغم الأوّل في الثاني أنه لو فعل ذلك لصار في موضع النون التي تدل على التثنية لام مشدّدة فيتغير لفظ التثنية فأدغم الثاني في الأوّل لذلك؛ فصار نوناً مشدّدة. وقد قيل: إنه لما تنافى ذلك أثبت اللام قبل النون ثم أدغم الأوّل في الثاني على أصول الإدغام فصار نوناً مشدّدة. وقيل: شدّدت فرقاً بينها وبين الظاهر التي تسقط الإضافة نونه؛ لأن ذان لا يضاف. وقيل: للفرق بين الاسم المتمكن وبينها. وكذلك العلة في تشديد النون في ﴿اللذان﴾ و ﴿هذان﴾. قال أبو عمرو: إنما اختص أبو عمرو هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية من جنسه لقلة حروفه فقرأه بالتثقيل. ومن قرأ ﴿فَذَانِيكَ﴾ بياء مع تخفيف النون فالأصل عنده ﴿فَذَانِّك﴾ بالتشديد فأبدل من النون الثانية ياء كراهية التضعيف، كما قالوا: لا أملاه في لا أَمَلُّه فأبدلوا اللام الثانية ألفاً. ومن قرأ بياء بعد النون الشديدة فوجهه أنه أشبع كسرة النون فتولدت عنها الياء.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً﴾ يعني معيناً مشتق من أردأته أي أعنته. والردء العون. قال الشاعر:

ألم تر أنّ أصْرمَ كان رِدئي ... وخيرَ الناسِ في قُلٍّ ومال

النحاس: وقد أردأه ورداه أي أعانه؛ وترك همزه تخفيفاً. وبه قرأ نافع وهو بمعنى المهموز. قال المهدوي: ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم أُردى على المائة أي زاد عليها، وكأن المعنى أرسله معي زيادة في تصديقي. قاله مسلم بن جندب. وأنشد قول الشاعر:

وأسمر خَطِّيًا كأنّ كُعوبَه ... نوى القَسْبِ قد أردَى ذراعاً على العَشْر

كذا أنشد الماوردي هذا البيت: قد أردى. وأنشده الغزنوي والجوهري في الصّحاح قد أرمى[1]؛ قال: والقسب الصلب، والقسب تمر يابس يتفتت في الفم صلب النواة. قال

(١) أرمى وأربى لغتان.

يصف رمحاً: وأسمر. البيت. قال الجوهري: ردؤ الشيء يردؤ رداءة فهو رديء أي فاسد، وأردأته أفسدته، وأردأته أيضاً بمعنى أعنته؛ تقول: أردأته بنفسي أي كنت له رِدءاً وهو العون. قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقْنِي﴾. قال النحاس: وقد حكي ردأته: رِدءاً وجمع ردءٍ أَرْدَاءٌ. وقرأ عاصم وحمزة ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بالرفع. وجزم الباقون؛ وهو ٱختيار أبي حاتم على جواب الدعاء. وٱختار الرفع أبو عبيد على الحال من الهاء في ﴿أرسِله﴾ أي أرسله ردءاً مصدّقاً حالة التصديق؛ كقوله: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ﴾ أي كائنة؛ حال صرف إلى الاستقبال. ويجوز أن يكون صفة لقوله: ﴿رِدءاً﴾. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ إذا لم يكن لي وزير ولا معين؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عني، فـ ﴿قَالَ﴾ الله جل وعز له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي نقوّيك به؛ وهذا تمثيل؛ لأن قوّة اليد بالعضد. قال طَرَفة:

بَنِي لُبَيْنَى لستُمُ بيدٍ إلاّ يداً ليست لها عَضد

ويقال في دعاء الخير: شدّ الله عضدك. وفي ضدّه: فتّ الله في عضدك. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً﴾ أي حجة وبرهاناً. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بالأذى ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي تمتنعان منهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ فيجوز أن يوقف على ﴿إِلَيْكُمَا﴾ ويكون في الكلام تقديم وتأخير. وقيل: التقدير ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ بآياتنا. قاله الأخفش والطبري. قال المهدوي: وفي هذا تقديم الصلة على الموصول، إلا أن يقدّر أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن ٱتبعكما الغالبون. وعنى بالآيات سائر معجزاته.

[٣٦] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

[٤١] ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَما جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي ظاهرات واضحات ﴿قالُوا مَا هَذَا إلاّ سِحْرٌ مُفْتَرَى﴾ مكذوب مختلق ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾. وقيل: إن هذه الآيات ما ٱحتج به موسى في إثبات التوحيد من الحجج العقلية. وقيل: هي معجزاته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ موسى﴾ قراءة العامة بالواو. وقرأ مجاهد وٱبن كثير وٱبن محيصن ﴿قال﴾ بلا واو؛ وكذلك هو في مصحف أهل مكة. ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ أي بالرشاد. ﴿مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصماً ﴿يكون﴾ بالياء والباقون بالتاء. وقد تقدّم هذا. ﴿عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي دار الجزاء. ﴿إِنَّهُ﴾ الهاء ضمير الأمر والشأن ﴿لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ قال ٱبن عباس: كان بينها وبين قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ أربعون سنة، وكذب عدوّ الله بل علم أن له ثَمّ رَبًّا هو خالقه وخالق قومه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي ٱطبخ لي الآجرّ؛ عن ٱبن عباس رضي الله عنه. وقال قتادة: هو أوّل من صنع الآجرّ وبنى به. ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال ـ قيل خمسين ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء ـ وأمر بطبخ الآجرّ والجصّ،

ونشر الخشب، وضرب المسامير، فبنوا ورفعوا البناء وشيدوه بحيث لم يبلغه بنيان منذ خلق الله السموات والأرض، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه. فحكى السدّي أن فرعون صعد السطح ورمى بنُشَّابة نحو السماء، فرجعت متلطخة بدماء، فقال قد قتلت إله موسى. فروي أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقالته، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع؛ قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف، وقطعة في البحر، وقطعة في الغرب، وهلك كل من عمل فيه شيئاً. والله أعلم بصحة ذلك. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الظن هنا شك، فكفر على الشك؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يُخِيل[1] على ذي فطرة.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي تعظم ﴿هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ أي عن الإيمان بموسي. ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بالعدوان، أي لم تكن له حجة تدفع ما جاء به موسى ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي توهموا أنه لا معاد ولا بعث. وقرأ نافع وابن محيصن وشيبة وحميد ويعقوب وحمزة والكسائي ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمى الفاعل. الباقون ﴿يُرْجَعُونَ﴾ على الفعل المجهول. وهو اختيار أبي عبيد، والأوّل اختيار أبي حاتم. ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ وكانوا ألفي ألف وستمائة ألف. ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي طرحناهم في البحر المالح. قال قتادة: بحر من وراء مصر يقال له إسَاف أغرقهم الله فيه. وقال وهب والسدّي: المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحية القُلْزُم يقال له بطن مُرَيْرة، وهو إلى اليوم غضبان. وقال مقاتل: يعني نهر النيل. وهذا ضعيف والمشهور الأوّل. ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي آخر أمرهم. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر. وقيل: جعل الله الملأ من قومه رؤساء السفلة منهم، فهم يدعون إلى جهنم. وقيل: أئمة يأتم بهم ذوو العبر ويتعظ بهم أهل البصائر. ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي إلى عمل أهل

(١) لا يخيل: أي لا يشكل.

النار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾. ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي أمرنا العباد بلعنهم فمن ذكرهم لعنهم. وقيل: أي ألزمناهم اللعن أي البعد عن الخير. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من المهلكين الممقوتين. قاله ٱبن كيسان وأبو عبيدة. وقال ٱبن عباس: المشوَّهين الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون. وقيل من المبعَدين. يقال قَبَحه الله أي نحاه من كل خير، وقَبَحه وقبَّحه إذا جعله قبيحاً. وقال أبو عمرو قَبَحت وجهه بالتخفيف معناه قَبَّحت. قال الشاعر:

ألَا قَبَحَ اللَّهُ البراجِمَ كلَّها وقَبَّح يَرْبوعاً وقبَّح دَارِمَا

وٱنتصب يوماً على الحمل على موضع ﴿فِي هذِهِ الدُّنْيَا﴾ وٱستغنى عن حرف العطف في قوله: ﴿مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ كما ٱستغنى عنه في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. ويجوز أن يكون العامل في ﴿يوم﴾ مضمراً يدل عليه قوله: ﴿هم مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ فيكون كقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾. ويجوز أن يكون العامل في ﴿يوم﴾ قوله: ﴿هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ وإن كان الظرف متقدماً. ويجوز أن يكون مفعولاً على السعة، كأنه قال: وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة.

[٤٣] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة؛ قاله قتادة. قال يحيى بن سلّام: هو أوّل كتاب ـ يعني التوراة ـ نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام. وقيل: الكتاب هنا ستّ من المثاني السبع التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ؛ قاله ٱبن عباس، ورواه مرفوعاً. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ قال أبو سعيد الخدري قال النبيّ ﷺ: «ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على موسى غير القرية التي مسخت قردة ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾».

أي من بعد قوم نوح وعاد وثمود. وقيل: أي من بعد ما أغرقنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون. ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي آتيناه الكتاب بصائر. أي ليتبصروا ﴿وَهُدًى﴾ أي من الضلالة لمن عمل بها ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن بها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ليذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا، ويثقوا بثوابهم في الآخرة.

[٤٤] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

[٤٥] ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ أي ما كنت يا محمد﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أي بجانب الجبل الغربيّ قال الشاعر:

أعطاكَ من أعطى الهُدَى النبِيَّا نُـوراً يَـزِيـنُ المِنبـرَ الغـربِيَّـا

﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾ إذ كلفناه أمرنا ونهينا، وألزمناه عهدنا. وقيل: أي إذ قضينا إلى موسى أمرك وذكرناك بخير ذكرٍ. وقال ابن عباس: ﴿إِذْ قَضَيْنَا﴾ أي أخبرنا أن أمة محمد خير الأمم. ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي من الحاضرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً﴾ أي من بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ حتى نسوا ذكر الله أي عهده وأمره. نظيره: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبينا عليه السلام ذكر في ذلك الوقت، وأن الله سيبعثه، ولكن طالت المدّة، وغلبت القسوة، فنسي القوم ذلك. وقيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهد فكفروا، فأرسلنا محمداً مجدّداً للدين وداعياً الخلق إليه. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي مقيماً كمقام موسى وشعيب بينهم. قال العَجّاج:

فبـــاتَ حيـث يـــدخـــلُ الثَّـــوِيُّ

أي الضيف المقيم. وقوله: ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي تذكرهم بالوعد والوعيد. ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي أرسلناك في أهل مكة، وآتيناك كتاباً فيه هذه الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها.

[٤٦] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي كما لم تحضر جانب المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين. وروى عمرو بن دينار يرفعه قال: «نودي يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني» فذلك قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾. وقال أبو هريرة ـ وفي رواية عن ابن عباس ـ إن الله قال: «يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ورحمتكم قبل أن تسترحموني» قال وهب: وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد وأمته قال: يا رب أرنيهم. فقال الله: «إنك لن تدركهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم» قال: بلى يا رب. فقال الله تعالى: «يا أمة محمد» فأجابوا من أصلاب آبائهم. فقال: «قد أجبتكم قبل أن تدعوني» ومعنى الآية على هذا ما كنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وأخبرناه بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا. ﴿وَلَكِنْ﴾ فعلنا ذلك ﴿رَحْمَةً﴾ منا بكم. قال الأخفش: ﴿رَحْمَةً﴾ نصب على المصدر أي ولكن رحمناك رحمة. وقال الزجاج: هو مفعول من أجله أي فعل ذلك بك لأجل الرحمة. النحاس: أي لم تشهد قصص الأنبياء، ولا تليت عليك، ولكنا بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة. وقال الكسائي: على خبر كان؛ التقدير: ولكن كان رحمة. قال: ويجوز الرفع بمعنى هي رحمة. الزجاج: الرفع بمعنى ولكن فِعل ذلك رحمة. ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني العرب؛ أي لم تشاهد تلك الأخبار، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

[٤٧] ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

[٤٨] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ﴾ يريد قريشاً. وقيل: اليهود. ﴿مُصِيبَةٌ﴾ أي عقوبة ونقمة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي. وخص الأيدي بالذكر؛ لأن الغالب من الكسب إنما يقع بها. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف أي لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدّمة ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا﴾ أي هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ لما بعثنا الرسل. وقيل: لعاجلناهم بالعقوبة. وبعث الرسل إزاحة لعذر الكفار كما تقدّم في ﴿سبحان﴾ وآخر ﴿طه﴾. ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ نصب على جواب التحضيض. ﴿وَنَكُونَ﴾ عطف عليه. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدّقين. وقد أحتج بهذه الآية من قال: إن العقل يوجب الإيمان والشكر؛ لأنه قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وذلك موجب للعقاب إذ تقرّر الوجوب قبل بعثة الرسل، وإنما يكون ذلك بالعقل. قال القشيري: والصحيح أن المحذوف لولا كذا لما أحتيج إلى تجديد الرسل. أي هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد، ولكن تطاول العهد، فلو عذبناهم فقد يقول قائل منهم طال العهد بالرسل، ويظن أن ذلك عذر ولا عذر لهم بعد أن بلغهم خبر الرسل، ولكن أكملنا إزاحة العذر، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم. وقد حكم الله بأنه لا يعاقب عبداً إلا بعد إكمال البيان والحجة وبعثه الرسل.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿قَالُوا﴾ يعني كفار مكة ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من العصا واليد البيضاء،

وأنزل عليه القرآن جملة واحدة كالتوراة، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد؛ فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ[1] تَظَاهَرَا﴾ أي موسى ومحمد تعاونا على السحر. قال الكلبي: بعثت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمد وشأنه فقالوا: إنا نجده في التوراة بنعته وصفته. فلما رجع الجواب إليهم ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ وقال قوم: إن اليهود علّموا المشركين، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتي موسى، فإنه أوتي التوراة دفعة واحدة. فهذا الاحتجاج وارد على اليهود، أي أو لم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتي موسى حين قالوا في موسى وهارون هما ساحران و ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ أي وإنا كافرون بكل واحد منهما وقرأ الكوفيون﴿ سِحْرَانِ﴾ بغير ألف؛ أي الإنجيل والقرآن. وقيل: التوراة والفرقان؛ قاله الفرّاء. وقيل: التوراة والإنجيل. قاله أبو رزين. الباقون ﴿سَاحِرَانِ﴾ بألف. وفيه ثلاثة أقاويل: **أحدها** ـ موسى ومحمد عليهما السلام. وهذا قول مشركي العرب. وبه قال آبن عباس والحسن. **الثاني** ـ موسى وهارون. وهذا قول اليهود لهما في آبتداء الرسالة. وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وآبن زيد. فيكون الكلام آحتجاجاً عليهم. وهذا يدل على أن المحذوف في قوله: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ لما جدّدنا بعثة الرسل؛ لأن اليهود آعترفوا بالنبوّات ولكنهم حرفوا وغيروا وآستحقوا العقاب، فقال: قد أكملنا إزاحة عذرهم ببعثة محمد ﷺ. **الثالث** ـ عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وهذا قول اليهود اليوم. وبه قال قتادة. وقيل: أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح، وذكر الإنجيل والقرآن، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين.

[٤٩] ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

[٥٠] ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

[٥١] ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

---

(١) قراءة نافع: «ساحران تظاهرا» وعليها المصنف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِن عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ أي قل يا محمد إذ كفرتم معاشر المشركين بهذين الكتابين ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ ليكون ذلك عذراً لكم في الكفر ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنهما سحران. أو فأتوا بكتاب هو أهدى من كتابي موسى ومحمد عليهما السلام. وهذا يقوي قراءة الكوفيين ﴿سِحْرَانِ﴾. ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ قال الفرّاء: بالرفع؛ لأنه صفة للكتاب وكتاب نكرة. قال: وإذا جزمت ـ وهو الوجه ـ فعلى الشرط.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان، وأنه لا حجة لهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد أضل منه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي أتبعنا بعضه بعضاً، وبعثنا رسولاً بعد رسول. وقرأ الحسن ﴿وَصَلْنَا﴾ مخففاً. وقال أبو عبيدة والأخفش: معنى ﴿وَصَّلْنَا﴾ أتممنا كصلتك الشيء. وقال ابن عيينة والسدّي: بيّنا. وقاله ابن عباس. وقال مجاهد: فصلنا. وكذلك كان يقرؤها. وقال ابن زيد: وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا. وقال أهل المعاني: والينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضه بعضاً: وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ونصائح ومواعظ إرادة أن يتذكروا فيفلحوا. وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض. قال الشاعر.

فقل لبني مروان ما بال ذِمَّةٍ ... وحبلٍ ضعيفٍ ما يزال يُوَصَّلُ[١]

وقال امرؤ القيس:

دَرِيرٍ كَخُذروفِ الوليدِ أَمَرَّهُ ... تَقَلُّبُ كفَّيه بخيطٍ مُوَصَّلِ[٢]

---

(١) رواية «البحر و روح المعاني»: ما بال ذمتي، بحبل. . . . الخ.

(٢) درير: مستدر في العدو؛ يصف سرعة جري فرسه. والخذروف شيء يدوّره الصبي في يده ويسمع له صوت ويسمى الخرارة. وأمره أحكم فتله.

والضمير في ﴿لهم﴾ لقريش؛ عن مجاهد. وقيل: هو لليهود. وقيل: هو لهم جميعاً. والآية رد على من قال هلا أوتي محمد القرآن جملة واحدة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: يتذكرون محمداً فيؤمنوا به. وقيل: يتذكرون فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم؛ قاله علي بن عيسى. وقيل لعلهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام. حكاه النقاش.

[٥٢] ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

[٥٣] ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ أخبر أن قوماً ممن أوتوا الكتاب من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن؛ كعبد الله بن سَلاَم وسلمان. ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى، وهم أربعون رجلاً، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة، آثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى: منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع. كذا سماهم الماوردي. وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ قاله قتادة. وعنه أيضاً: أنها نزلت في عبد الله بن سَلاَم وتميم الداريّ والجارود العبديّ وسلمان الفارسيّ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية. وعن رفاعة القرظي: نزلت في عشرة أنا أحدهم. وقال عروة بن الزبير: نزلت في النجاشي وأصحابه ووجه بآثني عشر رجلاً فجلسوا مع النبيّ ﷺ، وكان أبو جهل وأصحابه قريباً منهم، فآمنوا بالنبيّ ﷺ. فلما قاموا من عنده تبعهم أبو جهل ومن معه، فقال لهم: خيبكم الله من ركب، وقبحكم من وفد، لم تلبثوا أن صدقتموه، وما رأينا ركباً أحمق منكم ولا أجهل؛ فقالوا: ﴿سلام عليكم﴾ لم نأل أنفسنا رشداً ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ وقد تقدّم هذا في ﴿المائدة﴾[1]

(١) راجع ٦/ ٢٥٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

عند قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ مستوفى. وقال أبو العالية: هؤلاء قوم آمنوا بمحمد ﷺ قبل أن يبعث وقد أدركه بعضهم. ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن. وقيل: من قبل محمد عليه السلام ﴿هُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن أو بمحمد عليه السلام ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ أي إذا قرىء عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل نزوله، أو من قبل بعثة محمد عليه السلام ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أي موحدين، أو مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن.

[٥٤] ﴿أُولَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

[٥٥] ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبيّ ﷺ فآمن به واتبعه وصدّقه فله أجران وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدّبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوّجها فله أجران» قال الشعبي للخراساني: خذ هذا الحديث بغير شيء، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة. وخرجه البخاري أيضاً. قال علماؤنا: لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطباً بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين؛ فالكتابي كان مخاطباً من جهة نبيه، ثم أنه خوطب من جهة نبينا فأجابه واتبعه فله أجر الملتين، وكذلك العبد هو مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده، ورب الأمة لما قام بما خوطب به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياء التربية، ثم إنه لما أعتقها وتزوّجها أحياها إحياء الحرّية التي ألحقها فيه بمنصبه، فقد قام

بما أمر فيها، فأجر كل واحد منهما أجرين. ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه، الحسنة بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور. ولذلك قيل: إن العبد الذي يقوم بحق سيده وحق الله تعالى أفضل من الحرّ، وهو الذي ٱرتضاه أبو عمر بن عبد البر وغيره. وفي «الصحيح» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «للعبد المملوك المصلح أجران» والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك. قال سعيد بن المسيّب: وبلغنا أن أبا هريرة لم يكن يحج حتى ماتت أمّه لصحبتها. وفي «الصحيح» أيضاً عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «نعمّا للمملوك أن يُتوفَّى يحسن عبادة الله وصحابة سيده نعمّاً له».

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عام في صبرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون. درأت إذا دفعت، والدرء الدفع. وفي الحديث «ادرءوا الحدود بالشبهات». قيل: يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى. وقيل: يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب؛ وعلى الأوّل فهو وصف لمكارم الأخلاق؛ أي من قال لهم سوءاً لاينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه. فهذه آية مهادنة، وهي من صدر الإسلام، وهي مما نسختها آية السيف وبقي حكمها فيما دون الكفر يتعاطاه أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة. ومنه قوله عليه السلام لمعاذ «وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحها وخالِق الناس بخلق حسن» ومن الخلق الحسن دفع المكروه والأذى، والصبر على الجفا بالإعراض عنه ولين الحديث.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أثنى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع، وفي ذلك حض على الصدقات. وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة؛ ثم مدحهم أيضاً على إعراضهم عن اللغو؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ أي إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا

عنه؛ أي لم يشتغلوا به ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي متاركة؛ مثل قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾ أي لنا ديننا ولكم دينكم. ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي أمناً لكم منا فإنا لا نحاربكم، ولا نسابّكم، وليس من التحية في شيء. قال الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال. ﴿لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة.

[٥٦] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ قال الزجاج: أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب.

قلت: والصواب أن يقال أجمع جل المفسرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبيّ ﷺ، وهو نص البخاري ومسلم، وقد تقدّم ذلك في ﴿براءة﴾[1] وقال أبو روق قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إشارة إلى العباس. وقاله قتادة. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ قال مجاهد: لمن قدّر له أن يهتدي. وقيل: معنى ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي من أحببت أن يهتدي. وقال جبير بن مطعم: لم يسمع أحد الوحي يلقى على النبيّ ﷺ إلا أبا بكر الصدّيق فإنه سمع جبريل وهو يقول: يا محمد اقرأ ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

[٥٧] ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

[٥٨] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

---

(١) راجع ٨/ ٢٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ هذا قول مشركي مكة. قال ابن عباس: قائل ذلك من قريش الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشيّ، قال للنبي ﷺ: إنا لنعلم أن قولك حقّ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك، ونؤمن بك، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا ـ يعني مكة ـ لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقة لنا بهم. وكان هذا من تعللاتهم؛ فأجاب الله تعالى عما اعتلّ به فقال: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ أي ذا أمن. وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمّنهم بحرمة البيت، ومنع عنهم عدوّهم، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم. والتخطّف الانتزاع بسرعة؛ وقد تقدّم. قال يحيى بن سلاّم يقول: كنتم آمنين في حرمي، تأكلون رزقي، وتعبدون غيري، أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم بي. ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي يُجمَع إليه ثمراتُ كل أرض وبلد؛ عن ابن عباس وغيره. يقال جبى الماء في الحوض أي جمعه. والجابية الحوض العظيم. وقرأ نافع ﴿تُجْبَى﴾ بالتاء؛ لأجل الثمرات. الباقون بالياء؛ لقوله ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ واختاره أبو عبيد. قال: لأنه حال بين الاسم المؤنث وبين فعله حائل، وأيضاً فإن الثمرات جمع، وليس بتأنيث حقيقي. ﴿رِزْقاً مِن لَدُنَّا﴾ أي من عندنا. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعقلون؛ أي هم غافلون عن الاستدلال، وأن من رزقهم وأمّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم. و ﴿رِزْقاً﴾ نصب على المفعول من أجله. ويجوز نصبه على المصدر بالمعنى؛ لأن معنى ﴿تُجْبَى﴾ ترزق. وقرىء ﴿يُجْنَى﴾ بالنون من الجنا، وتعديته بإلى كقولك يجني إلى فيه ويجنى إلى الخافة[١].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ بيّن لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب أن الخوف في ترك الإيمان أكثر؛ فكم من قوم كفروا ثم حلّ بهم البوار، والبطر

---

(١) الخافة العيبة ومنه الحديث «المؤمن كمثل خافة الزرع».

الطغيان بالنعمة؛ قاله الزجاج ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ أي في معيشتها فلما حذف ﴿في﴾ تعدّى الفعل؛ قاله المازني. الزجاج كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً. الفراء: هو منصوب على التفسير. قال كما تقول: أبطرت مالك وبطرته. ونظيره عنده ﴿إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ وكذا عنده ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً﴾ ونصب المعارف على التفسير محال عند البصريين؛ لأن معنى التفسير والتمييز أن يكون واحداً نكرة يدل على الجنس. وقيل: أنتصب بـ ﴿بَطِرَتْ﴾ ومعنى ﴿بَطِرَتْ﴾ جهلت؛ فالمعنى: جهلت شكر معيشتها. ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي لم تُسكَن بعد إهلاك أهلها إلا قليلا من المساكن وأكثرها خراب. والاستثناء يرجع إلى المساكن أي بعضها يسكن؛ قاله الزجاج. واعترض عليه؛ فقيل: لو كان الاستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل؛ لأنك تقول: القوم لم تضرب إلا قليل؛ ترفع إذا كان المضروب قليلا، وإذا نصبت كان القليل صفة للضرب؛ أي لم تضرب إلا ضرباً قليلاً، فالمعنى إذاً: فتلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون ومن مرّ بالطريق يوماً أو بعض يوم، أي لم تُسكن من بعدهم إلا سكوناً قليلاً. وكذا قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافر أو مارّ الطريق يوماً أو ساعة. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي لما خلّفوا بعد هلاكهم.

[٥٩] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

[٦٠] ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

[٦١] ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أي القرى الكافرة. ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ قرىء بضم الهمزة وكسرها لإتباع الجر يعني مكة و ﴿رَسُولاً﴾ يعني محمدا ﷺ.

وقيل: ﴿فِي أُمِّهَا﴾ يعني في أعظمها ﴿رَسُولاً﴾ ينذرهم. وقال الحسن: في أوائلها.

قلت: ومكة أعظم القرى لحرمتها وأوّلها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وخصت بالأعظم لبعثة الرسول فيها؛ لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يسكنون المدائن وهي أمّ ما حولها. وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة ﴿يوسف﴾[1]. ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ ﴿يَتْلُو﴾ في موضع الصفة أي تالياً أي يخبرهم أن العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى﴾ وسقطت النون للإضافة مثل ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾. ﴿إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ أي لم أهلكهم إلا وقد ٱستحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم. وفي هذا بيان لعدله وتقدّسه عن الظلم. أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا ٱستحقوا الإهلاك بظلمهم، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم. ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين، كما قال عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فنص في قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ على أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً لهم منه، وأن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم، دل على ذلك بحرف النفي مع لامه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنْ شَيْءٍ﴾ يا أهل مكة ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي تتمتعون بها مدة حياتكم؛ أو مدة في حياتكم، فإما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي أفضل وأدوم؛ يريد الدار الآخرة وهي الجنة. ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أن الباقي أفضل من الفاني. قرأ أبو عمرو ﴿يعقلون﴾ بالياء. الباقون بالتاء على الخطاب وهو الاختيار لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ﴾. قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ﴾ يعني الجنة وما فيها من الثواب ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فأعطي منها بعض ما أراد. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي في النار. ونظيره قوله: ﴿وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ

---

(١) انظر ٩/ ٢٧٤ طبعة أولى أو ثانية.

مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قال ابن عباس: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وفي أبي جهل بن هشام. وقال مجاهد: نزلت في النبيّ ﷺ وأبي جهل. وقال محمد بن كعب. نزلت في حمزة وعليّ، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد. وقيل: في عمار والوليد بن المغيرة؛ قاله السدى. قال القشيري: والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم. الثعلبي: وبالجملة فإنها نزلت في كل كافر متع في الدنيا بالعافية والغنى وله في الآخرة النار، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله في الآخرة الجنة.

[٦٢] ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

[٦٣] ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

[٦٤] ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

[٦٥] ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

[٦٦] ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

[٦٧] ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي ينادي الله يوم القيامة هؤلاء المشركين ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم. ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء؛ قاله الكلبي. وقال قتادة: هم الشياطين. ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي دعوناهم إلى الغيّ. فقيل لهم: أغويتموهم؟ قالوا: ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾. يعنون أضللناهم كما كنا ضالين. ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبرأ بعضنا من بعض، والشياطين يتبرءون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرءون ممن قبل منهم؛ كما قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ﴾ أي للكفّار ﴿ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي ٱستغيثوا بآلهتكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي ٱستغاثوا بهم. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم. ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ قال الزجاج: جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى، ولما صاروا إلى العذاب. وقيل: أي لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم. وقيل المعنى: ودّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة. ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي يقول الله لهم ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلّغوكم رسالاتي. ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي خفيت عليهم الحجج؛ قاله مجاهد؛ لأن الله قد أعذر إليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة. و ﴿الأَنْبَاءُ﴾ الأخبار؛ سمَّى حججهم أنباء لأنها أخبار يخبرونها. ﴿فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجج؛ لأن الله تعالى أدحض حججهم؛ قاله الضحاك. وقال ٱبن عباس: ﴿لاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا ينطقون بحجة. وقيل: ﴿لاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ في تلك الساعة، ولا يدرون ما يجيبون به من هول تلك الساعة، ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقال مجاهد: لا يتساءلون بالأنساب. وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل من ذنوبه شيئاً؛ حكاه ابن عيسى.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ أي من الشرك ﴿وَآمَنَ﴾ أي صدّق ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ أدى الفرائض وأكثر من النوافل ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي من الفائزين بالسعادة. وعسى من الله واجبة.

[٦٨] ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

[٦٩] ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

[٧٠] ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم للشفاعة؛ أي الاختيار إلى الله تعالى في الشّفعاء لا إلى المشركين. وقيل هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ يعني نفسه زعم، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف. وقيل: هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به. قال ابن عباس: والمعنى؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته. وقال يحيى بن سلّام: والمعنى؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوّته. وحكى النقاش: أن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعني محمداً ﷺ، ويختار الأنصار لدينه.

قلت: وفي كتاب البزّار مرفوعاً صحيحاً عن جابر «إن الله تعالى اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ـ فجعلهم أصحابي وفي أصحابي كلهم خير واختار أمّتي على سائر الأمم واختار لي من أمتي أربعة قرون». وذكر سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أبيه في قوله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ قال من النعم الضأن، ومن الطير الحمام. والوقف التام ﴿وَيَخْتَارُ﴾. وقال عليّ بن سليمان: هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون ﴿ما﴾ في موضع نصب بـ ﴿يَخْتَارُ﴾ لأنها لو كانت في موضع نصب لم يعد عليها شيء. قال وفي هذا رد على القدرية. قال النحاس: التمام ﴿وَيَخْتَارُ﴾ أي ويختار الرسل. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي ليس يرسل من اختاروه هم. قال أبو إسحق: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ هذا الوقف التام المختار، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ في موضع نصب بـ ﴿يَخْتَارُ﴾ ويكون المعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة. قال القشيري: الصحيح الأوّل لإطباقهم [على] الوقف على قوله ﴿وَيَخْتَارُ﴾. قال المهدوي: وهو أشبه بمذهب أهل السنة و ﴿ما﴾ من قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفي عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيء سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل. الزمخشري: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ بيان لقوله ﴿ويختار﴾؛ لأن معناه يختار ما يشاء؛ ولهذا لم يدخل العاطف، والمعنى؛ إن الخيرة لله تعالى في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها أي ليس لأحد

من خلقه أن يختار عليه. وأجاز الزجاج وغيره أن تكون ﴿ما﴾ منصوبة بـ ﴿يَخْتَارُ﴾. وأنكر الطبريّ أن تكون ﴿ما﴾ نافية؛ لئلا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل، ولأنه لم يتقدّم كلام بنفي. قال المهدوي: ولا يلزم ذلك؛ لأن ﴿ما﴾ تنفي الحال والاستقبال كليس ولذلك عملت عملها؛ ولأن الآي كانت تنزل على النبيّ ﷺ على ما يسأل عنه، وعلى ما هم مصرون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص. وتقدير الآية عند الطبري: ويختار لولايته الخيرة من خلقه؛ لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ للهداية من خلقه من سبقت له السعادة في علمه، كما اختار المشركون خيار أموالهم لآلهتهم، فـ ﴿مَا﴾ على هذا لمن يعقل وهي بمعنى الذي و ﴿الْخِيَرَةُ﴾ رفع بالابتداء و ﴿لَهُمُ﴾ الخبر والجملة خبر ﴿كان﴾. وشبهه بقولك: كان زيد أبوه منطلق وفيه ضعف؛ إذ ليس في الكلام عائد يعود على اسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد. وقد روي معنى ما قاله الطبري عن ابن عباس. قال الثعلبي: و ﴿مَا﴾ نفي أي ليس لهم الاختيار على الله. وهذا أصوب كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. قال محمود الورّاق:

توكّل على الرحمن في كل حاجةٍ ... أردتَ فإن الله يقضي ويقدِر
إذا ما يرِدْ ذو العرش أمراً بعبده ... يصبْه وما للعبد ما[1] يتخير
وقد يهلك الإنسانُ من وجهِ حِذْره ... وينجو بحمد الله من حيث يحذر[2]

وقال آخر:

العبدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ ... والدّهرُ ذو دُولٍ والرزقُ مقسومُ
والخيرُ أجمعُ فيما اختار خالقُنا ... وفي اختيار سواه اللّومُ والشُّومُ

قال بعض العلماء: لا ينبغي لأحد أن يقدُم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة في ذلك؛ بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا

(١) في بعض نسخ الأصل: وما للعبد لا يتخير. والتصحيح من النسخة الخيرية.
(٢) لعل صواب البيت: وينجو بحمد الله من ليس يحذر. وهذا ما يفيده معنى التوكل.

ٱلْكَافِرُونَ﴾ وفي الركعة الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وٱختار بعض المشايخ أن يقرأ في الركعة الأولى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ الآية، وفي الركعة الثانية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وكلٌّ حسن. ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: كان النبيّ ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن؛ يقول: «إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدِر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أنّ هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال في عاجل أمري وآجله ـ فٱقْدُره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال في عاجل أمري وآجله ـ فٱصرفه عني وٱصرفني عنه وٱقْدُر لي الخير حيث كان ثم رضِّني به» قال ويسمي حاجته. وروت عائشة عن أبي بكر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ كان إذا أراد أمراً قال: «اللهم خِرْ لي وٱختر لي». وروى أنس أن النبيّ ﷺ قال له: «يا أنس إذا هممت بأمر فٱستخر ربك فيه سبع مرات ثم ٱنظر إلى ما يسبق قلبك فإن الخير فيه». قال العلماء: وينبغي له أن يفرّغ قلبه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلاً إلى أمر من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإن الخير فيه إن شاء الله. وإن عزم على سفر فيتوخى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين ٱقتداء برسول الله ﷺ.

ثم نزه نفسه سبحانه بقوله الحق؛ فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي تنزيها. ﴿وَتَعَالَى﴾ أي تقدّس وتمجد ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ. وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون. وقرأ ٱبن محيص وحميد ﴿تَكُنُّ﴾ بفتح التاء وضم الكاف. وقد تقدم هذا في ﴿النمل﴾. تمدح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء ﴿وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى والآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تقدم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، وأن جميع المحامد إنما تجب له، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير.

[٧١] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾.

[٧٢] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

[٧٣] ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً﴾ أي دائماً؛ ومنه قول طَرَفة.

لعمـرُك مـا أمـري علـيّ بُغمَّـةٍ نهاري ولا ليلي عليّ بسَرْمدِ[1]

بين سبحانه أنه مهد أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه. ﴿مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ أي بنور تطلبون فيه المعيشة. وقيل: بنهار تبصرون فيه معايشكم وتصلح فيه الثمار والنبات. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وقبول. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي تستقرّون فيه من النصَب. ﴿أَفَلَا تُبْصِرونَ﴾ مَا أنتم فيه من الخطأ في عبادة غيره؛ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على إيتاء الليل والنهار غيره فلمَ تشركون به. ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي فيهما. وقيل: الضمير للزمان وهو الليل والنهار. ﴿ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لتطلبوا من رزقه فيه أي في النهار فحذف. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ذلك.

[٧٤] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

[٧٥] ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

---

(١) الغمة: الأمر الذي لا يهتدى له؛ والمعنى؛ لا أتحير في أمري نهاراً وأؤخره ليلاً فيطول على الليل.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِين كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين، ينادون مرة فيقال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فيدعون الأصنام فلا يستجيبون، فتظهر حيرتهم[1]، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون. وهو توبيخ وزيادة خزي. والمناداة هنا ليست من الله؛ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لكنه تعالى يأمر من يوبخهم ويبكتهم، ويقيم الحجة عليهم في مقام الحساب. وقيل: يحتمل أن يكون من الله، وقوله: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ حين يقال لهم ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ وقال: ﴿شُرَكَائِي﴾ لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ أي نبيا؛ عن مجاهد. وقيل: هم عدول الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم في الدنيا. والأوّل أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً﴾ وشهيد كل أمة رسولها الذي يشهد عليها. والشهيد الحاضر. أي أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم. ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي حجتكم. ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي علموا صدق ما جاءت به الأنبياء. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي ذهب عنهم وبطل. ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة تعبد.

[٧٦] ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

[٧٧] ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

(١) في نسخة، فيظهر حزنهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ لما قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ بيّن أن قارون أوتيها وٱغترّ بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون، ولستم أيها المشركون بأكثر عدداً ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه. قال النخعي وقتادة وغيرهما: كان ابن عم موسى لَحًّا؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب، وموسى بن عمران بن قاهث. وقال ٱبن إسحق: كان عمّ موسى لأب وأم. وقيل: كان ٱبن خالته. ولم ينصرف للعجمة والتعريف. وما كان على وزن فاعول أعجمياً لا يحسن فيه الألف واللام لم ينصرف في المعرفة وانصرف في النكرة، فإن حسنت فيه الألف واللام ٱنصرف إن كان ٱسماً لمذكر نحو طاوس وراقود. قال الزجاج: ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف. ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ بغيه أنه زاد في طول ثوبه شبراً؛ قاله شهر بن حوشب. وفي الحديث «لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره بطرا» وقيل: بغيه كفره بالله عز وجل؛ قاله الضحاك. وقيل: بغيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده؛ قاله قتادة. وقيل: بغيه نسبته ما آتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته؛ قاله ابن بحر. وقيل: بغيه قوله إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان في هٰرون فمالي! فروي أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة لموسى والحبورة لهٰرون؛ يقرب القربان ويكون رأساً فيهم، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه، وجد قارون في نفسه وحسدهما. فقال لموسى: الأمر لكما وليس لي شيء إلى متى أصبر. قال موسى: هذا صنع الله. قال: والله لا أصدقنك حتى تأتي بآية؛ فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد منهم بعصاه، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل، فأصبحوا وإذا بعصا هٰرون تهتز ولها ورق أخضر ـ وكانت من شجر اللوز ـ فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر. ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ من البغي وهو الظلم. وقال يحيى بن سلاّم وابن المسيّب: كان قارون غنياً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم. وقول سابع: روي عن ابن عباس قال: لما أمر الله

تعالى برجم الزاني عمد قارون إلى ٱمرأة بغيّ وأعطاها مالاً، وحملها على أن ٱدعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها؛ فعظم على موسى ذلك وأحلفها بالله الذي فلق البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت. فتداركها الله فقالت: أشهد أنك بريء، وأن قارون أعطاني مالاً، وحملني على أن قلت ما قلت، وأنت الصادق وقارون الكاذب. فجعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه. فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرض خذيه؛ وهي تأخذه شيئاً فشيئاً وهو يستغيث يا موسى! إلى أن ساخ في الأرض هو وداره وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه. وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى: ٱستغاث بك عبادي فلم ترحمهم، أما أنهم لو دعوني لوجدوني قريباً مجيباً. ٱبن جريج: بلغنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة. وذكر ٱبن أبي الدنيا في كتاب الفرج: حدّثني إبراهيم بن راشد قال حدّثني داود بن مهران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال: لقي قارون يونس في ظلمات البحر، فنادى قارون يونس، فقال يا يونس: تب إلى الله فإنك تجده عند أول قدم ترجع بها إليه. فقال يونس: ما منعك من التوبة. فقال: إن توبتي جعلت إلى ٱبن عمي فأبى أن يقبل مني. وفي الخبر: إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفخ إسرافيل في الصور. والله أعلم. قال السدّي: وكان ٱسم البغي سبرتا، وبذل لها قارون ألفي درهم. قتادة: وكان قطع البحر مع موسى وكان يسمى المنوّر من حسن صورته في التوراة، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السامريّ.

قوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ قال عطاء: أصاب كثيراً من كنوز يوسف عليه السلام. وقال الوليد بن مروان: إنه كان يعمل الكيمياء. ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ ﴿ إن ﴾ وٱسمها وخبرها في صلة ﴿ ما ﴾ و ﴿ ما ﴾ مفعولة ﴿ آتينا ﴾. قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول ما أقبح ما يقول الكوفيون في الصلات؛ إنه لا يجوز أن تكون صلة الذي وأخواته ﴿إن﴾ وما عملت فيه. وفي القرآن ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾. وهو جمع مِفتح بالكسر وهو ما يفتح

به. ومن قال مفتاح قال مفاتيح. ومن قال هي الخزائن فواحدها مَفْتح بالفتح. ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ أحسن ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة أي تميلهم بثقلها، فلما ٱنفتحت التاء دخلت الباء. كما قالوا هو يذهب بالبؤس ويُذهِب البؤسَ. فصار ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ فجعل العصبة تنوء أي تنهض متثاقلة؛ كقولك قم بنا أي ٱجعلنا نقوم. يقال: ناء ينوء نوءاً إذا نهض بثقل. قال الشاعر[1]:

تَنوءُ بـأخـراهـا فَـلأْيـاً قِيـامُهـا وتَمشِي الهُوَينى عن قريبٍ فتَبْهَرُ

وقال آخر:

أخذتُ فلم أملك ونُؤْتُ فلم أَقُمْ كأنّيَ من طول الزمان مقيَّدُ

وأناءني إذا أثقلني؛ عن أبي زيد. وقال أبو عبيدة: قوله: ﴿لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ﴾ مقلوب والمعنى لتنوء بها العصبة أي تنهض بها. أبو زيد: نؤت بالحمل إذا نهضت. قال الشاعر:

إنا وجدنا خَلَفاً بئس الخلفَ عبداً إذا ما ناء بالحمل وقف

والأوّل معنى قول ٱبن عباس وأبي صالح والسدي. وهو قول الفرّاء وٱختاره النحاس. كما يقال ذهبت به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وَأَنَأْتُهُ؛ فأما قولهم: له عندي ما ساءه وناءه فهو إتباع كان يجب أن يقال وأناءه. ومثله هنأني الطعام ومرأني، وأخذه ما قدُم وما حدُث. وقيل: هو مأخوذ من النأي وهو البعد. ومنه قول الشاعر:

يَنْـأَوْنَ عنـا ومـا تَنْـأَى مـودّتُهـم فالقلبُ فيهم رهينٌ حيثما كانوا

وقرأ بديل بن ميسرة ﴿لَيَنُوءُ﴾ بالياء؛ أي لينوء الواحد منها أو المذكور فحمل على المعنى. وقال أبو عبيدة: قلت لرؤبة بن العجَّاج في قوله:

فيهـا خطـوطٌ مـن سـوادٍ وبَلَـقْ كأنّه في الجِلْدِ تَوْليعُ البَهَقْ

إن كنت أردت الخطوط فقل كأنها، وإن كنت أردت السواد والبلق فقل كأنهما. فقال: أردت كل ذلك. وٱختلف في العصبة وهي الجماعة التي يتعصب بعضهم لبعض على أحد عشر قولاً: **الأوّل** ـ ثلاثة رجال؛ قاله ٱبن عباس. وعنه أيضاً من الثلاثة إلى العشرة.

---

(١) هو ذو الرّمة: يريد تنيئها عجيزتها إلى الأرض لضخامتها وكثرة لحمها في أردافها.

وقال مجاهد: العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر. وعنه أيضاً: ما بين العشرة إلى الخمسة عشر. وعنه أيضاً: من عشرة إلى خمسة. ذكر الأوّل الثعلبي، والثاني القشيري والماورديّ، والثالث المهدويّ. وقال أبو صالح والحكم بن عُتَيبة وقتادة والضحاك: أربعون رجلاً. السدّي ما بين العشرة إلى الأربعين. وقاله قتادة أيضاً. وقال عكرمة: منهم من يقول أربعون، ومنهم من يقول سبعون. وهو قول أبي صالح إن العصبة سبعون رجلاً؛ ذكره الماوردي. والأوّل ذكره عنه الثعلبي. وقيل: ستون رجلاً. وقال سعيد بن جبير: ست أو سبع. وقال عبد الرحمن بن زيد: ما بين الثلاثة والتسعة وهو النفر. وقال الكلبي: عشرة لقول إخوة يوسف ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وقاله مقاتل. وقال خيثمة: وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلاً غراء محجلة، وأنها لتنوء بها من ثقلها، ما يزيد مفتح منها على إصبع، لكل مفتح منها كنز مال، لو قسم ذلك الكنز على أهل البصرة لكفاهم. قال مجاهد: كانت المفاتيح من جلود الإبل. وقيل: من جلود البقر لتخف عليه، وكانت تحمل معه إذا ركب على سبعين بغلاً فيما ذكره القشيري. وقيل: على أربعين بغلاً. وهو قول الضحاك. وعنه أيضاً: إن مفاتحه أوعيته. وكذا قال أبو صالح: إن المراد بالمفاتح الخزائن؛ فالله أعلم. ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ أي المؤمنون من بني إسرائيل؛ قاله السدّي. وقال يحيى بن سلاّم: القوم هنا موسى. وقاله الفراء. وهو جمع أريد به واحد كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ وإنما هو نعيم بن مسعود على ما تقدّم. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تأشر ولا تبطر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي البطرين؛ قاله مجاهد والسدّي. قال الشاعر:

ولستُ بِمفْراحٍ إذا الدهرُ سَرَّني ... ولا ضارعٌ في صرفه[1] المتقلب

وقال الزجاج: المعنى لا تفرح بالمال فإنّ الفَرِح بالمال لا يؤدّي حقَّه. وقال مبشر[2] بن عبد الله: لا تفرح لا تفسد. قال الشاعر[3]:

إذا أنتَ لم تبرح تؤدّي أمانةً ... وتحملُ أخرى أفرحتك الودائعُ

---

(١) ويروى: ولا جازع من صرفه المتحوّل. (٢) التصحيح من النسخة الخيرية.

(٣) أنشده أبو عبيدة لبيهس العذري.

أي أفسدتك. وقال أبو عمرو: أفرحه الدين أثقله. وأنشده: إذا أنت. . . البيت. وأفرحه سره فهو مشترك. قال الزجاج: والفرحين والفارحين سواء. وفرق بينهما الفراء فقال: معنى الفرحين الذين هم في حال فرح، والفارحين الذي يفرحون في المستقبل. وزعم أن مثله طمع وطامع وميت ومائت. ويدل على خلاف ما قال قول الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ولم يقل مائت. وقال مجاهد أيضاً: معنى ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبغ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي الباغين. وقال ابن بحر: لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين.

قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ اختلف فيه؛ فقال ابن عباس والجمهور: لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها. فالكلام على هذا التأويل شدّة في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك. فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه. وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدّة؛ قاله ابن عطية.

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله: احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. وعن الحسن: قدّم الفضل، وأمسك ما يبلغ. وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف. وقيل: أراد بنصيبه الكفن. فهذا وعظ متصل؛ كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن. ونحو هذا قول الشاعر:

نَصيبُك مما تجمعُ الدهرَ كلَّه ... رداءان تُلْـوَى فيهمـا وحَنُـوط

وقال آخر:

وهي القناعة لا تبغي بها بدلاً ... فيها النعيم وفيها راحة البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

قال ابن العربي: وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا ويا ما أحسن هذا. ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أطع الله واعبده كما أنعم عليك.

ومنه الحديث: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه» وقيل: هو أمر بصلة المساكين. قال ٱبن العربي: فيه أقوال كثيرة جماعها ٱستعمال نِعم الله في طاعة الله. وقال مالك: هو الأكل والشرب من غير سرف. قال ٱبن العربي: أرى مالكاً أراد الرد على الغالين في العبادة والتقشف؛ فإن النبي ﷺ كان يحب الحلواء، ويشرب العسل، ويستعمل الشواء، ويشرب الماء البارد. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ أي لا تعمل بالمعاصي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

[٧٨] ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ يعني علم التوراة. وكان فيما روي من أقرأ الناس لها، ومن أعلمهم بها. وكان أحد العلماء السبعين الذين ٱختارهم موسى للميقات. وقال ٱبن زيد: أي إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني. فقوله: ﴿عِنْدِي﴾ معناه إن عندي أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل فيّ. وقيل: أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب؛ قاله علي بن عيسى. ولم يعلم أن الله لو لم يسهل له ٱكتسابها لما ٱجتمعت عنده. وقال ٱبن عباس: على علم عندي بصنعة الذهب. وأشار إلى علم الكيمياء. وحكى النقاش: أن موسى عليه السلام علمه الثلث من صنعة الكيمياء، ويوشع الثلث، وهارون الثلث، فخدعهما قارون ـ وكان على إيمانه ـ حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء، فكثرت أمواله. وقيل: إن موسى علم الكيمياء ثلاثة؛ يوشع بن نون، [وكالب[1] بن يوفنا]، وقارون، وٱختار الزجاج القول الأول، وأنكر قول من قال إنه يعمل الكيمياء. قال: لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له. وقيل: إن موسى علّم أخته علم الكيمياء، وكانت زوجة قارون، وعلّمت أخت موسى قارون؛ والله أعلم.

---

(١) في «الأصول»: «طالوت» وهو تحريف. والتصويب من كتب التفسير.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي بالعذاب. ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي الأمم الخالية الكافرة. ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ أي للمال، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم. وقيل: القوة الآلات، والجمع الأعوان والأنصار، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون؛ أي ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِن القرونِ﴾. ﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يسألون سؤال استعتاب كما قال: ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿وَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قاله الحسن. وقال مجاهد: لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين؛ فإنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون. وقال قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، بل يدخلون النار بلا حساب. وقيل: لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا في الدنيا. وقيل: أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسألتهم عن ذنوبهم.

[٧٩] ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

[٨٠] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ أي على بني إسرائيل فيما رآه زينة من متاع الحياة الدنيا؛ من الثياب والدواب والتجمل في يوم عيد. قال الغزنوي: في يوم السبت. ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ أي مع زينته. قال الشاعر:

إذا ما قلوبُ القومِ طارت مخافةً   من الموت أرسوا بالنفوس المواجد[1]

أي مع النفوس. كان خرج في سبعين ألفاً من تَبَعه، عليهم المعصفَرات، وكان أوّل من صُبغ له الثياب المعصفَرة. قال السدّي: مع ألف جوار بيض على بغال بيض بسروج من

---

(١) في نسخة: أرموا بالنفوس. وفي نسخة أخرى أرسوا بالنفوس النواجذ. ولم نعثر عليه.

ذهب على قُطُف الأرْجُوان. قال ٱبن عباس: خرج على البغال الشهب. مجاهد: على براذين بيض عليها سروج الأُرْجُوان، وعليهم المعصفَرات، وكان ذلك أوّل يوم رؤي فيه المعصفَر. قال قتادة: خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر، منها ألف بغل أبيض عليها قُطُف حمر. قال ابن جريج: خرج على بغلة شهباء عليها الأُرْجُوان، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر. وقال ٱبن زيد: خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفَرات. الكلبي: خرج في ثوب أخضر كان الله أنزله على موسى من الجنة فسرقه منه قارون. وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: كانت زينته القِرمز.

قلت: القِرْمِز صِبغ أحمر مثل الأُرْجُوان، والأُرْجوان في اللغة صِبغ أحمر؛ ذكره القشيري. ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي نصيب وافر من الدنيا. ثم قيل: هذا من قول مؤمني ذلك الوقت، تمنوا مثل ماله رغبة في الدنيا. وقيل: هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها، وهم الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم أحبار بني إسرائيل للذين تمنوا مكانه ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني الجنة. ﴿لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ أي لا يؤتى الأعمال الصالحة، أو لا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله. وجاز ضميرها لأنها المعنية بقوله: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾.

[٨١] ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

[٨٢] ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ قال مقاتل: لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل: إنما أهلكه ليرث ماله؛ لأنه كان ٱبن عمه؛ أخي أبيه، فخسف

الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام، فأوحى الله إلى موسى إني لا أعيد طاعة الأرض إلى أحد بعدك أبداً. يقال: خَسَف المكانُ يخسِف خُسوفاً ذهب في الأرض وخَسَف اللَّهُ به الأرض خَسْفاً أي غاب به فيها. ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ وخَسَف هو في الأرض وخُسِف به. وخسوف القمر كسوفه. قال ثعلب: كَسَفتِ الشمسُ وخَسفَ القمرُ؛ هذا أجود الكلام. والخسف النقصان؛ يقال: رضي فلان بالخسف أي بالنقيصة. ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ أي جماعة وعصابة. ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِيْنَ﴾ لنفسه أي الممتنعين فيما نزل به من الخسف. فيروى أن قارون يَسفُل كلّ يوم بقدر قامة، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى نفخ إسرافيل في الصور؛ وقد تقدّم؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالامْسِ﴾ أي صاروا يتندّمون على ذلك التمني و ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ الله﴾ [وي] حرف تندّم. قال النحاس: أحسن ما قيل في هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائي إن القوم تَنبّهوا أو نُبّهوا؛ فقالوا وَيْ، والمتندم من العرب يقول في خلال تندّمه وَيْ. قال الجوهري: وَيْ. كلمة تعجب، ويقال: وَيْكَ ووَيْ لعبد الله. وقد تدخل وَيْ على كأن المخففة والمشدّدة تقول: ويكأن الله. قال الخليل: هي مفصولة؛ تقول: ﴿وَيْ﴾ ثم تبتدىء فتقول ﴿كَأَنّ﴾. قال الثعلبي: وقال الفرّاء هي كلمة تقرير؛ كقولك: أما ترى إلى صنع الله وإحسانه؛ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها: أين ٱبنكَ وَيْلك؟ فقال: وَيْ كأنّه وراءَ البيت؛ أي أما ترينه. وقال ٱبن عباس والحسن: ويك كلمة ٱبتداء وتحقيق تقديره: إن الله يبسط الرزق. وقيل: هو تنبيه بمنزلة ألا في قولك ألا تفعل وأمّا في قولك أما بعد. قال الشاعر[(١)]:

سَـألَتَـانِـي الطـلاقَ إذ رَأَتَـانِـي ... قَـلَّ مـالِـي قـد جِئْتُمـانِـي بِنُكْـرِ

وَيْ كَأنْ مَنْ يَكنْ له نَشَبٌ يُحْبَـ ... ـبْ ومَنْ يَفتقرْ يَعشْ عيشَ ضُرِّ

---

(١) هو زيد بن عمر بن نفيل.

وقال قُطْرُب: إنما هو ويلك وأسقطت لامه وضمت الكاف التي هي للخطاب إلى وَيْ. قال عَنترة:

ولقد شَفَى نفسي وأَبرأ سُقْمَها قَوْلُ الفوارِس وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ

وأنكره النحاس وغيره، وقالوا: إن المعنى لا يصح عليه؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحداً فيقولوا له ويلك، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر. وأيضاً فإن حذف اللام من ويلك لا يجوز. وقال بعضهم: التقدير ويلك أعلم أنه؛ فأضمر أعلم. ٱبن الأعرابي: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾ أي أعلم. وقيل: معناه ألم تر أن الله. وقال القتبي: معناه رحمة لكَ بلغة حِمْير. وقال الكسائي: وَيْ فيه معنى التعجب. ويروى عنه أيضاً الوقف على وَيْ وقال كلمة تفجّع. ومن قال: ويك فوقف على الكاف فمعناه أعجب لأن الله يبسط الرزق وأعجب لأنه لا يفلح الكافرون. وينبغي أن تكون الكاف حرف خطاب لا ٱسماً؛ لأنّ وي ليست مما يضاف. وإنما كتبت متصلة؛ لأنها لما كثر ٱستعمالها جعلت مع ما بعدها كشيء واحد. ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾. وقرأ الأعمش: ﴿لَوْلَا مَنُّ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾. وقرأ حفص ﴿لخَسَفَ بِنَا﴾ مسمّى الفاعل. الباقون: على ما لم يسم فاعله وهو ٱختيار أبي عبيد. وفي حرف عبد الله ﴿لانْخُسِف بِنَا﴾ كما تقول ٱنطُلِق بنا. وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصرِّف. وٱختار قراءة الجماعة أبو حاتم لوجهين: أحدهما قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾. والثاني قوله: ﴿لَوْلَا أنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فهو بأن يضاف إلى الله تعالى لقرب اسمه منه أولى. ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ عند الله.

[٨٣] ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

[٨٤] ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ يعني الجنة. وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها. يعني تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ﴾ أي رفعة وتكبراً على الإيمان والمؤمنين ﴿وَلَا فَسَاداً﴾ عملاً بالمعاصي. قاله ابن جُرَيج ومقاتل. وقال عِكْرمة ومسلم البَطين: الفساد أخذ المال بغير حق. وقال الكلبي الدعاء إلى غير عبادة الله. وقال يحيى بن سلّام: هو قتل الأنبياء والمؤمنين. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال الضحاك: الجنّة. وقال أبو معاوية: الذي لا يريد علوّاً هو من لم يجزع من ذلّها، ولم ينافس في عزّها، وأرفعهم عند الله أشدّهم تواضعاً، وأعزّهم غدا ألزمهم لذلّ اليوم. وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مرّ عليّ بن الحسين وهو راكب على مساكين يأكلون كِسَراً لهم، فسلّم عليهم فدعوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾ ثم نزل وأكل معهم. ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني. فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم. خرّجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثني أبي، قال حدّثنا سفيان بن عيينة. فذكره. وقيل: لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب. والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من اتقى، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لا له؛ لأنها تضره ولا تنفعه.

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ تقدّم في ﴿النمل﴾. وقال عكرمة: ليس شيء خيراً من لا إله إلا الله. وإنما المعنى من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي بالشرك ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي يعاقب بما يليق بعمله.

[٨٥] ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾.

[٨٦] ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

[٨٧] ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

[٨٨] ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ ختم السورة ببشارة نبيه محمد ﷺ بردّه إلى مكة قاهراً لأعدائه. وقيل: هو بشارة له بالجنّة. والأوّل أكثر. وهو قول جابر بن عبد الله وٱبن عباس ومجاهد وغيرهم. قال القتبي: مَعاد الرجل بلده؛ لأنه ينصرف ثم يعود. وقال مقاتل: خرج النبي ﷺ من الغار ليلاً مهاجراً إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجُحْفة عرف الطريق إلى مكة فٱشتاق إليها، فقال له جبريل إن الله يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ أي إلى مكة ظاهراً عليها. قال ٱبن عباس: نزلت هذه الآية بالجُحْفَة ليست مكية ولا مدنية. وروى سعيد بن جبير عن ٱبن عباس ﴿إِلَى مَعَادٍ﴾ قال: إلى الموت. وعن مجاهد أيضاً وعكرمة والزهري والحسن: إن المعنى لرادّك إلى يوم القيامة؛ وهو ٱختيار الزجاج. يقال بيني وبينك المعاد؛ أي يوم القيامة؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء. و ﴿ فَرَضَ ﴾ معناه أنزل. وعن مجاهد أيضاً وأبي مالك وأبي صالح ﴿ إِلَى مَعَادٍ ﴾ إلى الجنة. وهو قول أبي سعيد الخدري وٱبن عباس أيضاً: لأنه دخلها ليلة الإسراء. وقيل: لأن أباه آدم خرج منها. ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ ﴾ أي قل لكفار مكة إذا قالوا إنك لفي ضلال مبين ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أنا أم أنتم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي ما علمت أننا نرسلك إلى الخلق وننزل عليك القرآن. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الكسائي: هو ٱستثناء منقطع بمعنى لكن. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي عوناً لهم ومساعداً. وقد تقدّم في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ يعني أقوالهم وكذبهم وأذاهم، ولا تلتفت نحوهم وآمض لأمرك وشأنك. وقرأ يعقوب ﴿يَصُدُّنْكَ﴾ مجزوم النون. وقرىء ﴿يُصِدُّنَّكَ﴾ من أصده بمعنى صده وهي لغة في كلب. قال الشاعر[١]:

أُنَاسٌ أصدّوا الناسَ بالسيف عنهم ... صُدُودَ السَّوَاقِي عن أنوفِ الحَوَائِم[٢]

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى التوحيد. وهذا يتضمن المهادنة والموادعة. وهذا كله منسوخ بآية السيف. وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله ﷺ إلى تعظيم أوثانهم، وعند ذلك ألقى الشيطان في أمنيته أمر الغَرَانيق على ما تقدم[٣]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي لا تعبد معه غيره فإنه لا إله إلا هو. نفي لكل معبود وإثبات لعبادته. ﴿كلّ شيء هالك إلا وجهه﴾ قال مجاهد: معناه إلا هو. وقال الصادق: دينه. وقال أبو العالية وسفيان: أي إلا ما أريد به وجهه؛ أي ما يقصد إليه بالقربة. قال:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذنباً لستُ مُحْصِيَه ... ربَّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعملُ

وقال محمد بن يزيد: حدثني الثوري قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى ﴿كل شيء هالِك إلا وَجْهَه﴾ فقال: إلا جاهه، كما تقول لفلان وجه في الناس أي جاه ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ في الأولى والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. قال الزجاج: ﴿وجهه﴾ منصوب على الاستثناء، ولو كان في غير القرآن كان إلا وجهه بالرفع، بمعنى كل شيء غير وجهه هالك كما قال[٤]:

وكــلُّ أخٍ مُفــارِقُــهُ أخــوه ... لعَمْــرُ أبيــكَ إلاّ الفَــرْقَــدَانِ

والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بمعنى ترجعون إليه.

تمت سورة القصص والحمد لله

---

(١) هو ذو الرمة.
(٢) ويروى: بالضرب. . . من أنوف المخارم.
(٣) راجع ١٢/٧٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.
(٤) هو عمرو بن معدي كرب، ويروى لسوار بن المضرب. «شواهد سيبويه».

سورة العنكبوت

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنية كلها في أحد قولي ٱبن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلاّم أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نزلت بين مكة والمدينة. وهي تسع وستون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿الٓمٓ ۝١﴾.

[٢] ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿آلم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ تقدّم القول في أوائل السور. وقال ٱبن عباس: المعنى أنا الله أعلم. وقيل: هو ٱسم للسورة. وقيل ٱسم للقرآن. ﴿ أَحَسِبَ ﴾ ٱستفهام أريد به التقرير والتوبيخ ومعناه الظن. ﴿أَنْ يُتْرَكُوا﴾ في موضع نصب بـ ﴿حَسِب﴾ وهي وصلتها مقام المفعولين على قول سيبويه. و ﴿أن﴾ الثانية من ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ في موضع نصب على إحدى جهتين ، بمعنى لأن يقولوا أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا . والجهة الأخرى أن يكون على التكرير؛ التقدير ﴿ آلمَ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾ أحسبوا ﴿ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ قال ٱبن عباس وغيره: يريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بني مخزوم وغيرهم. فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما ٱستنكِر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين ؛ قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلّية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده ٱختباراً للمؤمنين وفتنة . قال ٱبن عطية : وهذه الآية وإن كانت

نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال فهي باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر. وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك. وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن، ولكن التي تشبه نازلة المسلمين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدوّ في كل ثغر.

قلت: ما أحسن ما قاله، ولقد صدق فيما قال رضي الله عنه. وقال مقاتل: نزلت في مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب كان أوّل قتيل من المسلمين يوم بدر؛ رماه عامر بن الحضرميّ بسهم فقتله. فقال النبيّ ﷺ يومئذ: «سيد الشهداء مِهْجَع وهو أوّل من يُدْعى إلى باب الجنة من هذه الأمة». فجزع عليه أبواه وامرأته فنزلت ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾. وقال الشعبي: نزل مفتتح هذه السورة في أناس كانوا بمكة من المسلمين، فكتب إليهم أصحاب النبيّ ﷺ من الحديبية أنه لا يقبل منكم إقرار الإسلام حتى تُهَاجروا، فخرجوا فاتبعهم المشركون فآذوهم. فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاس أَنْ يُتْرَكُوا﴾ فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آية كذا؛ فقالوا: نخرج وإن اتبعنا أحد قاتلناه؛ فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فنزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾. ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يمتحنون؛ أي أظنَّ الذين جزعوا من أذى المشركين أن يُقنَع منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبين به حقيقة إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ابتلينا الماضين كالخليل ألقي في النار، وكقوم نشروا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه. وروى البخاريّ عن خَبَّاب بن الأَرَتِّ : قالوا شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بُرْدَة له في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا. فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمِنْشَار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمشَط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه فما يصرفه ذلك عن دينه واللَّهِ ليتِمَّن هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللَّهَ والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون». وخرّج ابن ماجه عن

أبي سعيد الخدريّ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فوضعت يدي عليه، فوجدت حرّه بين يدي فوق اللحاف. فقلت: يا رسول الله ما أشدّها عليك. قال: «إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء ويُضعَّف لنا الأجر» قلت: يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء» وقلت: ثم من. قال «ثم الصالحون أَنْ كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يَحُوبها[1] وأَنْ كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرحُ أحدكم بالرخاء». وروى سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صُلْبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقّة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشيء على الأرض وما عليه من خطيئة». وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوماً فأخذه السبع فأكله، فقال عيسى: يا رب وزيري في دينك، وعوني على بني إسرائيل، وخليفتي فيهم، سلطت عليه كلباً فأكله. قال: «نعم كانت له عندي منزلة رفيعة لم أجد عمله يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة. وقال وهب: قرأت في كتاب رجل من الحواريين: إذا سلك بك سبيل البلاء فقرّ عينا، فإنه سلِك بك سبيل الأنبياء والصالحين، وإذا سلك بك سبيل الرخاء فابك على نفسك، فقد خولف بك عن سبيلهم.

قوله تعالى: ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أي فليُرِيَنَّ الله الذين صدقوا في إيمانهم. وقد مضى هذا المعنى في ﴿ البقرة ﴾ وغيرها. قال الزجاج: ليعلم صدق الصادق بوقوع صدقه منه، وقد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما، ولكن القصد قصد وقوع العلم بما يجازى عليه. وإنما يعلم صدق الصادق واقعاً كائناً وقوعه، وقد علم أنه سيقع. وقال النحاس: فيه قولان أحدهما أن يكون ﴿صَدَقُوا﴾ مشتقاً من الصِّدْق و ﴿الْكَاذِبِينَ﴾ مشتقاً من الكَذِب الذي هو ضد الصِّدق، ويكون المعنى؛ فليبيننَّ الله الذين صدقوا فقالوا نحن مؤمنون واعتقدوا

(١) وردت هذه الكلمة في «سنن ابن ماجه» بالهاء المهملة، وقال هامشه: «يحوبها» من حبى بحاء مهملة وباء موحدة أي يجعل لها جيبا. ووردت في «الجامع الصغير» للسيوطي بالجيم وقال شارحه: هي بجيم وواو وموحدة أي يخرقها ويقطعها، وكل شيء قطع وسطه فهو مجوب. ورواية «الجامع الصغير» هي المتبادرة.

مثل ذلك، والذين كذبوا حين ٱعتقدوا غير ذلك. والقول الآخر أن يكون صدقوا مشتقاً من الصَّدْق وهو الصُّلْب، والكاذبين مشتقاً من كَذَّب إذا ٱنهزم، فيكون المعنى؛ فليعلمن الله الذين ثبتوا في الحرب، والذين ٱنهزموا؛ كما قال الشاعر[1]:

لَيثٌ بِعَثَّرَ يَصطادُ الرجالَ إذا ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانه صَدَقَا

فجعل ﴿لَيَعْلَمَنَّ﴾ في موضع فليبينن مجازاً. وقراءة الجماعة ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ بفتح الياء واللام. وقرأ علي بن أبي طالب بضم الياء وكسر اللام وهي تبين معنى ما قاله النحاس. ويحتمل ثلاثة معان: الأوّل أن يعلم في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا؛ بمعنى يوقفهم على ما كان منهم. الثاني أن يكون المفعول الأوّل محذوفاً تقديره؛ فليعلمنّ الناس والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين، أي يفضحهم ويشهرهم؛ هؤلاء في الخير وهؤلاء في الشر، وذلك في الدنيا والآخرة. الثالث أن يكون ذلك من العلامة؛ أي يضع لكل طائفة علامة يشتهر بها. فالآية على هذا تنظر إلى قول النبيّ ﷺ: «من أسر سريرة ألبسه الله رداءها».

[٤] ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾.

[٥] ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾.

[٦] ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

[٧] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي الشرك ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أي يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون. قال ٱبن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن

(١) هو زهير بن أبي سلمى. وعثر بشد المثلثة ٱسم موضع.

أبي سفيان والعاص بن وائل. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوق والله القادر على كل شيء. و ﴿ما﴾ في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ في موضع رفع بمعنى ساء الشيء أو الحكم حكمهم. وهذا قول الزجاج. وقدرها أبن كيسان تقديرين آخرين خلاف ذينك: أحدهما أن يكون موضع ﴿مَا يَحْكُمونَ﴾ بمنزلة شيء واحد، كما تقول: أعجبني ما صنعت؛ أي صنيعك؛ فـ ﴿ـما﴾ والفعل مصدر في موضع رفع، التقدير؛ ساء حكمهم. والتقدير الآخر أن تكون ﴿ما﴾ لا موضع لها من الإعراب، وقد قامت مقام الاسم لساء، وكذلك نعم وبئس. قال أبو الحسن بن كيسان: وأنا أختار أن أجعل لـ ﴿ـما﴾ موضعاً في كل ما أقدر عليه؛ نحو قوله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وكذا ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ وكذا ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ ﴿ما﴾ في موضع خفض في هذا كله وما بعده تابع لها، وكذا ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً﴾ ﴿ما﴾ في موضع نصب و ﴿بَعُوضَةً﴾ تابع لها.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾ ﴿يَرْجُو﴾ بمعنى يخاف من قول الهُذَليّ في وصف عَسَّال:

إذَا لَسَعَتْـهُ النَّحـلُ لـم يَـرْجُ لسعَهـا[1]

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت فليعمل عملاً صالحاً فإنه لا بد أن يأتيه؛ ذكره النحاس. قال الزجاج: معنى ﴿يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ ثواب الله و ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع بالابتداء و ﴿كَانَ﴾ في موضع الخبر، وهي في موضع جزم بالشرط، و ﴿يرجو﴾ في موضع خبر كان، والمجازاة ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن جاهد في الدين، وصبر على قتال الكفار وأعمال الطاعات، فإنما يسعى لنفسه؛ أي ثواب ذلك كله له، ولا يرجع إلى الله نفع من ذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي عن أعمالهم. وقيل: المعنى؛ من جاهد عدوه لنفسه لا يريد وجه الله فليس لله حاجة بجهاده.

---

(١) تمام البيت...

وحـالفهـا فـي بيـت نـوب عـوامـل

وروي: عواسل.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدّقوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي لنغطينها عنهم بالمغفرة لهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعات. ثم قيل: يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها في الشرك، ويثابوا على ما عملوا من حسنة في الإسلام. ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم في الكفر والإسلام، ويثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام.

[٨] ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

[٩] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ نزلت في سعد بن أبي وقاص فيما روى الترمذي قال: أنزلت فيّ أربعُ آيات فذكَر قصةً؛ فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر! والله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر؛ قال: فكانوا إذا أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا[١] فَاهَا فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وروي عن سعد أنه قال: كنت باراً بأمي فأسلمتُ، فقالت: لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي، ويقال: يا قاتل أمه، وبقيت يوماً ويوماً فقلت: يا أماه! لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا، فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت ونزلت: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ الآية. وقال ابن عباس: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه وقد فعلت أمه مثل ذلك. وعنه أيضاً: نزلت في جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صدّيق. و ﴿حُسْناً﴾ نصب عند البصريين على التكرير أي ووصيناه حسناً. وقيل: هو على القطع تقديره ووصيناه بالحسن كما تقول وصيته خيراً أي

(١) شجروا فاها: أي أدخلوا في شجره عوداً حتى يفتحوه به.

بالخير. وقال أهل الكوفة: تقديره ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً فيقدر له فعل. وقال الشاعر:

عَجبتُ من دَهْمَاءَ إذ تَشكونَا ومن أبي دَهْمَاءَ إذ يُوصينَا
خيراً بها كأنّما خافونا

أي يوصينا أن نفعل بها خيراً؛ كقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً﴾ أي يمسح مسحاً. وقيل: تقديره ووصّيناه أمراً ذا حسنٍ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: معناه ألزمناه حسناً. وقراءة العامة ﴿حُسْناً﴾ بضم الحاء وإسكان السين. وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك بفتح الحاء والسين. وقرأ الجحدري ﴿إحساناً﴾ على المصدر، وكذلك في مصحف أبيّ، التقدير: ووصينا الإنسان أن يحسن إليهما إحساناً، ولا ينتصب بوصينا؛ لأنه قد ٱستوفى مفعوليه. ﴿إليَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر. ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل مراتبهم. وقوله: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ مبالغة على معنى؛ فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته. وإذا تحصل للمؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه وهو الجنة.

[١٠] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

[١١] ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية نزلت في المنافقين كانوا يقولون آمنا بالله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي أذاهم ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة فٱرتد عن إيمانه. وقيل: جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ولا يصبر على الأذية في الله

﴿وَلَئِنْ جَاءَ﴾ المؤمنين ﴿نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهم كاذبون؛ فقال الله لهم ﴿أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني الله أعلم بما في صدورهم منهم بأنفسهم. وقال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم أفتتنوا. وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك. وقال عكرمة: كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر فقتل بعضهم، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فكتب بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة، فخرجوا فلحقهم المشركون، فأفتتن بعضهم، فنزلت هذه الآية فيهم. وقيل: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة؛ أسلم وهاجر، ثم أوذي وضرب فأرتد. وإنما عذبه أبو جهل والحرث وكانا أخويه لأمه. قال ابن عباس: ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال قتادة: نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة.

[١٢] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

[١٣] ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتبعُوا سَبِيلَنَا﴾ أي ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ جزم على الأمر. قال الفراء والزجاج: هو أمر في تأويل الشرط والجزاء؛ أي إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، كما قال[1].

فقلتُ ادعِي وأدعُ فإنّ أندَى ... لِصوتٍ أنْ يُنادِيَ داعِيانِ

(١) البيت لمدثار بن شيبان النمري وقبله:

تقول خليلتي لما اشتكينا ... سيدركنا بنو القرم الهجان

أي إن دعوتِ دعوتُ. قال المهدوي: وجاء وقوع ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ بعده على الحمل على المعنى؛ لأن المعنى إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم. فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر. قال مجاهد: قال المشركون من قريش نحن وأنتم لا نبعث، فإن كان عليكم وزر فعلينا؛ أي نحن نحمل عنكم ما يلزمكم. والحمل ههنا بمعنى الحمالة لا الحمل على الظهر. وروي أن قائل ذلك الوليد بن المغيرة. ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يعني ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم. روي معناه عن النبي ﷺ. وقد تقدّم في ﴿آل عمران﴾[1]. قال أبو أمامة الباهلي: «يؤتى بالرجل يوم القيامة وهو كثير الحسنات فلا يزال يقتص منه حتى تفنى حسناته ثم يطالب فيقول الله عز وجل اقتصوا من عبدي فتقول الملائكة ما بقيت له حسنات فيقول خذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. وقال قتادة: من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء. ونظيره قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. ونظير هذا قوله عليه السلام: «من سنّ في الإسلام سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» روي من حديث أبي هريرة وغيره. وقال الحسن قال النبي ﷺ: «من دعا إلى هدًى فاتُّبع عليه وعمل به فله مثل أجور من اتّبعه ولا يُنقص ذلك من أجورهم شيئاً وأيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها بعده فعليه مثل أوزار من عمل بها ممن اتّبعه لا يَنقص ذلك من أوزارهم شيئاً» ثم قرأ الحسن: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

قلت: هذا مرسل وهو معنى حديث أبي هريرة خرجه مسلم. ونص حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبع فإن له مثلَ أوزار من اتّبعه ولا يَنقص من أوزارهم شيئاً وأيما داعٍ دعا إلى هدًى فاتُّبع فإن له مثل أجور من اتّبعه

(١) راجع ٤/٢٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

ولا يَنْقص من أجورهم شيئاً» خرجه ابن ماجه في السنن. وفي الباب عن أبي جُحَيفة وجرير. وقد قيل: إن المراد أعوان الظلمة. وقيل: أصحاب البدع إذا ٱتُّبِعُوا عليها. وقيل: محدِثو السنن الحادثة إذا عمل بها من بعدهم. والمعنى متقارب والحديث يجمع ذلك كله.

[١٤] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ ذكر قصة نوح تسلية لنبيه ﷺ؛ أي ٱبتلي النبيون قبلك بالكفار فصبروا. وخص نوحاً بالذكر؛ لأنه أوّل رسول أرسل إلى الأرض وقد ٱمتلأت كفراً على ما تقدّم بيانه في ﴿هود﴾[١]. وأنه لم يلق نبيّ من قومه ما لقي نوح على ما تقدم في ﴿هود﴾ عن الحسن. وروي عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال: «أوّل نبي أرسل نوح» قال قتادة: وبعث من الجزيرة. وٱختلف في مبلغ عمره. فقيل: مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه. قال قتادة: لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة، ودعاهم ثلثمائة سنة، ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة. وقال ٱبن عباس: بعث نوح لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الغرق ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا. وعنه أيضاً: أنه بعث وهو ٱبن مئتين وخمسين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين، وعاش بعد الطوفان مائتي سنة. وقال وهب: عمّر نوحٌ ألفاً وأربعمائة سنة. وقال كعب الأحبار: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان سبعين عاماً فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاماً. وقال عون بن أبي شداد: بعث نوح وهو ٱبن خمسين وثلاثمائة سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ثلثمائة سنة

(١) راجع ٩/٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

وخمسين سنة؛ فكان مبلغ عمره ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة ونحوه عن الحسن. قال الحسن: لما أتى ملك الموت نوحاً ليقبض روحه قال: يا نوح كم عشت في الدنيا؟ قال: ثلثمائة قبل أن أبعث، وألف سنة إلا خمسين عاماً في قومي، وثلثمائة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان. قال ملك الموت: فكيف وجدت الدنيا؟ قال نوح: مثل دار لها بابان دخلت من هذا وخرجت من هذا. وروي من حديث أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لما بعث الله نوحاً إلى قومه بعثه وهو ابن خمسين ومائتي سنة فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وبقي بعد الطوفان خمسين ومائتي سنة فلما أتاه ملك الموت قال يا نوح يا أكبر الأنبياء ويا طويل العمر ويا مجاب الدعوة كيف رأيت الدنيا قال مثل رجل بُني له بيت له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر» وقد قيل: دخل من أحدهما وجلس هنيهة ثم خرج من الباب الآخر. وقال ابن الوردي: بَنَى نوح بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيت غير هذا، فقال: هذا كثير لمن يموت. وقال أبو المهاجر: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً في بيت من شعر، فقيل له: يا نبيّ الله ابن بيتاً، فقال: أموت اليوم [أو] أموت غداً. وقال وهب بن منبّه: مرت بنوح خمسمائة سنة لم يقرب النساء وجلاً من الموت. وقال مقاتل وجويبر: إن آدم عليه السلام حين كبر ورقّ عظمه قال يا رب إلى متى أكدّ وأسعى؟ قال: يا آدم حتى يولد لك ولد مختون. فولد له نوح بعد عشرة أبطن، وهو يومئذٍ ابن ألف سنة إلا ستين عاماً. وقال بعضهم: إلا أربعين عاماً. والله أعلم. فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. وكان اسم نوح السكن. وإنما سمي السكن؛ لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه، فهو أبوهم. وولد له سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم، وفي كل هؤلاء خير. وولد حام القبط والسودان والبربر. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج. وليس في شيء من هؤلاء خير. وقال ابن عباس: في ولد سام بياض وأدمة، وفي ولد حام سواد وبياض قليل. وفي ولد يافث ـ وهم الترك والصقالبة ـ الصفرة والحمرة. وكان له ولد رابع وهو كنعان الذي غرق، والعرب تسميه يام. وسمي نوح نوحاً لأنه ناح على قومه ألف سنة

إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناح عليهم. وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب التخبير له: يروى أن نوحاً عليه السلام كان ٱسمه يشكر ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه يا نوح كم تنوح. فسمي نوحاً؛ فقيل: يا رسول الله فأيّ شيء كانت خطيئته؟ فقال: «إنه مرّ بكلب فقال في نفسه ما أقبحه فأوحى الله إليه ٱخلق أنت أحسن من هذا. وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحاً لطول ما ناح على نفسه. فإن قيل: فلم قال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً. ففيه جوابان: أحدهما ـ أن المقصود به تكثير العدد، فكان ذكره الألف أكثر في اللفظ وأكثر في العدد. الثاني ـ ما روي أنه أعطي من العمر ألف سنة، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده، فلما حضرته الوفاة رجع في ٱستكمال الألف، فذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته. ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ قال ٱبن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: المطر. الضحاك: الغرق. وقيل: الموت. روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ. ومنه قول الشاعر:

أفناهم طوفانُ موتٍ جارف

قال النحاس: يقال لكل كثير مطيف بالجميع من مطر أو قتل أو موت طوفان. ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال و ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ منصوب على الظرف ﴿إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ منصوب على الاستثناء من الموجب. وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول؛ لأنه مستغنى عنه كالمفعول. فأما المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعول محض. كأنك قلت ٱستثنيت زيداً.

تنبيه ـ روى حسان بن غالب بن نجيح أبو القاسم المصري، حدثنا مالك بن أنس عن الزهريّ عن ٱبن المسيّب عن أبيّ بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «كان جبريل يذاكرني فضل عمر فقلت يا جبريل ما بلغ فضل عمر قال لي يا محمد لو لبثتُ معك ما لبث نوح في قومه ما بلغت لك فضل عمر» ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي. وقال: تفرد بروايته حسان بن غالب عن مالك وليس بثابت من حديثه.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ معطوف على الهاء. ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الهاء والألف في ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ للسفينة، أو للعقوبة، أو للنجاة؛ ثلاثة أقوال.

[١٦]﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِبرَاهِيمَ﴾ قال الكسائي: ﴿وَإِبرَاهِيمَ﴾ منصوب بـ ﴿فَأَنْجَيْنَا﴾ يعني أنه معطوف على الهاء. وأجاز الكسائي أن يكون معطوفاً على نوح، والمعنى وأرسلنا إبراهيم. وقول ثالث: أن يكون منصوباً بمعنى وأذكر إبراهيم. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي أفردوه بالعبادة. ﴿وَاَتَّقُوهُ﴾ أي أتقوا عقابه وعذابه. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي من عبادة الأوثان ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً﴾ أي أصناماً. قال أبو عبيدة: الصنم ما يتخذ من ذهب أو من فضة أو نحاس، والوثن ما يتخذ من جصّ أو حجارة. الجوهري: الوثن الصنم والجمع وُثنٌ وأَوْثانٌ مثل أُسد وآساد. ﴿وَتَخلُقُونَ إِفكاً﴾ قال الحسن: معنى ﴿تَخلُقُونَ﴾ تنحتون؛ فالمعنى إنما تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها. وقال مجاهد: الإفك الكذب والمعنى تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب. وقرأ أبو عبد الرحمن ﴿وَتَخَلَّقُونَ﴾. وقرىء ﴿تُخَلِّقُونَ﴾ بمعنى التكثير من خَلَق و ﴿تَخَلَّقُون﴾ من تَخَلَّق بمعنى تكَذّب وتخرّص. وقرىء ﴿أَفِكاً﴾ وفيه وجهان: أن يكون مصدراً نحو كذِب ولعِب والإفك مخففاً منه كالكذب واللعب. وأن يكون صفة على فَعل أي خلقاً أَفِكاً أي ذا إفك وباطل. و ﴿أَوْثَاناً﴾ نصب بـ ﴿تَعْبُدُونَ﴾ و ﴿ما﴾ كافة. ويجوز في غير القرآن رفع أوثانٍ على أن تجعل ﴿ما﴾ اسماً لأن؛ و ﴿تَعْبُدُونَ﴾ صلته، وحذفت الهاء لطول الاسم وجعل أوثان خبر إن. فأما ﴿وَتَخْلُقُون افْكاً﴾ فهو منصوب بالفعل لا غير. وكذا ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ

اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله فإياه فاسألوه وحده دون غيره. ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فقيل: هو من قول إبراهيم أي التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. قال أبو عبيد: لذكر الأمم كأنه قال أو لم ير الأمم كيف. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي ﴿تَرَوْا﴾ بالتاء خطاباً؛ لقوله: ﴿وإن تُكَذِّبُوا﴾. وقد قيل: ﴿وإن تُكَذِّبُوا﴾ خطاب لقريش ليس من قول إبراهيم. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني الخلق والبعث. وقيل: المعنى أو لم يروا كيف يبدىء الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبداً. وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولد ولداً. وكذلك سائر الحيوان. أي فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون.

[٢٠] ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

[٢١] ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١)﴾.

[٢٢] ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢)﴾.

[٢٣] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾.

[٢٤] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤)﴾.

[٢٥] ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي قل لهم يا محمد سيروا في الأرض ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿النَّشَاءَةَ﴾ بفتح الشين وهما لغتان مثل الرأفةِ والرآفةِ وشبهه. الجوهري: أنشأه الله خلقه، والاسم النشأة والنشاءة بالمدّ عن أبي عمرو بن العلاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي بعدله. ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي بفضله. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ترجعون وتردون. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ قال الفرّاء: معناه ولا من في السماء بمعجزين الله. وهو غامض في العربية؛ للضمير الذي لم يظهر في الثاني. وهو كقول حسان:

فمن يَهْجو رسولَ اللّهِ منكم ويَمدحُهُ ويَنصرُه سَواءُ

أراد ومَن يمدحه وينصره سواء؛ فأضمر مَن؛ وقاله عبد الرحمن بن زيد. ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ أي مَن له. والمعنى إن الله لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء إن عصوه. وقال قُطْرُب: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتني فلان بالبصرة ولا هاهنا، بمعنى لا يفوتني بالبصرة لو صار إليها. وقيل: لا يستطيعون هرباً في الأرض ولا في السماء. وقال المبرّد: والمعنى ولا مَن في السماء على أن مَن ليست موصولة ولكن تكون نكرة و ﴿فِي السماءِ﴾ صفة لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف. ورد ذلك عليّ بن سليمان. وقال: لا يجوز. وقال: إن مَن إذا كانت نكرة فلا بد من وصفها فصفتها كالصلة، ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة؛ قال: والمعنى إن الناس خوطبوا بما يعقلون؛ والمعنى لو كنتم في السماء ما أعجزتم الله؛ كما قال : ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ ويجوز ﴿نَصِيرٌ﴾ بالرفع على الموضع، وتكون ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ أي بالقرآن أو بما نصب من الأدلة والأعلام. ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ أي من الجنة ونسب اليأس إليهم والمعنى أويسوا. وهذه

الآيات اعتراض من الله تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ثم اتفقوا على تحريقه ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي من إذايتها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرقه بعد ما ألقي فيها ﴿لآيَاتٍ﴾.
وقراءة العامّة ﴿جَوَابَ﴾ بنصب الباء على أنه خبر كان و ﴿أَنْ قَالُوا﴾ في محل الرفع اسم كان. وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار ﴿جَوَابُ﴾ بالرفع على أنه اسم ﴿كان﴾ و ﴿أَنْ﴾ في موضع الخبر نصباً. ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقرأ حفص وحمزة ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾. وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ﴾. والأعشى عن أبي بكر عن عاصم وابن وثاب والأعمش ﴿مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ﴾. الباقون ﴿مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ﴾. فأما قراءة ابن كثير ففيها ثلاثة أوجه؛ ذكر الزجاج منها وجهين: أحدهما ـ أن المودة ارتفعت على خبر إنّ وتكون ﴿ما﴾ بمعنى الذي. والتقدير إن الذي اتخذتموه من دون الله أوثاناً مودّةُ بينِكم. والوجه الآخر أن يكون على إضمار مبتدأ أي هي مودّةُ أو تلك مودّةُ بينِكم. والمعنى آلهتكم أو جماعتكم مودّةُ بينِكم. قال ابن الأنباري: ﴿أَوْثَاناً﴾ وقف حسن لمن رفع المودّة بإضمار ذلك مودّة بينكم، ومن رفع المودّة على أنها خبر إنّ لم يقف. والوجه الثالث الذي لم يذكره أن يكون ﴿مَوَدَّةُ﴾ رفعاً بالابتداء و ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ خبره؛ فأما إضافة ﴿مَوَدَّةُ﴾ إلى ﴿بَيْنِكُمْ﴾ فإنه جعل ﴿بَيْنِكُمْ﴾ اسماً غير ظرف، والنحويون يقولون جعله مفعولاً على السعة. وحكى سيبويه: يا سارق الليلةِ أهل الدار. ولا يجوز أن يضاف إليه وهو ظرف؛ لعلةٍ ليس هذا موضع ذكرها. ومن رفع ﴿مَوَدَّةٌ﴾ ونوّنها فعلى معنى ما ذكر، و ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنصب ظرفاً. ومن نصب ﴿مَوَدَّةَ﴾ ولم ينوّنها جعلها مفعولة بوقوع الاتخاذ عليها وجعل ﴿إنما﴾ حرفاً واحداً ولم يجعلها بمعنى الذي. ويجوز نصب المودّة على أنه مفعول من أجله كما تقول: جئتك ابتغاء الخير، وقصدت فلاناً مودّة له ﴿بينِكم﴾ بالخفض. ومن نوّن ﴿مَوَدَّةً﴾ ونصبها فعلى ما ذكر ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنصب من غير إضافة، قال ابن الأنباري: ومن قرأ ﴿مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ﴾

و ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ لم يقف على الأوثان، ووقف على الحياة الدنيا. ومعنى الآية جعلتم الأوثان تتحابون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ تتبرأ الأوثان من عبّادها والرؤساء من السفلة كما قال الله عز وجل: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾. ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ هو خطاب لعبدة الأوثان الرؤساء منهم والأتباع. وقيل: تدخل فيه الأوثان كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

[٢٦] ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ لُوطٌ أوّل من صدّق إبراهيم حين رأى النار عليه برداً وسلاماً. قال ٱبن إسحاق آمن لوط بإبراهيم وكان ٱبن أخته، وآمنت به سارّة وكانت بنت عمه. ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ قال النخعي وقتادة: الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ هو إبراهيم عليه السلام. قال قتادة: هاجر من كوثا وهي قرية من سواد الكوفة إلى حرّان ثم إلى الشام، ومعه ٱبن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وٱمرأته سارة. قال الكلبي: هاجر من أرض حرّان إلى فلسطين. وهو أوّل من هاجر من أرض الكفر. قال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ٱبن خمس وسبعين سنة. وقيل: الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ لوط عليه السلام. ذكر البيهقي عن قتادة قال: أوّل من هاجر إلى الله عز وجل بأهله عثمان بن عفان رضي الله عنه. قال قتادة: سمعت النضر بن أنس يقول سمعت أبا حمزة يعني أنس بن مالك يقول: خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهم، فقدمت ٱمرأة من قريش فقالت: يا محمد رأيت خَتَنَك ومعه ٱمرأته. قال: «على أي حال رأيتهما» قالت: رأيته وقد حمل

آمرأته على حمار من هذه الدَّبَّابة[١] وهو يسوقها، فقال رسول الله ﷺ: «صحبهما الله إن عثمان لأوّل من هاجر بأهله بعد لوط» قال البيهقي: هذا في الهجرة الأولى، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مبعث رسول الله ﷺ. ﴿إِلَى رَبِّي﴾ أي إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم. وتقدم الكلام في الهجرة في ﴿النساء﴾[٢] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ أي منّ الله عليه بالأولاد فوهب له إسحاق ولداً ويعقوب ولد ولدٍ. وإنما وهب له إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من إسحاق. ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه. ووحد الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان]. فهو عبارة عن الجمع. فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده؛ والفرقان على محمد من ولده ﷺ وعليهم أجمعين. ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني آجتماع أهل الملل عليه؛ قاله عكرمة. وروى سفيان عن حميد بن قيس قال: أمر سعيد بن جبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قوله جل ثناؤه: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنيا﴾ فقال عكرمة: أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منا؛ فقال سعيد بن جبير: صدق. وقال قتادة: هو مثل قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي عاقبة وعملاً صالحاً وثناءً حسناً. وذلك أن أهل كل دين يتولونه. وقيل: ﴿آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أن أكثر الأنبياء من ولده. ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ليس ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ داخلاً في الصلة وإنما هو تبيين. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[٣] بيانه. وكل هذا حثٌّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحق.

[٢٨] ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) أي الضعاف التي تدب في المشي ولا تسرع.

(٢) راجع ٥/٣٤٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ٢/١٣٣ طبعة ثانية.

[٣٠] ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

[٣٣] ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ قال الكسائي: المعنى وأنجينا لوطاً أو أرسلنا لوطاً. قال: وهذا الوجه أحب إليّ. ويجوز أن يكون المعنى وٱذكر لوطاً إذ قال لقومه موبخاً أو محذراً ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ تقدم القراءة في هذا وبيانها في سورة ﴿الأعراف﴾[1]. وتقدم قصة لوط وقومه في ﴿الأعراف﴾ و ﴿هود﴾[2] أيضاً. ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ قيل: كانوا قطاع الطريق؛ قاله ٱبن زيد. وقيل: كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة؛ حكاه ٱبن شجرة. وقيل: إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال. قاله وهب بن منبه. أي ٱستغنوا بالرجال عن النساء.

قلت: ولعل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك. ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ النادي المجلس وٱختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه؛ فقالت فرقة: كانوا يخذفون النساء بالحصى، ويستخفّون بالغريب والخاطر عليهم. وروته أم هانىء عن النبيّ ﷺ. قالت أم هانىء: سألت رسول الله ﷺ

(١) راجع ٧/ ٢٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ٩/ ٧٩ طبعة أولى أو ثانية.

عن قول الله عز وجل: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال «كانوا يخذفون من يمر بهم ويسخرون منه فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه» أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، وذكره النحاس والثعلبي والمهدوي والماوردي. وذكر الثعلبي قال معاوية قال النبيّ ﷺ: «إن قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى للخذف فإذا مر بهم عابر قذفوه فأيهم أصابه كان أولى به» يعني يذهب به للفاحشة فذلك قوله: ﴿وتأتون فِي نادِيكم المنكر﴾. وقالت عائشة وآبن عباس والقاسم بن أبي بَزَّة[1] والقاسم بن محمد: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم. وقال [منصور[2] عن] مجاهد كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً. وعن مجاهد: كان من أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والخذف ونبذ الحياء في جميع أمورهم. قال آبن عطية: وقد توجد هذه الأمور في بعض عصاة أمة محمد ﷺ؛ فالتناهي واجب. قال مكحول: في هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريف الأصابع بالحنّاء، وحل الإزار، وتنقيض[3] الأصابع، والعمامة التي تلف حول الرأس، والتشابك، ورمي الجُلاَهِق[4]، والصفير، والخذف، واللوطية. وعن آبن عباس قال: إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتم بعضهم بعضاً ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون ويلعبون بالنَّرْد والشِّطْرَنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالديكة، ويتناطحون بالكباش، ويُطرِّفون أصابعهم بالحنّاء، وتتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال ، ويضربون المكوس على كل عابر، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله ، وهم أوّل من ظهر على أيديهم اللوطية والسّحاق. فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج ؛ فقالوا : ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ أي إن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه . وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصمّمون على آعتقاد كذبه . وليس يصح في الفطرة أن يكون معاند يقول هذا . ثم آستنصر

---

(١) بفتح الموحدة وتشديد الزاي كما في التقريب. (٢) في كل النسخ: مجاهد ومنصور. والتصويب عن «تفسير الطبري» وغيره. (٣) تنقيض الأصابع فرقعتها.

(٤) الجلاهق كعلابط البندق الذي يرمى به. والخذف بالخاء المعجمة الحذف به.

لوط عليه السلام ربه فبعث عليهم ملائكة لعذابهم، فجاءوا إبراهيم أوّلاً مبشرين بنصرة لوط على قومه حسبما تقدّم بيانه في ﴿هود﴾ وغيرها. وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائي ﴿لَنُنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ بالتخفيف. وشدّد الباقون. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وأَهْلَكَ﴾ بالتخفيف. وشدّد الباقون. وهما لغتان: أَنْجَى ونَجَّى بمعنى. وقد تقدّم. وقرأ ابن عامر ﴿إِنَّا مُنَزِّلُونَ﴾ بالتشديد وهي قراءة ابن عباس. الباقون بالتخفيف. وقوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال قتادة: هي الحجارة التي أبقيت. وقاله أبو العالية. وقيل: إنه يرجم بها قوم من هذه الأمة. وقال ابن عباس: هي آثار منازلهم الخربة. وقال مجاهد: هو الماء الأسود على وجه الأرض. وكل ذلك باق فلا تعارض.

[٣٦] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ أي وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدّم ذكرهم وفسادهم في ﴿الأعراف﴾[1] و ﴿هود﴾. ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ وقال يونس النحوي: أي اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال. ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تكفروا فإنه أصل كل فساد. والعُثُوُّ والعِثِيّ أشد الفساد. عَثِيَ يَعْثَى وَعَثَا يَعْثُو بمعنى واحد. وقد تقدّم. وقيل: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ أي صدّقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه.

[٣٨] ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ﴾ قال الكسائي: قال بعضهم هو راجع إلى أوّل السورة؛ أي ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عاداً وثمود. قال: وأحبّ إليّ أن يكون معطوفاً على

---

(١) راجع ٧/٢٤٧ وما بعدها و ٩/٨٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وأخذت عاداً وثموداً. وزعم الزجاج: أن التقدير وأهلكنا عاداً وثموداً. وقيل: المعنى: واذكر عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذبوه فأهلكناهم، وثموداً أيضاً أرسلنا إليهم صالحاً فكذّبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عاداً بالريح العقيم. ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ يا معشر الكفار ﴿مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ بالحُجْر والأحقاف آياتٌ في إهلاكهم فحذف فاعل التبيّن. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي عن طريق الحق. ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فيه قولان: **أحدهما** ـ وكانوا مستبصرين في الضلالة؛ قاله مجاهد. **والثاني** ـ كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين. وهذا القول أشبه؛ لأنّه إنما يقال فلان مستبصر إذا عرف الشيء على الحقيقة. قال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل: أتوا ما أتوا وقد تبيّن لهم أن عاقبتهم العذاب.

[٣٩] ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ قال الكسائي: إن شئت كان محمولاً على عاد، وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ وصدّ قارون وفرعون وهامان. وقيل: أي وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ﴾ عن الحق وعن عبادة الله. ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي فائتين. وقيل: سابقين في الكفر بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم. ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ قال الكسائي: ﴿فَكُلاًّ﴾ منصوب بـ ﴿أَخَذْنَا﴾ أي أخذنا كلاً بذنبه. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾ يعني قوم لوط. والحاصب ريح يأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار. وتستعمل في كل عذاب

﴿وَمِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني ثموداً وأهل مدين. ﴿وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ قوم نوح وقوم فرعون. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر.

[٤١] ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٤١)﴾.

[٤٢] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٤٢)﴾.

[٤٣] ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ (٤٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ قال الأخفش: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ وقف تام، ثم قصّ قصّتها فقال: ﴿اتَّخذت بَيْتاً﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأن ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾ صلة للعنكبوت، كأنه قال: كمثل التي اتخذت بيتاً، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول، وهو بمنزلة قوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل. قال الفراء: هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضرّه؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً. ولا يحسن الوقف على العنكبوت؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء، فشبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به. ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ أي أضعف البيوت ﴿لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾. قال الضحاك: ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿لَوْ﴾ متعلقة ببيت العنكبوت. أي لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً، وأن هذا مثلهم لَمَا عبدوها؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف. وقال النحاة: إن تاء العنكبوت في آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع وهي مؤنثة. وحكى الفراء تذكيرها وأنشد:

على هَطَّالِهِمْ منهمْ بُيوتٌ كأنّ العنكبوتَ قدِ ابتناها

ويروى:

علـــى أهطـــالهـــم منهـــمْ بيـــوتٌ

قال الجوهري والهطال: ٱسم جبل. والعنكبوت الدويّبة المعروفة التي تنسج نسجاً رقيقاً مهلهلاً بين الهواء. ويجمع عناكِيب وَعَنَاكِب وعِكَاب وعُكُب وأَعْكُب. وقد حكي أنه يقال عَنكَب وعَكَنْبَاة[1]؛ قال الشاعر:

كـأَنَّمـا يَسقـطُ مـن لُغَـامِهـا بيـتُ عَكَنْبَـاةٍ علـى زِمَـامِهَـا

وتُصغَّر فيقال عُنَيْكِب. وقد حكى عن يزيد بن مَيْسرة أن العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى. وقال عطاء الخراساني: نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرة على النبي ﷺ؛ ولذلك نهي عن قتلها. ويروى عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: طهّروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر، ومنع الخمير يورث الفقر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿ما﴾ بمعنى الذي، و ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، ولو كانت زائدة للتوكيد ٱنقلب المعنى؛ والمعنى: إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه. وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب: ﴿يدعون﴾ بالياء وهو ٱختيار أبي عبيد؛ لذكر الأمم قبلها. الباقون بالتاء على الخطاب.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا﴾ أي هذا المثل وغيره مما ذكر في ﴿البقرة﴾ و ﴿الحج﴾ وغيرهما ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نبيّنها ﴿لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ أي يفهمها ﴿إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ أي العالمون بالله؛ كما روى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته وٱجتنب سخطه».

[٤٤] ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل والقسط. وقيل: بكلامه وقدرته وذلك هو الحق. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي علامة ودلالة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدّقين.

---

(١) ويقال أيضاً: عنكباة بتقديم النون على الكاف.

[٤٥] ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ﴾ أمر من التلاوة والدُّءوب عليها. وقد مضى في ﴿طه﴾[1] الوعيد فيمن أعرض عنها، وفي مقدمة الكتاب[2] الأمر بالحض عليها والكتاب يراد به القرآن.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وأمته. وإقامة الصلاة أداؤها في وقتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع شروطها. وقد تقدم بيان ذلك في ﴿البقرة﴾[3] فلا معنى للإعادة.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يريد إن الصلاة الخمس هي التي تكفّر ما بينها من الذنوب؛ كما قال عليه السلام: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنه شيء» قالوا: لا يبقى من دَرَنه شيء؛ قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا» خرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال فيه حديث حسن صحيح. وقال ابن عمر: الصلاة هنا القرآن. والمعنى: الذي يتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصي.

قلت: ومنه الحديث الصحيح: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» يريد قراءة الفاتحة. وقال حماد بن أبي سليمان وابن جُرَيج والكلبي: العبد ما دام في صلاته لا يأتي فحشاء ولا منكراً؛ أي إن الصلاة تنهى ما دمت فيها. قال ابن عطية: وهذه عجمة وأين هذا مما رواه أنس بن مالك قال: كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي ﷺ ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركبه، فَذُكِرَ للنبي ﷺ فقال: «إن الصلاة ستنهاه»

(١) راجع ١١/٢٥٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ١/١٦٢ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة. (٣) راجع ١/١٦٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله. فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقل لكم». وفي الآية تأويل ثالث، وهو الذي ٱرتضاه المحققون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون؛ فقيل المراد بـ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ إدامتها والقيام بحدودها، ثم أخبر حكماً منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة. والصلاة تشغل كل بدن المصلي، فإذا دخل المصلي في محرابه وخشع وأخبت لربه وٱدكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذللت، وخامرها ٱرتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة. فهذا معنى هذه الأخبار؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون.

قلت: لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله، وهذا أبلغ في المقصود وأتم في المراد؛ فإن الموت ليس له سنّ محدود، ولا زمن مخصوص، ولا مرض معلوم، وهذا مما لا خلاف فيه. وروي عن بعض السلف أنّه كان إذا قام إلى الصلاة ٱرتعد وٱصفر لونه، فكُلِّم في ذلك فقال: إني واقف بين يدي الله تعالى، وحقّ لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك. فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل، كصلاتنا ـ وليتها تجزي ـ فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تعالى تركته الصلاة يتمادى على بعده. وعلى هذا يخرّج الحديث المرويّ عن ٱبن مسعود وٱبن عباس والحسن والأعمش قولهم: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً» وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي ﷺ وذلك غير صحيح السند. قال ٱبن عطية سمعت أبي رضي الله عنه يقول: فإذا قررناه ونُظِر معناه فغير جائز أن يقول إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله حتى كأنها معصية، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله، بل تتركه على حاله ومعاصيه، من الفحشاء والمنكر والبعد، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذي كان سبيله، فكأنها بعّدته حين لم تكفّ بُعدَه عن الله. وقيل لابن مسعود: إن فلاناً كثير الصلاة. فقال: إنها لا تنفع إلا من أطاعها.

قلت: وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث: «لم تزده من الله إلا بعداً ولم يزدد بها من الله إلا مقتاً» إشارة إلى أن مرتكب الفحشاء والمنكر لا قدر لصلاته؛ لغلبة المعاصي على صاحبها. وقيل: هو خبر بمعنى الأمر. أي لينته المصلي عن الفحشاء والمنكر. والصلاة بنفسها لا تنهى، ولكنها سبب الانتهاء. وهو كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم. قال معناه ٱبن مسعود وٱبن عباس وأبو الدرداء وأبو قُرّة وسلمان والحسن؛ وهو ٱختيار الطبري. وروي مرفوعاً من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ٱبن عمر أن النبيّ ﷺ قال في قول الله عز وجل ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: «ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه». وقيل: ذكركم اللَّهَ في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضل من كل شيء. وقيل: المعنى؛ إن ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر. وقال الضحاك: ولذكر الله عندما يَحرم فيترك أجلّ الذكر. وقيل: المعنى ولذكر الله للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر أي كبير، وأكبر يكون بمعنى كبير. وقال ٱبن زيد وقتادة: ولذكر الله أكبر من كل شيء أي أفضل من العبادات كلها بغير ذكر. وقيل: ذكر الله يمنع من المعصية فإن من كان ذاكراً له لا يخالفه. قال ٱبن عطية: وعندي أن المعنى ولذكر الله أكبر على الإطلاق، أي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرِ اللَّهَ مراقبٍ له. وثواب ذلك أن يذكره الله تعالى؛ كما في الحديث «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم» والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهيٍ، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرّغه إلا من الله. وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى. وذكر الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربَّه. قال الله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾. وباقي الآية ضرب من الوعيد والحثّ على المراقبة.

[٤٦] ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

[٤٧] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - ٱختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فقال مجاهد: هي محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة. وقوله على هذا ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ معناه ظلموكم، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق. وقيل: المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمدﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلاَم ومن آمن معه. ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالموافقة فيما حدّثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك. وقوله على هذا التأويل ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يريد به من بقي على كفره منهم، كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم. والآية على هذا أيضاً محكمة. وقيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. قال قتادة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي جعلوا لله ولداً، وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ و ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ فهؤلاء المشركون [الذين نصبوا الحرب ولم يؤدوا][1] الجزية فٱنتصروا [منهم]. قال النحاس وغيره: من قال هي منسوخة ٱحتج بأن الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. وقول مجاهد حسن؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر، أو حجة من معقول. وٱختار هذا القول ٱبن العربي.

---

(١) عبارة الأصل هنا: «فهؤلاء المشركون في سقوط الجزية... الخ» والتصويب مستفاد من كتب التفسير.

قال مجاهد وسعيد بن جبير: وقوله ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ﴾ معناه إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ روى البخاريّ عن أبي هريرة: قال كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية، لأهل الإسلام؛ فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم» ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾. وروى عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا إما أن تكذّبوا بحق وإما أن تصدّقوا بباطل». وفي «البخاريّ»: عن حُمَيد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدّث رهطاً من قريش بالمدينة، وذَكَر كعبَ الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يحدّثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لَنَبْلُو عليه الكذب.

[٤٨] ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ الضمير في ﴿قبلِهِ﴾ عائد إلى الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ؛ أي وما كنت يا محمد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك، فلو كنت ممن يقرأ كتاباً، ويخط حروفاً ﴿لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلّق، وقالوا الذي نجده في كتبنا أنه أميّ لا يكتب ولا يقرأ وليس به. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية؛ قال النحاس: دليلاً على نبوته لقريش؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة والشك.

الثانية ـ ذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال: ما مات النبي ﷺ حتى كتب. وأسند أيضاً حديث أبي كَبْشة السَّلُولي؛ مضمنه: أنه ﷺ قرأ صحيفة لعيينة بن حِصن، وأخبر بمعناها. قال ٱبن عطية: وهذا كله ضعيف، وقول الباجي رحمه الله منه.

قلت: وقع في «صحيح مسلم» من حديث البَرَاء في صلح الحُدَيبية أن النبي ﷺ قال لعليّ: «ٱكتب الشرط بيننا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسول الله تابعناك ـ وفي رواية بايعناك ـ ولكن ٱكتب محمد بن عبد الله فأمر علياً أن يمحوها، فقال علي: والله لا أمحاه[1]. فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانها» فأراه فمحاها وكتب ٱبن عبد الله. قال علماؤنا رضي الله عنهم: وظاهر هذا أنه عليه السلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله ـ ﷺ ـ بيده، وكتب مكانها ٱبن عبد الله. وقد رواه البخاري بأظهر من هذا. فقال: فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب. وزاد في طريق أخرى: ولا يحسن أن يكتب. فقال جماعة: بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده، منهم السمناني وأبو ذرّ[2] والباجي، ورأوا أن ذلك غير قادح في كونه أمياً، ولا معارَض بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ ولا بقوله: «إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب» بل رأوه زيادة في معجزاته، وٱستظهاراً على صدقه وصحة رسالته، وذلك أنه كتب من غير تعلم لكتابة، ولا تعاطٍ لأسبابها، وإنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها ٱبن عبد الله لمن قرأها، فكان ذلك خارقاً للعادة؛ كما أنه عليه السلام علم عِلم الأوّلين والآخرين من غير تعلم ولا ٱكتساب، فكان ذلك أبلغ في معجزاته، وأعظم في فضائله. ولا يزول عنه ٱسم الأميّ بذلك؛ ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة: ولا يُحسِن أن يكتب. فبقي عليه ٱسم الأميّ مع كونه قال كتب. قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وقد أنكر هذا كثير من

(١) محا الشيء يمحوه ويمحاه محواً ومحيا أذهب أثره.

(٢) السمناني هو أبو عمرو الفلسطيني. وأبو ذر هو عبد الله بن أحمد الهروي، والباجي هو أبو الوليد.

متفقهة الأندلس وغيرهم، وشدّدوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية، وعدم التوقف في تكفير المسلمين، ولم يتفطنوا؛ لأن تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه السلام في الصحيح، لا سيما رميُ من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة؛ على أن المسألة ليست قطعية، بل مستندها ظواهر أخبار أحادٍ صحيحة، غير أن العقل لا يحيلها. وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها.

قلت: وقال بعض المتأخرين من قال هي آية خارقة، فيقال له: كانت تكون آية لا تنكِر لولا أنها مناقضة لآية أخرى وهي كونه أمياً لا يكتب؛ وبكونه أمياً في أمّة أميّة قامت الحجة، وأُفحِم الجاحدون، وانحسمت الشبهة، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية. وإنما الآية ألا يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً. وإنما معنى كتب وأخذ القلم؛ أي أمر من يكتب به من كُتّابه، وكان من كتبة الوحي بين يديه ﷺ ستة وعشرون كاتباً.

الثالثة ـ ذكر القاضي عِياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ فقال له: «أَلِق الدواةَ وحرّف القلمَ وأقم الباء وفرّق السين ولا تُعور الميم وحسّن الله ومدّ الرحمن وجوّد الرحيم» قال القاضي: وهذا وإن لم تصح الرواية أنه ﷺ كتب فلا يبعد أن يُرزَق علم هذا، ويُمنَع القراءة والكتابة.

قلت: هذا هو الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً، وإنما أمر من يكتب، وكذلك ما قرأ ولا تهجى. فإن قيل: فقد تهجى النبي ﷺ حين ذكر الدّجّال فقال: «مكتوب بين عينيه ك ا ف ر» وقلتم إن المعجزة قائمة في كونه أمياً؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾ الآية وقال: «إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب» فكيف هذا؟ فالجواب ما نصّ عليه ﷺ في حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضاً. ففي حديث حذيفة «يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب» فقد نص في ذلك على غير الكاتب ممن يكون أمياً. وهذا من أوضح ما يكون جلياً.

[٤٩] ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بيّناتٌ﴾ يعني القرآن. قال الحسن: وزعم الفراء في قراءة عبد الله ﴿بَلْ هِيَ آياتٌ بيّناتٌ﴾ المعنى بل آيات القرآن آيات بينات. قال الحسن: ومثله ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ ولو كانت هذه لجاز، نظيره ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ قال الحسن: أعطيت هذه الأمة الحفظ، وكان من قبلها لا يقرؤون كتابهم إلا نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا النبيون. فقال كعب في صفة هذه الأمة: إنهم حكماء علماء وهم في الفقه أنبياء. ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ أي ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه. وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمد ﷺ والمؤمنون به، يحفظونه ويقرؤونه. ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين. وقال قتادة وٱبن عباس: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني محمداً ﷺ: ﴿آيَاتٌ بيّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أمياً لا يقرأ؛ ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا. وهذا ٱختيار الطبريّ. ودليل هذا القول قراءة ٱبن مسعود وٱبن السَّمَيْقَع ﴿بَلْ هَذَا آياتٌ بيّناتٌ﴾ وكان عليه السلام آيات لا آية واحدة؛ لأنه دل على أشياء كثيرة من أمر الدين؛ فلهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بيّناتٌ﴾. وقيل: بل هو ذو آيات بينات، فحذف المضاف. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ أي الكفار؛ لأنهم جحدوا نبوته وما جاء به.

[٥٠] ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

[٥١] ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

[٥٢] ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله ﷺ، ومعناه هلا أنزل عليه آية كآيات الأنبياء. قيل: كما جاء صالح بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى؛ أي ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فهو يأتي بها كما يريد، إذا شاء أرسلها وليست عندي ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي ﴿آيَةٌ﴾ بالتوحيد. وجمع الباقون. وهو اختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحر ونحن لا نعرف السحر؛ والكلام مقدور لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة. وقيل: إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: أتى النبي ﷺ بكتف فيه كتاب فقال: «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم» فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أخرجه أبو محمد الدارميّ في مسنده. وذكره أهل التفسير في كتبهم. وفي مثل هذا قال ﷺ لعمر رضي الله عنه: «لو كان موسى بن عمران حيا لما وسعه إلا اتباعي» وفي مثله قال ﷺ: «ليس منّا من لم يَتغنَّ بالقرآن» أي يستغني به عن غيره. وهذا تأويل البخاري رحمه الله في الآية. وإذا كان لقاء ربه بكل حرف عشر حسنات فأكثر على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب فالرغبة عنه إلى غيره ضلال وخسران وغبن ونقصان. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ في الدنيا والآخرة. وقيل: رحمة في الدنيا باستنقاذهم من الضلالة. ﴿وَذِكْرَى﴾ في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ أي قل للمكذبين لك كفى بالله شهيداً يشهد لي بالصدق فيما أدّعِيه من أني رسوله، وأن هذا القرآن كتابه. ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي لا يخفى عليه شيء. وهذا احتجاج عليهم في صحة شهادته عليهم؛ لأنهم قد

أقرّوا بعلمه فلزمهم أن يقرّوا بشهادته. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ قال يحيى بن سلام: بإبليس. وقيل: بعبادة الأوثان والأصنام؛ قاله ٱبن شجرة. ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ أي لتكذيبهم برسله، وجحدهم لكتابه. وقيل: بما أشركوا به من الأوثان، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة.

[٥٣] ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

[٥٤] ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

[٥٥] ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ لمّا أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار: عجل لنا هذا العذاب. وقيل: إن قائل ذلك النّضر بن الحرث وأبو جهل حين قالا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ في نزول العذاب. قال ٱبن عباس: يعني هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة. بيانه ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾. وقال الضحاك: هو مدة أعمارهم في الدنيا. وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى؛ قاله يحيى بن سلاّم. وقيل: الوقت الذي قدره الله لهلاكهم وعذابهم؛ قاله ٱبن شجرة. وقيل: هو القتل يوم بدر. وعلى الجملة فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر. دليله قوله: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾. ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني الذي ٱستعجلوه. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يعلمون بنزوله عليهم. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ﴾ أي يستعجلونك وقد أعد لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ قيل: هو متصل بما هو قبله؛ أي يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم. وإنما قال: ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ للمقاربة وإلا فالغشيان من فوق أعم؛ كما قال الشاعر:

عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً بارِداً[1]

وقال آخر:

لقد كان قوّادَ الجيادِ إلى العِدَا عليهنّ غابٌ من قَنًى ودروع

﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة ﴿نَقُولُ﴾ بالنون. الباقون بالياء. واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ﴾ ويحتمل أن يكون الملَك الموكَّل بهم يقول: ﴿ذُوقُوا﴾ والقراءتان ترجع إلى معنى. أي يقول الملَك بأمرنا ذوقوا.

[٥٦] ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

[٥٧] ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

[٥٨] ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

[٥٩] ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

[٦٠] ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ـ في قول مقاتل والكلبي ـ فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب. بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده؛ أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها. وقال ابن جبير وعطاء: إن الأرض التي فيها الظلم

(١) تمام البيت:

حتى شتت همالة عيناها

والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق. وقاله مالك. وقال مجاهد: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ فهاجروا وجاهدوا. وقال مُطرِّف بن الشِّخِّير: المعنى إن رحمتي واسعة. وعنه أيضاً: إن رزقي لكم واسع فأبتغوه في الأرض. قال سفيان الثوري: إذا كنت بأرض غالية فأنتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزاً بدرهم. وقيل: المعنى: إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة. ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ حتى أورثكموها. ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿إِيَّايَ﴾ منصوب بفعل مضمر، أي فاعبدوا إياي فأعبدون، فأستغنى بأحد الفعلين عن الثاني، والفاء في قوله: ﴿فَإِيَّايَ﴾ بمعنى الشرط؛ أي إن ضاق بكم موضع فإياي فأعبدوني [في غيره][1] لأن أرضي واسعة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تقدّم في ﴿آل عمران﴾[2]. وإنما ذكره هاهنا تحقيراً لأمر الدنيا ومخاوفها. كأنّ بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقر الله شأن الدنيا. أي أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا، فالبدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل. ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى؛ وذكر الجزاء الذي ينالونه، ثم نعتهم بقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وقرأ أبو عمر ويعقوب والجحدري وأبن أبي إسحاق وأبن محيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف ﴿يَا عِبَادِيْ﴾ بإسكان الياء. وفتحها الباقون. ﴿إِنَّ أَرْضِيَ﴾ فتحها أبن عامر. وسكنها الباقون. وروي أن رسول الله ﷺ قال: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ولو قيد شبر أستوجب الجنة وكان رفيق محمد وإبراهيم» عليهما السلام. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. وقرأ السُّلَميّ وأبو بكر عن عاصم ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالياء؛ لقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وقرأ الباقون بالتاء؛ لقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأنشد بعضهم:

الموتُ في كلِّ حينٍ يَنشدُ الكَفنَا ... ونحن في غفلةٍ عمَّا يُرادُ بِنَا
لا تَركننَّ إلى الدنيا وزَهرتِها ... وإن تَوشَّحتَ من أثوابها الحسَنَا

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) راجع ٤/٢٩٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فَعَلُوا أينَ الذين هُمُو كانوا لها سَكَنَا
سقاهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ صيرهم تحت أطباقِ الثَّرَى رُهُنَا

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي ﴿لَنُثْوِيَنَّهُمْ﴾ بالثاء مكان الباء من الثوى وهو الإقامة؛ أي لنعطينهم غرفاً يثوون فيها. وقرأ رويس عن يعقوب والجحدري والسلمي ﴿لَيُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ بالياء مكان النون. الباقون ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أي لننزلنهم. ﴿غُرَفاً﴾ جمع غرفة وهي العِلِّيَّة المشرِفة. وفي «صحيح مسلم» عن سهل[١] بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءونَ الكوكبَ الدريّ الغابرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين» وخرج الترمذي عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظهورُها من بطونها وبطونها من ظهورها» فقام إليه أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «هي لمن أطاب الكلامَ وأطعم الطعامَ وأدام الصيامَ وصلى لله بالليل والناس نيام» وقد زدنا هذا المعنى بياناً في كتاب «التذكرة» والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أسند الواحدي عن يزيد بن هارون، قال: حدّثنا حجاج بن المِنْهال عن الزهري ـ وهو عبد الرحمن بن عطاء ـ عن عطاء عن ابن عمر قال خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلقط من الثمر [ويأكل][٢] فقال: «يا بن عمر مالك لا تأكل» فقلت لا أشتهيه يا رسول الله فقال: «لكني أشتهيه وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاماً ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا بن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سَنَتِهم ويضعف اليقين» قال: والله ما برحنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

---

(١) هذه رواية أبي سعيد الخدري؛ كما في «صحيح مسلم».
(٢) الزيادة من كتاب «أسباب النزول» للواحدي.

قلت: وهذا ضعيف يُضعِفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سَنَتِهم، اتفق البخاري عليه ومسلم. وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة، وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين. وقد روى ابن عباس أن النبي ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون «اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة» قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا. فنزلت: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ليس معها رزقها مدّخراً، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة. وهذا أشبه من القول الأوّل. وتقدّم الكلام في ﴿كَأَيِّنْ﴾ وأن هذه ﴿أيّ﴾ دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم. والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد. أي كشيء كثير من العدد من دابة. قال مجاهد: يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً. الحسن: تأكل لوقتها ولا تدخر لغد. وقيل: ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي لا تقدر على رزقها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أينما توجهت ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾. وقيل: الحمل بمعنى الحمالة. وحكى النقاش: أن المراد النبي ﷺ يأكل ولا يدخر.

قلت: وليس بشيء؛ لإطلاق لفظ الدابة، وليس مستعملاً في العرف إطلاقها على الآدمي فكيف على النبي ﷺ. وقد مضى هذا في ﴿النمل﴾ عند قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ قال ابن عباس: الدوابّ هو كل ما دبّ من الحيوان، فكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلا ابن آدم والنمل والفأر. وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر في مِحْضَنه. ويقال للعقعق مخابىء إلا أنه ينساها. ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ يسوّي بين الحريص والمتوكل في رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين الحَيُول والعاجز حتى لا يغتر الجلِد أنه مرزوق بجلَده، ولا يتصوّر العاجز أنه ممنوع بعجزه. وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ: «لو أنكم تَوكَّلون على الله حق تَوكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً». ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعائكم وقولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم.

[٦١] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

[٦٢] ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ الآية. لما عير المشركون المسلمين بالفقر وقالوا لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء، وكان هذا تمويهاً، وكان في الكفار فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة. وكذا قول من قال إن هاجرنا لم نجد ما ننفق. أي فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء، فكيف تَشكُّون في الرزق، فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد، ولهذا وصله بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾. ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي. ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر، فكل شيء بقضاء وقدر. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أحوالكم وأموركم. وقيل: عليم بما يصلحكم من إقتار أو توسيع.

[٦٣] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

[٦٤] ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي من السحاب مطراً. ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي جدبها وقحط أهلها. ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي فإذا أقررتم بذلك فلِم تشركون به وتنكرون الإعادة. وإذا قَدَر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين؛ فكرر تأكيداً. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

أي لا يتدبرون هذه الحجج. وقيل: ﴿الحمد لِلَّهِ﴾ على إقرارهم بذلك. وقيل: على إنزال الماء وإحياء الأرض. ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي شيء يُلْهَى به ويُلعبَ. أي ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول؛ كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات، قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها. وأنشد:

تَروحُ لنا الدنيا بغير الذي غَدَتْ ... وتَحدثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ
وَتَجْرِي الليالي باجتماعٍ وفُرقةٍ ... وتَطلُعُ فيها أنجمٌ وتَغورُ
فمن ظنّ أنّ الدهرَ باقٍ سرورُهُ ... فذاكَ محالٌ لا يَدُومُ سرورُ
عَفَا اللَّهُ عَمَّن صَيَّر الهمَّ واحداً ... وأيقن أن الدائراتِ تَدورُ

قلت: وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش، والقوّة على الطاعات. وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى كما قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ أي ما أبتغي به ثوابه ورضاه. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها. وزعم أبو عبيدة: أن الحيوان والحياة والحيّ بكسر الحاء واحد. كما قال[1]:

وقد ترى إذ الحياةُ حِيُّ

وغيره يقول: إن الحِيّ جمع على فعول مثل عصيّ. والحيوان يقع على كل شيء حيّ. وحيوان عينٌ في الجنة. وقيل: أصل حَيَوان حَيَيَان فأبدلت إحداهما واواً؛ لاجتماع المثلين. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنها كذلك.

[٦٥] ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

[٦٦] ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

---

(١) البيت للعجاج وتمامه:

وإذ زمان الناس دغفلي

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي صادقين في نياتهم، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي يدعون معه غيره، وما لم ينزل به سلطاناً. وقيل: إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاّح لغرقنا، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله وبين خلقه.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قيل: هما لام كي أي لكي يكفروا ولكي يتمتعوا. وقيل: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله ويتمتعوا بالدنيا. وقيل: هما لام أمر معناه التهديد والوعيد. أي أكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا. ودليل هذا قراءة أبيٍّ ﴿وَتَمَتَّعُوا﴾. ابن الأنباري: ويقوِّي هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ بجزم اللام. النحاس: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ لام كي، ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد. ومن قرأ ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ بإسكان اللام لم يجعلها لام كي؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها. وهي قراءة ابن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم. الباقون بكسر اللام. وقرأ أبو العالية ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد.

[٦٧] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

[٦٨] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هي مكة وهم قريش أمَّنهم الله تعالى فيها. ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قال الضحاك: يقتل بعضهم بعضاً ويَسبي بعضهم بعضاً. والخطف الأخذ بسرعة. وقد مضى في ﴿القصص﴾

وغيرها. فأذكرهم الله عزّ وجلّ هذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة. أي جعلتُ لهم حرماً آمناً أمنوا فيه من السّبي والغارة والقتل، وخلّصتهم في البر كما خلّصتهم في البحر، فصاروا يشركون في البر ولا يشركون في البحر. فهذا تعجب من تناقض أحوالهم. ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: أفبالشرك. وقال يحيى بن سلاّم: أفبإبليس. ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ قال ٱبن عباس: أفبعافية الله. وقال ٱبن شجرة: أفبعطاء الله وإحسانه. وقال ٱبن سلاّم: أفبما جاء به النبي ﷺ من الهدى. وحكى النقاش: أفبإطعامهم من جوع، وأمنهم من خوف يكفرون. وهذا تعجب وإنكار خرج مخرج الاستفهام.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ أي لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكاً وولداً، وإذا فعل فاحشة قال: ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ قال يحيى بن سلاّم: بالقرآن. وقال السديّ بالتوحيد. وقال ٱبن شجرة: بمحمد ﷺ. وكل قول يتناول القولين. ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي مستقر. وهو ٱستفهام تقرير.

[٦٩] ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي جاهدوا الكفار فينا. أي في طلب مرضاتنا. وقال السديّ وغيره: إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال. قال ٱبن عطية: فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته. قال الحسن بن أبي الحسن: الآية في العبّاد. وقال ٱبن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون. وقد قال ﷺ: «من عمِل بما علِم علّمه الله ما لم يعلم» ونزع بعض العلماء إلى قوله ﴿ وَٱتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾. وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا؛ قال الله تعالى: ﴿وٱتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية

قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين؛ وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر. وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد ٱختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾. وقال الضحاك: معنى الآية؛ والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان. ثم قال: مثل السُّنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى، من دخل الجنة في العقبى سلم، كذلك من لزم السُّنة في الدنيا سلم. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال. ونحوه قول عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة من طلبني فلم يجدني فليطلبني في موضعين: أن يعمل بأحسن ما يعلمه، ويجتنب أسوأ ما يعلمه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديم وتأخير أي الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي طريق الجنة؛ قاله السدي. النقاش: يوفقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى لنخلصنّ نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لام تأكيد ودخلت في ﴿مع﴾ على أحد وجهين: أن يكون ٱسماً ولام التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفاً فتدخل عليها؛ لأن فيها معنى الاستقرار؛ كما تقول إن زيداً لفي الدار. و «مع» إذا سكنت فهي حرف لا غير. وإذا فتحت جاز أن تكون ٱسماً، وأن تكون حرفاً. والأكثر أن تكون حرفاً جاء لمعنى. وتقدّم معنى الإحسان والمحسنين في ﴿البقرة﴾ وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيتين بونٌ.

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده

تم بعون الله تعالى الجزء الثالث عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع عشر

وأوّله سورة ﴿الروم﴾



□□□

فهرس الجزء الثالث عشر

تفسير سورة الفرقان

تفسير سورة الشعراء

تفسير سورة النمل

تفسير سورة القصص

تفسير سورة العنكبوت

□□□

